محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى 3



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى ٣

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

محمود درويش



الأعمال الأولى ٣

محمود درويش

الأعمال الأولى ٣

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

AL-DIWAN
3

(Poems)
By Mahmoud Darwich

First Published in June 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21207 4

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

المحتويات

هي أغنية
هي أغنية
١٩٨٦

على قَلَقٍ كأن الريح تـحْتي..

«المتنبي»

سنخرج

سنخرجُ،
قلنا: سنخرجُ؛
قلنا لكم: سوفَ نخرجُ مِنّا قليلاً، سنخرجُ منَّا
إلى هامش أبيضٍ نتأمل معنى الدخولِ ومعنى الخروج
سنخرج للتوِّ. أبَّ أبونا الذي كان فينا إلى أمِّه الكَلِمَهْ
وقلنا:
سنخرج. فلتفتحوا خطوةً لدمٍ فاضَ عنَّا
وغَطَّى مدافعكم. أوقفوا الطائراتِ المغيرة خمسَ دقائقَ أُخرى
وكفّوا عن القصفِ، براً وبحراً، ثلاثَ دقائقَ أُخرى
لكي يخرج الخارجون وكي يدخلَ الداخلون..
سنخرج؛ قلنا سنخرجُ،
فلتتركوا حَيّزاً للوداعِ الأخيرِ. سلامٌ علينا، سلامٌ علينا.

سنجمع أعضاءنا في الحقائب، فلتوقفوا القصفَ خمسَ دقائقْ
لكي تغسلَ السيداتُ الأنيقاتُ أثداءَهنَّ من القُبَل السابقهْ.
سنخرج؛
قلنا: سنخرجُ منَّا قليلاً.. سنخرجُ منَّا
رمينا على حافَّة البحر ساحلَ أجسادنا، وانكسرنا
كعاصفة النخلِ، حين انتصرنا عليكم وحين انتصرنا علينا.
وزِدْنا الشوارع ظِلاً يُسمِّي المدينةَ شكلاً لمعنى
يُذَكِّرُ بالأبِ والابنِ والروحِ، مهما رحلنا ومهما ابتعدنا.
سنخرجُ؛ قلنا: سنخرج،
فلتدخلوا في أَريحا الجديدةِ سبعَ ليالٍ قصارٍ فقط،
فلن تجدوا طفلةً تسرقون ضفيرتها، أو فتى تسرقون فراشاتِه
ولن تجدوا حائطاً تكتبون عليه أَوامر تنهي عن الزنزلختِ وعنَّا
ولن تجدوا جُثَّةً تحفرون عليها مزاميرَ رحلتكم في الخرافهْ
ولن تجدوا شرفةً كي تطلُّوا على الأبيضِ المتوسطِ فينا
ولن تجدوا شارعاً للحراسهْ
ولن تجدوا ما يَدُلُّ عليكم، ولن تجدوا ما يَدُلُّ علينا.
خرجنا قبيلَ الخروجِ، فلا ترفعوا شارة النصر فوق الجثثْ.
هنا نحن. نحن هناك. ولسنا هناك، ولسنا هنا.

هنا نحن تحت العناصر. نحن دمٌ كامنٌ في الهواءِ الذي تذبحونَهْ.
سنخرج؛
قلنا: سنخرجُ. فلتقصفوا ظلَّنا.. ظِلَّنا
خُذوهُ أسيراً إلى أُمِّهِ الأرضِ أو عَلِّقوه على شجر الكَسْتَنا
تكونون أوْ لا نكون! ادخلوا وهمَكم، واحرثوا وهمنا.
سنخرجُ؛
قلنا: سنخرج من أوَّل البحرِ
بعد قتيلٍ، وخمسةِ جرحى، وخمسِ دقائقْ
وبعد سقوط الطوائف حول اشتباك الحديد المدوِّي مع العائلةْ.
سنخرجُ من كل بيت رآنا نُدَمِّر دبابة قُربَهُ أو علينا
سنخرجُ من كلِّ مترٍ، ومن كلِّ يومٍ، كما يخرج البدوُ منَّا.
سنخرج؛
قلنا سنخرج مِنَّا قليلاً إلينا: سنخرجُ منَّا
إلى بُقعة البحر ـ أبيضَ أزرقَ ـ كنا هناك، وكنا هنا.
يدلُّ علينا الغيَابُ الحديديُّ. بيروتُ كانت هناكَ وكانتْ هنا
وكُنَّا على رُقعَة البرِّ ساعةَ حائطْ
ويومَ قرنْفُلْ.

وداعاً، لمن سوف يأتونَ من وقتنا صامتينْ،
ومن دمنا واقفينْ، لندخُلْ
سنخرجُ؛
قلنا: سنخرجُ حين سندخُلْ.

نُزْلٌ على البحر

نُزْلٌ على بحرٍ: زيارتُنا قصيرهْ
وحديثُنا نُقَطٌ من الماضي المهشَّم منذ ساعهْ
من أيِّ أبيضَ يبدأ التكوينُ؟
أنشأْنَا جزيرهْ
لجنوب صرختنا. وداعاً يا جزيرتنا الصغيرهْ.

□

لم نأتِ من بلدٍ إلى هذا البلدْ
جئنا من الرُّمّان، من سرِّيس ذاكرةٍ أتينا
من شظايا فكرةٍ جئنا إلى هذا الزبدْ
لا تسألونا كم سنمكثُ بينكم، لا تسألونا
أيَّ شيء عن زيارتنا. دعونا

نفرغُ السفنَ البطيئة من بقيَّة روحنا ومن الجسدْ
نُزْلٌ على بحرٍ: زيارتنا قصيرهْ
والأرضُ أصغرُ من زيارتنا. سنرسل للمياهِ
تُفَّاحةً أخرى، دوائرَ من دوائرَ، أين نذهبُ
حين نذهبُ؟ أين نرجعُ حين نرجعُ؟ يا إلهي
ماذا تبقَّى من رياضة روحنا؟ ماذا تبقَّى من جهاتِ
ماذا تبقَّى من حدود الأرض؟ هل من صخرة أُخرى
نُقَدِّم فوقها قربانَ رحمتك الجديدْ؟
ماذا تبقَّى من بقايانا لنرحلَ من جديد؟

□

لا تُعطِنا، يا بحرُ، ما لا نستحقُّ من النشيد.

□

للبحر مهنتهُ القديمهْ:
مدٌّ وجزرٌ،
للنساء وظيفةٌ أولى هي الإغراءُ؛
للشعراء أن يتساقطوا غمّاً

وللشهداء أن يتفجروا حُلُماً
وللحكماء أن يستدرجوا شعباً إلى الوهم السعيدْ.

□

لا تُعطِنا، يا بحرُ، ما لا نستحقُّ من النشيدْ.

□

لم نأتِ من لُغَة المكان إلى المكانْ
طالت نباتاتُ البعيدِ وطالَ ظلُّ الرمل فينا وانتشرْ
طالت زيارتنا القصيرةُ. كم قمرْ
أهدى خواتمهُ إلى مَنْ ليس منَّا. كم حجرْ
باضَ السنونو في البعيد. وكم سنهْ
سننام في نُزْلٍ على بحرٍ وننتظر المكانْ
ونقول: بعد هنيهة أخرى سنخرجُ من هنا.
متنا من النومِ، إنكسرنا ههنا
أفلا يدوم سوى المؤقَّت يا زمان البحر فينا؟

□

لا تُعطِنا، يا بحرُ، ما لا نستحقُّ من النشيدْ.

□

ونريد أن نحيا قليلاً، لا لشيءٍ
بل لنرحل من جديدْ.
لا شيء من أسلافنا فينا ولكنَّا نريدْ
بلادَ قهوتنا الصباحيّهْ
ونريدُ رائحةَ النباتات البدائيهْ
ونريدُ مدرسةً خصوصيهْ
ونريد مقبرةً خصوصيهْ
ونريد حريّهْ
في حجم جمجمةٍ .. وأغنيَّهْ.

□

لا تُعطِنا، يا بحرُ، ما لا نستحقُّ من النشيدْ.

□

.. ونريد أن نحيا قليلاً كي نعود لأيِّ شيء
لم نأتِ كي نأتي ..

رمانَا البحرُ في قرطاجَ أصدافاً ونجمهْ
من يذكر الكلماتِ حين توَهَّجتْ وطناً
لمن لا بابَ لَهْ؟
مَنْ يذكرُ البدوَ القدامى حينما استولوا على الدنيا.. بكلمهْ؟
من يذكر القتلى وهم يتدافعون لفضِّ أسرار الخرافهْ؟
ينسوننا، ننساهُمُ، تحيا الحياةُ حياتها.
من يذكر الآنَ البداية والتتمّهْ؟
ونريد أن نحيا قليلاً كي نعود لأيِّ شيء
أيِّ شيءٍ
أيِّ شيءٍ
لِبدايةٍ، لجزيرةٍ، لسفينةٍ، لنهايةٍ
لِأَذان أرملةٍ، لأقبيةٍ، لخيمهْ.
طالت زيارتنا القصيرهْ،
والبحر فينا مات من سَنَتَيْن.. مات البحرُ فينا.

□

لا تعطِنا يا بحرُ، ما لا نستحقُّ من النشيدْ.

غـبار القوافل

نحن للنسيان. قد جئنا لتقديم المدائحْ
لإلهٍ فَرَّ من خيمتنا
واختفى حين خرجنا نجمع الصيدَ لَهُ.

□

لا تخافوا يا أهالي الجبل العالي
فلن نمكثَ إلّا ليلتينْ
معنا ماءٌ، وخبزٌ، وهواءٌ. معنا أصواتُنا،
معنا ما يقطع الريحْ إلى نصفينِ .. يا أهل الجبلْ.

□

نحن لم ندخلْ ولم نخرجْ. ولكن سوف نرمي

قُوَّةَ الأشياء في الأشياء. هل مُتنا كثيراً لتخافوا موتنا
هل رسمنا صورة الوحش على الكهف لكي نألَفَهُ؟
فاحرسوا أشجاركم من غيمةٍ طارت وراء القافلةْ
نحن لا ندخل أو نخرجُ.. يا أهل الكهوف.

□

نحن لا نُشبه أسلاف القصصْ.
نحن للنسيان. حارَبْنا كثيراً خوفَكُمْ في خوفنا
تابعوا، يا أهل هذا الساحلِ المكسور، حرب الاعتذار
عن نباتٍ شَبَّ في قاماتنا حينَ مَرَرْنا بينكُمْ.
تابعوا سهرتكم، أو زوِّجوا عذراءكم للجنرال
فلقد تنجب جنساً ثالثاً للكرنفال.

□

نحن للنسيان. لن نبقى طويلاً ههنا،
لن ندُقَّ الطبل، لن نزعجكم، لن تسمعوا أحلامنا
لن نُطيلَ النومَ في قريتكم، لن نقطف الوردة من بستانكمْ
لن نُصلِّي معكم، لن نُقْلقَ الربَّ الذي يختاركم شعباً على
صورتِه

نحن لن نتركَ في ساحاتكم قطرة دمْ
وسنمضي قبل أن تستيقظوا من نومكم
قبل أن يدخل كسرى أو سواهُ.

□

لا تخافوا يا أهالي هذه الصحراء منَّا
نحن لا ننشُدُ شيئاً. نحن لا نبعث فيكم مرَّةً أُخرى نبيّاً
هذه أصنامكم فلتعبدوها مثلما شئتم. كُلُوا التَّمْرَ. كُلوا أسماءَنا.
نحن لا نأتي لنبقى. نحن لا نمضي لكي نرجع. لكنَّ الرياحْ
أوقعتنا خطأً في حَيِّكُمْ، فلتذبحوها بالسيوف الصدئهْ
واحرسوا زوجاتِكم من طائر الفينيق في أجسادنا
واحفظوا الرملَ من العشب الذي يسقطُ من ألفاظنا سهواً عليكم،
واحرسوا نخلتكم من ظلّنا الطائر، وانسونا، وناموا آمنين.

□

نحن للنسيان. قد جئنا لتقديم الذبائحْ
لإِلهٍ فرَّ من خيمتنا

واختفى، حين خرجنا نُوقد النار لَهُ.
نحن للنسيان. إن جئنا إلى النهر حملناهُ يداً للأُغنيهْ
وإذا جئنا إلى الحقل فتحناهُ مدىً للأُغنيهْ
كُلُّ صوتٍ يحفرُ الصخرة ـ نحنُ
كُلُّ نايٍ لم يجدْ أنثاهُ ـ نحنُ
كُلُّ حُلْمٍ لم يجد حالِمَهُ الأوَّلَ ـ نحنُ
نحن جمهوريَّة النسيان، لم ندخل ولم نخرج، وللنسيان نحنُ.

□

عـزف منفرد

لو عُدْتُ يوماً إلى ما كان، هلْ أجِدُ
الشيءَ الذي كانَ والشيءَ الذي سيكونْ؟
العزف منفردُ
والعزفُ منفردُ

□

من ألفِ أُغنيةٍ حاولْتُ أن أُولَدْ
بين الرماد وبين البحر. لم أجِدِ
الأُمَّ التي كانت الأُمَّ التي تَلِدُ
البحرُ يبتعدُ
والعزفُ منفردُ

□

صدَّقتُ روحيَ لمَّا قالتِ التصقِ
بالحائط الساقطِ، استسلمتُ للشَّبَقِ
ولو كتبتُ على الصفصاف نوعَ دمي
لجاءتِ الريحُ عكسَ الريح في وَرَقِ
الصفصافِ، والصفصافُ يَتَّقدُ
والعزفُ منفردُ

□

لو عُدْتُ يوماً إلى ما كان لن أجدا
غيرَ الذي لم أجدْهُ عندما كُنْتُ
يا ليتني شَجَرٌ كي أستعيد مدى
الراوي. وأُسندَ أُفقي حيثما مِلتُ
وليتني شَجَرٌ لا يستطيل سُدى..
صَدَّقتُ حُلْميَ؟ لا. صَدَّقْتُ ما يَرِدُ
والعزفُ منفردُ

□

بَحْرٌ أماميَ، والجدرانُ ترجمني
دعْ عنكَ نفسكَ واسلمْ أيها الولَدُ.

البحر أصغرُ منِّي كيف يحملني؟
والبحر أكبرُ مني كيف أَحملهُ؟
ضاقتْ بيَ اللغةُ، استسلمتُ للسُّفُنِ
وغصَّ بالقلبِ حين امتصَّهُ الزَّبَدُ
بَحْرٌ عليَّ.. وفيَّ الأبيضُ ـ الأَبَدُ.
والعزفُ منفردُ

□

بَعْدَ البعيد بعيدٌ كُلَّما ابتعدا
صارَ البعيدُ قريباً من خطوط يديْ
أُحسُّهُ وأراهُ واحداً أحدا
على هواءٍ لَهُ إيقاعُ أغنيتي.
أكلَّما اتسعتْ خطواتنا وَقَعَتْ
سماؤنا فوقنا واستجمعت بَدَدا؟
لو عدتُ يوماً إلى ما كان من بلدِ
الزيتون، صحْتُ: تباطأْ أيها البَلَدُ.
والعزفُ منفردُ

□

لو عُدْتُ يوماً إلى ما كان، لن أجدا
الحُبَّ الذي كان والحبَّ الذي سيكونْ.
من ألفِ زنبقة حاولتُ أن أَعدا
القلبَ القديمَ بقلبٍ توأمٍ، وجنون
حبيبتي! يا امتثالَ الروحِ للجسدِ
ويا نهايةَ ما لا ينتهي أبدا
قطعتِ شريان مَوْجي يا ابنةَ الزَّبَدِ
قطعتِ صوتيَ عن تاريخ أغنيتي.
وددتُ لو أجد الإيقاع، لو أجِدُ.
والعزفُ منفردُ

□

قلتُ: الوداع لما يأتي ولا يصِلُ
ورحتُ أبحثُ عمَّا غابَ من قمري.
دعْ عنكَ موتكَ، وارحل أيها الرجلُ
وارحل وهاجرْ وسافرْ داخلَ السَّفَرِ
ليس المكان مكاناً حين تفقدُهُ،
ليس المكان مكاناً حينَ تنشُدُهُ.
وكُلَّما حطَّ دُورِيٌّ على حَجَرِ

بحثتَ للقلب عن حوّاءَ تُرْشِدُهُ
وكلّما مالَ غُصْنٌ صحتُ: كم عَدَدُ
الهجراتِ؟ كم عَدَدُ الأموات يا عَدَدُ.
والعزفُ منفردُ

□

.. وعابر في بلاد الناس، لا ذكرى
تركتُ فيها ولا ذكرى حملتُ لها
كأنني لم أكن فيها ولم أرها.
خرجتُ أدخل أسمائي، فبعثرها
النسيانُ، وانقسمتْ نفسي لتُشهرها.
أمُرُّ بالشيء كاللاشيءِ.. لا أجِدُ
الشيء الذي يُوجَدْ
من ألف أغنيةٍ حاولت أن أُولدْ
لو عدتُ يوماً إلى نفسي فهلْ أجِدُ
النفسَ التي كانتِ النفسَ التي كانت؟
يا ليتني وَلَدُ، يا ليتني وَلَدُ،
والعزفُ منفردُ

□

هذا خريفي كلّه

فَتَّشْتُ عن نفسي، فأرجعني السؤالُ إلى الوراءْ
لا شيء يأخذني إلى شيءٍ. وينسدلُ الفضاءْ
عليَّ مشنقةً، ويندسُّ المدى
في ثُقْبِ إبرةٍ عاشقةْ
فَتَّشْتُ عن نفسي: سلامٌ للذين أُحبُّهم
عبثاً؛ سلامٌ للذين يُضيئهم
جرحي .. هواءٌ للهواءِ. وأين نفسي بين ما
يسطو على نفسي ويرفعها رُخاماً للهباءْ.
هذا خريفي كُلُّهُ
أعلى من الشجر المُذهَّب، أين أذهب حين أذهبْ؟
في حضن سَيِّدتي مكانٌ واسع لقصيدتينْ
ولموتِ كوكبْ.

كُلُّ الشوارع أوصلت غيري إلى طرف السماءِ
فأين أذهب، أين أذهبْ؟
كُلُّ الشوارعِ أوقعتهم في بياضٍ خادعٍ بين البداية والنهاية.
أُمّي تُعدُّ ليَ الصباحَ على طَبَقْ
من فِضَّةٍ أو سندِيانٍ. ليس في أُمِّي سوى
أُمٌّ هنالك تنتظرْ
وهنا يدٌ تسطو على يومي وتسرقُ ما أُعِدُّ من الكلامْ
ييبسَ الكلامُ، وطارَ موَّالُ الحمامِ،
ونامَ مَنْ أعددتُهم لسماع أُغنيتي.
ونام النومُ، نامَ،
ولا جديدَ لدى النشيد ولا وصايا للضحايا،
لا بداية للنهاية، لا نهاية للبدايةِ
أيها الشجرُ ارتفعْ أعلى وأعلى. أيها الشجر استمعْ
لتحيتي مكسورةً كبيارقي الأُولى. ويا.. يا أيها الشجر الْتمِعْ
لأراك في فجرِ الرمادْ.
وبحثتُ عن نفسي فأرجعني السؤال إلى بلادٍ لا بلادَ لها.
بلادٌ للبلادْ.
لا. لم أكن ما كنتُ لكن كُلَّما وقعت عن الأشجار غيمهْ
فتّشتُ عن أرضٍ لأسندها.. بلادٌ للبلادْ.

لا. لم أكن ما كنتُ لكن كُلَّما ضيَّعْتُ نجمهْ
ضاع الطريقُ إلى النجومِ. وضِعتُ في نفسي، ولكن أين مَنْ
كانوا معي؟ أين انفجارُ اليأس في جسدين؟ أين الأنبياءْ؟
يا أيها الشجرُ إندثرْ فيَّ.. اندثرْ
لأصوغَ روحي من حطامي؛ أيها الشجرُ انكسرْ
لأرى خُطاي مدايَ فيَّ. وأيها الشجر انفجرْ
كي أفتحَ الشُبَّاك للشباك فيَّ.. وأنفجِرْ
حريتي - لغتي
سَلامٌ للذين أحبُّهم عبثاً
سَلامٌ للذين يضيئهم جرحي
سَلامٌ للهواءِ.. وللهواءْ.

أربعة عناوين شخصية

١ ـ متر مربع في السجن

هو البابُ، ما خلفه جنَّةُ القلب. أشياؤنا ـ كُلُّ شيء لنا ـ تتماهى. وبابٌ هو الباب، بابُ الكنايةِ، باب الحكاية. بابٌ يهُذِّب أيلولَ. بابٌ يعيد الحقولَ إلى أوَّل القمحِ. لا بابَ للبابِ لكنني أستطيع الدخول إلى خارجي عاشقاً ما أراهُ وما لا أراهُ. أفـي الأرض هـذا الـدلالُ وهـذا الجمـالُ ولا بـابَ للبابِ؟ زنزانتي لا تضيء سوى داخلي.. وسلامٌ عليَّ، سلامٌ على حائط الصوتِ. أَلَّفْتُ عشرَ قصائدَ في مدْح حريتي ههنا أو هناك. أُحبُّ فُتاتَ السماءِ التي تتسلل من كُوَّة السجن متراً من الضوء تسبح فيه الخيولُ، وأشياءَ أمِّي الصغيرة.. رائحةَ البُنِّ في ثوبها حين تفتح باب النهار لسرب الدجاجِ. أُحبُّ الطبيعةَ بين الخريفِ وبين الشتاءِ، وأبناءَ سجَّانِنا، والمجلاَّت فوق الرصيف البعيدِ. وأَلَّفْتُ عشرين أُغنيةً في هجاء المكان الذي لا مكان لنا فيه. حُرِّيتي: أن أكونَ كما

لا يريدون لي أن أكونَ. وحريتي: أنْ أوسِّع زنزانتي: أن أواصل أغنية البابِ: بابٌ هو البابُ: لا بابَ للبابِ لكنني أستطيع الخروج إلى داخلي، إلخ.. إلخ..

٢ ـ مقعدٌ في قطار

مناديلُ ليست لنا. عاشقاتُ الثواني الأخيرةِ. ضوءُ المحطة. وردٌ يُضَلِّل قلباً يُفَتِّش عن معطفٍ للحنانِ. دموعٌ تخونُ الرصيفَ. أساطيرُ ليست لنا. من هنا سافروا، هل لنا من هناك لنفرحَ عند الوصول؟ زنابقُ ليست لنا كي نُقَبِّل خط الحديد. نسافر بحثاً عن الصِّفْر لكننا لا نحبُّ القطارات حين تكون المحطات منفى جديداً. مصابيحُ ليستْ لنا كي نرى حُبَّنا واقفاً في انتظار الدخانِ. قطارٌ سريعٌ يَقُصُّ البحيراتِ. في كُل جيبٍ مفاتيحُ بيتٍ وصورةُ عائلةٍ. كُلُّ أهلِ القطارِ يعودون للأهلِ، لكننا لا نعودُ إلى أي بيتٍ. نسافرُ بحثاً عن الصفرْ كي نستعيد صواب الفراش. نوافذُ ليستْ لنا، والسلامُ علينا بكُلِّ اللغات. تُرى، كانت الأرضُ أوضحَ حين ركبنا الخيولَ القديمةَ؟ أين الخيول، وأين عذارى الأغاني، وأين أغاني الطبيعة فينا؟ بعيدٌ أنا عن بعيديَ. ما أبعدَ الحبّ! تصطادنا

الفتياتُ السريعاتُ مثل لصوصِ البضائعِ. ننسى العناوين فوقَ زجاج القطاراتِ. نحن الذين نحبُّ لعشر دقائقَ لا نستطيع الرجوعَ إلى أي بيتٍ دخلناه. لا نستطيع عبور الصدى مرتين.

٣ ـ حجرة العناية الفائقة

تدورُ بيَ الريحُ حين تضيقُ بيَ الأرضُ. لا بُدَّ لي أن أطيرَ وأن ألجُمَ الريحَ، لكنني آدميٌّ.. شعرتُ بمليون نايٍ يُمَزِّقُ صدري. تصبَّبْتُ ثلجاً وشاهدتُ قبري على راحتيَّ. تبعثرتُ فوق السرير. تقيَّأتُ. غبتُ قليلاً عن الوعي. متُّ. وصحتُ قبيل الوفاة القصيرة: إني أحبُّكِ، هل أدخل الموت من قدميكِ؟ ومتُّ.. ومتُّ تماماً، فما أهدأَ الموتَ لولا بكاؤك! ما أهدأَ الموتَ لولا يداكِ اللتان تدقّان صدري لأرجع من حيث متُّ. أحبك قبل الوفاةِ، وبعد الوفاةِ، وبينهما لم أشاهد سوى وجه أمي.

هو القلب ضلَّ قليلاً وعادَ، سألتُ الحبيبة: في أيِّ قلبٍ أُصبتُ؟ فمالتْ عليه وغطَّتْ سؤالي بدمعتها. أيها القلب..
يا أيها القلبُ كيف كذبت عليَّ وأوقعتني عن صهيلي؟

لدينا كثير من الوقت، يا قلب، فاصمُدْ
ليأتيك من أرض بلقيس هدهدْ.
بعثنا الرسائل.
قطعنا ثلاثين بحراً وستين ساحلْ
وما زال في العمر وقتٌ لنشرُدْ.
ويا أيها القلب، كيف كذبتَ على فرسٍ لا تملُّ الرياحَ.
تمهَّل لنكملَ هذا العناقَ الأخيرَ ونسجُدْ.
تمهَّل.. تمهَّلْ لأعرفَ إن كنتَ قلبي أو صوتَها وهي تصرخ: خُذني.

٤ ـ غرفة في فندق

سلامٌ على الحب يوم يجيءُ، ويوم يموتُ، ويومَ يُغَيِّرُ أصحابَهُ في الفنادِقِ! هل يخسرُ الحبُّ شيئاً؟ سنشربُ قهوتنا في مساءِ الحديقةِ. نروي أحاديثَ غربتنا في العشاءِ. ونمضي إلى حجْرةٍ كي نتابع بحث الغريبين عن ليلةٍ من حنانٍ، [إلخ.. إلخ..].

سننسى بقايا كلام على مقعدين، سننسى سجائرنا ثم يأتي سوانا ليكمل سهرتنا والدخان. سننسى قليلاً من النوم فوق الوسادة. يأتي سوانا ويرقد في نومنا، [إلخ.. إلخ..] كيف كُنَّا نُصَدِّقُ أجسادَنا في الفنادِقِ؟ كيف نُصَدِّقُ أسرارَنا في الفنادق؟ يأتي سوانا، يُتابع صرختنا في الظلام الذي وَحَّدَ الجسديْن، [إلخ.. إلخ..] ولسنا سوى رَقمين ينامان فوقَ السرير المشاع المشاع، يقولان ما قاله عابرانِ على الحبِّ قبل قليلٍ. ويأتي الوداعُ سريعاً سريعاً. أما كان هذا اللقاء

سريعاً لننسى الذين يحبوننا في فنادق أخرى؟ أما قلتِ هذا الكلام الإباحيَّ يوماً لغيري؟ أما قلتُ هذا الكلام الإباحيَّ يوماً لغيرك في فندقٍ آخر أو هنا فوق هذا السريرِ؟ سنمشي الخطى ذاتها كي يجيءَ سوانا ويمشي الخطى ذاتها.. [إلخ.. إلخ..].

أنا العاشق السيئ الحظ

تمرَّد قلبي عليّ.

□

أنا العاشق السيئُ الحظِّ
نرجسةٌ لي وأُخرى عليّ

□

أَمُرُّ على ساحل الحبّ. أُلقي السلامْ
سريعاً. وأكتب فوق جناحِ الحمامْ
رسائلَ منِّي إليّ.

□

كم امرأةٍ مزقتني

كما مَزَّقَ الطفلُ غيمهْ
فلم أتألَّم، ولم أتعلَّم. ولم أحْمِ نجمهْ
من الغيم خلف السياج القصيّْ

□

أمُرُّ على الحب كالغيم في خاتم الشجرهْ
ولا سقفَ لي، لا مَطَرْ
أمرُّ كما يعبر الظلُّ فوق الحجرْ
وأسحب نفسيَ من جَسَدٍ لم أرَهْ
وأحمل قلبي قميصاً على كتفيّْ

□

أخاف الرجوع إلى أيِّ ليلٍ عرفتُهْ
أخاف العيون التي تستطيعُ اختراق ضِفافي
فقد تبصر القلبَ حافي
أخاف اعترافي
بأني أخاف الرجوع إلى أيِّ صدرٍ شربتُهْ
فأُلقي بنفسيَ في البئر.. فيّْ.

□

أنا العاشق السيىءُ الحظِّ. قلتُ كلاماً كثيراً
وسهلاً عن القمح حين يُفَرِّخُ فينا السنونو.
وقلتُ نبيذ النُعاس الذي لم تقله العيونُ
ووزَّعْتُ قلبي على الطير حتى تَحُطَّ وحتى تَطيرا
وقلتُ كلاماً لألعبَ. قلتُ كلاماً كثيراً
عن الحُبِّ كي لا أُحِبَّ، وأحمي الذي سيكونُ
من اليأس بين يديّ.

□

.. ويا حُبّ، يا من يُسَمُّونه الحبَّ، مَنْ أنتَ حتى تعذب هذا الهَواءْ
وتدفع سَيِّدةً في الثلاثين من عمرها للجنونِ
وتجعلني حارساً للرخام الذي سال من قدميها سماءْ؟
وما اسمُك يا حُبُّ ، ما اسمُ البعيدِ المعلَّقِ تحت جفوني
وما اسمُ البلاد التي خيَّمت في خطى امرأة جَنَّةً للبكاءْ
ومَنْ أنت يا سَيِّدي الحب حتى نُطيع نواياك أو نشتهي أن نكون ضحاياكَ؟
إيَّاك أعبدُ حتى أراكَ الملاكَ الأخيرَ على راحتيّ.

□

أنا العاشق السيىء الحظِّ. نامي لأتبع رؤياك، نامي
ليهرب ماضيَّ مما تخافين. نامي لأنساكِ. نامي لأنسى مقامي
على أول القمح في أوَّل الحقلِ في أوَّلِ الأرضِ. نامي
لأعرف أني أحبك أكثر مما أُحبكِ. نامي
لأدخل دغل الشعيرات في جَسَدٍ من هديل الحمام
ونامي لأعرف في أي ملحِ أموتُ، وفي أيِّ شَهْدٍ سأُبعثُ حيًّا.
ونامي لأُحصي السموات فيك وشكل النباتات فيكِ.
وأُحصي يَديًّا
ونامي لأحفر مجرى لروحي التي هربتْ من كلامي
وَحطَّتْ على ركبتيكِ.. لتبكي عليّا.

□

أُحبُّ، أُحبُّ، أُحبُّكِ. لا أستطيع الرجوعَ إلى أوَّلِ البحر.
لا أستطيع الذهاب إلى آخر البحر. قولي
إلى أين يأخذني البحرُ في شهوتكْ
وكم مرةً سوف تصحو الوحوش الصغيرة في صرختكْ؟
خذيني لآخذَ قوتَ الحَجَلْ
على ركبتك.

□

أُحِبُّ، أُحِبُّ، أُحبُّك. لكنني لا أُريد الرحيلَ على موجتكْ
دعيني، اتركيني، كما يترك البحر أصدافَهُ على شاطىءِ العزلة
الأزليّ.
أنا العاشق السيىء الحظِّ لا أستطيع الذهاب إليكِ. ولا
أستطيع
الرجوع إليّ.

□

تمرد قلبي عليّ.

□

عند أبواب الحكاية

للنهايات مذاقُ القمر البُنيّ، طعمُ الكلماتْ
عندما تحفُر في الروحِ مجاريها.. وتنشفْ
ولها صوتُ أبينا في السموات، وإصغاءُ حصاةْ
لوصايا الملحِ. مُتْ يا حُبُّ مُتْ فينا، لنعرف
أنَّنا كُنَّا نحبُّ.
كُلُّ شيء جاهزٌ من أجل هذا الانكسار العاطفيّ
شَجَرُ السرو، وورُدُ الحائط الأحمرُ، والدمع المُخَبَّأْ
وطريقٌ لا يؤدِّي بي إلى بيتٍ ومرفأ
وتحيَّاتُ الحديدِ
لمكانٍ غيَّر السُكانَ والألوانَ. مُتْ يا حب فيّ
لأرى النهر على هيئةِ أفعى ونهايات نشيدِ..

□

النهاياتُ يَدٌ تخرجُ منها يدُها الأُخرى
ووجهٌ لسماء تتكسَّرْ
هل بوسعِ القلبِ أن يسقط أكثرْ؟
هل بوسعِ البَجَعِ العاشقِ أن يرقصَ أكثرْ؟
صرختي أكبر مني. صرختي أضيقُ من صحرائنا
صرختي دَلَّتْ على قلبي قليلاً، وأضلَّتْهُ كثيرا
والنهايات بداياتُ سؤالي عن صواب الأغنيهْ
تَصْدُقُ الصحراء فينا عندما يكذب عصفورٌ علينا
وتصير الأقبيهْ
لَقَباً للأَندلس.

□

ها أنا أَصحو من النومِ. على صدريَ آثارُ يديْنِ
وعلى المرآة ما يُشبه مَنْ كنتُ أُحبُّ،
أو أُحبُّ الآن، أو أعبدُ، أو يجلدُ روحي بُعْدُها
وعليَّ الآن أن أخلع عن بطنيَ ختم الشفتينِ
وعليَّ الآن أن أخرج من نفسيَ كي يندسَّ في نفسي ونفسي
جلدُها

وعليَّ الآن أن أسقيَ حُلْماً سابقاً شاي الصباحْ
وأقول: المطرُ الناعمُ جلدُ إمرأةٍ كانت هنا
كانت هنا
كانت هنا

□

ها أنا أدخلُ في النومِ. أرى حُلْمي. أرى
كُلَّ ما يحدث لي بعد قليلْ
قد مررنا مثلما مرَّ سوانا
واشتهينا كسوانا وافترقنا كسوانا
ربما نرجع للشيء الذي شرَّدنا بعد قليلْ
ربما نرجع، لكنْ حُلُمي إياهُ يأتي عكسَ حُلْمي
كلَّما قلت وجدت الشيء فَرَّتْ نحلةٌ حبلى بشَهْدٍ، فرأيت
أنَّ حُلْمي عَكْسُ حلمي

□

لم يعد في وُسْع هذا القلب أن يصرخَ أكثرْ
السماويُّ ترابيٌّ، فمتْ يا حبُّ فينا نتحرَّرْ

من نجوم لا تغطّينا ولا توقد فينا نرجسهْ.
النهايات هي الحُلْم الذي يشبه حُلْماً قد حدثْ.
النهاياتُ هي المرأةُ والفكرةُ إذ تفترقانِ
والنهاياتُ هي الفكرةُ والمرأةُ إذ تنتظرانِ
عند أبواب الحكايهْ

□

هل أُسميكِ النهايهْ
أم أُسميكِ البدايهْ؟

□

سأسميكِ البدايهْ.

□

في آخر الأشياء

ثَمَرٌ على وشك السقوط عن الشجرْ
تلك النهايةُ والبدايةُ أو كلامٌ للسفرْ.

□

في آخر السردابِ ينكسرُ الفضاءُ ويتَّسعْ.
لا نستطيع البحثَ عن شيء وعن قولٍ يُحَرِّر حائطاً
فينا. وتنفتح الشوارعُ كي نَمُرّ.

□

ظلاَّن ينفصلانِ عنَّا، ثم ينتشرانِ ليلاً لا يُحَسُّ ولا يُرى
مَنْ يستطيعُ الحبَّ بعدك؟ من سيشفى من جراح الملح
بعدَكَ؟ في زواج البحرِ والليلِ آستدار القلبُ نحوك،

لم يجدنا، لم يجد حَجَلاً تَزَيَّا بالحجرْ.

□

في آخر السرداب نبلغ حكمة القتلى، نُساوي
بين حاضرنا وماضينا لننجو من كوابيس الغدِ
أيَّامنا شَجَرٌ. وكم قمرٍ أرادكِ زوجةً للبحر،
كم ريحٍ أرادت أن تهبَّ لتأخذيني من يدي.
أيامنا ورقٌ على وشكِ السقوط مع المطرْ.

□

لم تبقَ للموتى سوى الحججِ الأخيرةِ. لا مكانَ لنا هنا
لنطيلَ جلستنا أمام البحرِ. فلنفتحْ طريقاً للزهورْ
ولأرجُل الأطفالِ كي يتعلموا المشي السريع إلى القبورْ.
كبرت تجاربنا وضاق كلامُنا
فلننطفىءْ
ولنختبىءْ
في سيرةِ الأسلافِ والسفرِ المؤدِّي للسفرْ.

□

في آخر السرداب يسقطُ من يدينا كُلُّ شيءْ.

لا تستطيع روائحُ اللوز استعادتَنا ولا دربُ الشآمْ.

في آخر الأشياء نطلبُ كُلَّ شيء يمنع الثمرَ الأخيرَ من السقوطْ

لكننا نمضي إلى حتفِ الفواكهِ في مكابرة المحبِّين الجُدُدْ.

ـ لا تذكريني عندما ينمو جنينك لا تطأ حلمي ولا تسمع منامي

ـ لا تغضبي مني ولا تغضبْ من الذكرى ومن صدأٍ على ريش الحمام.

في آخر الأشياء ندرك كم سيذبحنا وينكرنا القمرْ.

□

في آخر الأشياء ينكسر الكلامُ على أصابعنا ونُخفي

ما اختفى منّا ولمْ نعلمْ. ونرحمُ وردةَ البيتِ الأخيرهْ.

إن جئتِ أُغنيتي ولم تجدي حذاءَك فاعلمي أني كذبتُ على المدى.

إن جئتِ أُغنيتي ولم تجدي صراخك فاعلمي أني كذبتُ على الصدى.

إن جئتِ أُغنيتي ولم تجدي نهايتها أحبّيني قليلاً كي تحبّيني سدى.
إن جئتِ أُغنيتي ولم تجدي بدايتها أعيدي زهرةَ البيت الأخيرة للندى.
في آخر الأشياء نعلم أننا كنا نحبُّ لكي نحبّ.. وننكسرْ.

□

... ولو استطعتُ ملكتُ عُمرَكِ ساعةً ودقيقةً منذ الولادةْ
حتى محاولة انتحاري حول خَصْرِكْ
وسرقت نعناع الطفولة من خُطاكِ وشرق شَعْرِكْ.
ولو استطعتُ قتلت من رسموا فراشة ركبتيكِ
وشاهدوا الحجلَ المراوِغَ فوق صدرِكْ
ولو استطعتُ لكنتُ عبداً، أو إلهاً في مَمَرِّكْ
وأعدتُ تكوين الخليقة كي أكون الموجة الأولى لبحرِكْ
والصَّرخةَ الأولى لبرِّكْ
ولو استطعتُ لكنتُ أُدْرِكُ أننا
ثَمَرٌ على وشكِ السقوطِ عن الشجرْ.

فانتازيا الناي

النايُ خيطُ الروح، خيطٌ من شعاع أو أبَدْ
أبَدِ الصدى. والنايُ أنَّ يئنُّ أنّي راجعٌ من حيثُ جئتْ
من حيث جئتُ بلا رفيقٍ، أو بلدْ
بلدٍ يَلُمُّ حُطام أُغْنيتي،
ما نفعُ أُغنيتي؟

□

النايُ أصواتٌ وراء الباب. أصواتٌ تخافُ من القمر
قمر القرى. يا هل تُرى وَصَلَ الخبرْ
خبرُ انكساري قربَ داري قبل أن يصل المطرْ
مطرُ البعيدِ، ولا أُريدُ من السّنهْ
سنة الوفاةِ سوى التفاتي نحو وجهي في حجرْ

حجرٍ رآني خارجاً من كُمِّ أُمّي مازجاً قدمي بدمعتها
فوقعتُ من سنةٍ على سَنَةٍ
ما نفعُ أُغنيتي؟

□

النايُ ما نُخفي ويظهر من هشاشتنا، ونمضي
نمضي لنقضي عمرنا بحثاً عن الباب الذي لم ينغلقْ
لم ينغلقْ بابٌ أمام الناي. لكنَّ السحابةَ تحترقْ
مما أصاب خيولنا، يا نايُ، فاثقبْ في الصخورِ طريقنا حتى نمرّ
حتى نمر كما يمرُّ العائدون من المعارك ناقصينَ
وخاسرينَ شقائق اللغةِ
ما نفعُ أُغنيتي؟

□

النايُ آخر ليلتي. والنايُ أوَّل ليلتي. والنايُ بينهما أنا
أنا لا أُنادي غير ما ضيَّعْتُ من قلبي هنا
وهناك سرنمةٌ. بلادي تشتهيني ميتاً ومشتتاً حول السياجْ
حول السياجِ يطاردُ الأولادُ قُوتَ الطيرِ أو قطع الزجاجْ

زجاجِ أيَّامٍ تُعَدُّ على الأصابع أو على توت البيوت
توتُ البيوتِ يموت فيَّ، ولا يموتُ
ولا يموتُ على الغصون. تموتُ ذاكرتي
ما نفعُ أُغنيتي؟

□

النايُ، ناح النايُ صاح النايُ في شجر النخيلِ
شجر النخيل سيشتهينا. مَوِّهينا وادخلي باهَ الصهيلِ
وأَنا الصهيلُ وأنت جلدي، دثّريني دثّريني، واشربي عسل القتيلِ
وأنا القتيلُ، وأنت أفراسٌ. سأسقط كالنداء عن السفوحْ
وعلى السفوح ينوح نايٌ. فضّة الوديان أَنَّتْ حول حنجرتي.
فرس من الشهوَةْ
لا تبلغُ الذروةْ
ما نفعُ أغنيتي؟

□

النايُ نار الحب حين نظنُّه قد مات فينا
قد مات فينا فجأة ما نشتهيه ويشتهينا

ما يشتهينا نشتهيه، ورغبتي تبكي كأنثى الوحش تبكي
تبكي شعيرات الدم المحبوسِ في لُغَتي لأصرخ:
كم أُحبُك، أو لأحكي
أحكي عن الناي الذي لا يستطيع فراق أُغنيتي
ما نفعُ أُغنيتي؟

□

النايُ يفضحُ جرحنا المنسيَّ. يفتح سرّنا للاعترافْ
الاعتراف بكل ما نخفي وراء قناعنا. كنا نحبُّ
كنا نحبُّ نساءَنا. كنا نصَدِّق ماءنا وهواءنا. كنا نخافْ
كنا نخافُ نهاية الأشياء فينا عندما كنا نشبُّ
كنا نشبُّ على الخرافة. باسم مَنْ نهذي ونرفع حلمنا
هل حلمُنا، يا ناي، كنزٌ ضائعٌ
أم حبل مشنقةٍ؟
قمرٌ على الشرفَهْ
لا يدخلُ الغرفَهْ
ما نفعُ أُغنيتي؟

□

محاولة انتحار

كتب الوصيَّةْ:
عشرون أُغنيةً لعينيها، وللرمل البقيَّةْ.

□

لم أَحترقْ
لم أَحترقْ
والنار ما زالت مُسَوَّدَةً خفيّة.

□

لم يبقَ لي غير النزول عن الصدى
والسير خارج داخلي بين الشظايا والمدى.
عبثاً أُقدِّس ما يدنِّسُهُ الكلام سدىً سدى

فلأنصرفْ عني وعنكِ إلى الغيوم الليلكيَّهْ.

□

فَتَحَ النوافذ للكآبة: كم أرى
سُحُباً تغطيني وتمطرُ خارجي. كَمْ مِنْ قُرى
أَلِفَتْ حنيني واختفت بدخانها. كم من شعاعٍ أخضرا
شقَّ السماء وشَقَّني لأكون: قاعاً، أو ذُرى
وقصيدتي لا تنتهي إلّا لتبدأ منكِ يا لُغَتي العصيَّهْ.

□

لم يبقَ لي غيرُ الذي لم يبقَ لي. تعب المغني والمحاربْ
فليستريحا؛ ريثما تُنهي مراكبُنا عويل البحر أو تُسْبى
المراكبْ
وليستريحا ليلةً، حتى نرى حجراً نُسَمِّرُ فوقه ضوء الكواكبْ
وليستريحا فيَّ. هل من قِمَّةٍ أُخرى
لنسرٍ لا يريد الموتَ في حقلِ الحقائبْ؟
لم يبقَ لي غير انكسارِ السيفِ في جَسَد الضحيَّهْ.

□

ماذا تبقَّى منك، يا شِعري، سوى امرأة تُغنِّي ما استطاعت أن تُغنِّي
للقادمين من الغياب ومن أصابع أدمنت شارات نصرٍ كَسَّرتني؟
مات الذين أُحبُّهُم، واللوزُ يُزهر كلَّ عامٍ بانتظامْ
ماتوا، ولكنَّ الصخور تبيضُ لي حجلاً وتسحب ظلَّها البُنيَّ عني
طُرق بلا طُرق هناكَ،
وههنا أفقٌ، وأغنية تمنَّتني ولكن حطَّمتني
وحدي أُجدِّد صرختي: عودوا لأسمع صرختي. عودوا إليَّ الآن مني.
ماذا تبقَّى منك، يا شعري، سوى أسماء قتلانا، ووشمٍ في الهويَّهْ؟

□

ماذا تبقَّى منك، يا امرأتي، سوى يأسٍ تُكَلِّلني يداهُ؟
قد خفتُ من هذا النسيج وخفت من هذا النشيج ومن عَدُوٍّ لا أراهُ.
لا نهر فيَّ لتعبريه إليَّ فجراً. كُلُّ ما فيَّ انتباهٌ وانتباهُ.

لا بحر فيك لكي أصبَّ نهايتي. لا برَّ فيك لأهتدي من حيث شرَّدني الإلهُ.
وهبطتُ من قدميكِ كي أعلو إلى قدميكِ ثانيةً، ويخطفني مَتَاهُ
لكنَّ قلبي كان يعرف أنه لا يستطيع الارتفاع إلى مداكِ..
إلى مداهُ.
ماذا تبقَّى منك، يا امرأتي، سوى عسل سيجرحني سُدىً
ماذا تبقَّى منكِ غير قصيدةِ الحبِّ الشقيَّهْ؟

□

كتبَ الوصيَّهْ:
عشرون أغنيةً لعينيها .. وللرمل البقيَّهْ.

□

لا تشرحي أسباب هذا الانتحارِ لأصدقائي
لا ترتدي فحم الثياب، ولا تُغطيني بريحانٍ ورايهْ
لا تحفري فوق الهواء تحيَّةَ القلب الأخيرهْ
وإذا استطعتِ فلا تُحبّي أيَّ شخصٍ تعرفينه
وإذا استطعت تجنَّبي مطر الخريفِ وصوتَ أُمّي،
وخُذي من النسيان زنبقةَ البياضِ العائليَّهْ.

□

فَتَحَ النوافذ للذي يأتي، فلم يسمع سوى دقّات ساعته الأخيرهْ.
دقّتْ، تدقُّ ، تعدّ ساعات النهاية. كم نهايهْ
ستدقُّ ساعتهُ لتُنهي دورة العمر القصيرهْ؟
لم يبقِ لي غيرُ النزولِ من البداية.. للبدايهْ
والسير داخل خارجي. لكن سدى
وسدى تطول المسرحيَّهْ.

□

هو لا يُوَدِّع أيَّ شيء أو أحدْ
لا شيء يغريه بأن يبقى على حبل الفراغ من الفراغ إلى الفراغ
مُعَلَّقاً.
قال: الحياةُ هديَّةُ الأفعى، فما شأني أنا
في مَنْ سيفرحُ بالهديَّه؟

□

وَضَعَ المُسَدَّس بين رؤياهُ، وحاول أن ينامْ
إن لم أجد حلماً لأحلمهُ سأطلقُ طلقتي
وأموت مثل ذبابةٍ زرقاءَ في هذا الظلامْ

وبلا شهيَّهْ.

□

كتب الوصيَّهْ:
عشرون أُغنيةً لعينيها، وللرمل البقيَّهْ

□

كتب الوصيَّه:
لا، لا وصيَّهْ.

آن للشاعر أن يقتل نفسه

آن للشاعر أن يقتل نفسَهْ
لا لشيء، بل لكي يقتل نَفْسَهْ.

□

قال: لن أسمح للنحلة أن تمتصَّني
قال: لن أسمح للفكرة أَن تَقْتَصَّ منِّي.
قال: لن أسمح للمرأة أن تتركني حيّاً على ركبتها.

□

من ثلاثينَ سَنَهْ
يكتب الشعر وينساني. وقعنا عن جميع الأَحصنهْ
ووجدنا الملح في حبةِ قمحٍ، وهو ينساني. خسرنا الأمكنهْ

وهو ينساني. أنا الآخر فيه.

□

كُلُّ شيءٍ صورةٌ فيه. أنا مرآتُهُ
كُلُّ موتٍ صورةٌ. كُلُّ جَسَدْ
صورةٌ. كُلُّ رحيل صورة. كُلُّ بَلَدْ
صورةٌ. قلتُ: كفى متنا تماماً، أين إنسانيتي؟ أين أنا؟
قال: لا صورة إلّا للصوَر.

□

من ثلاثينَ شتاءْ
يكتب الشعر ويبني عالَماً ينهار حولهْ
يجمع الأشلاء كي يرسم عصفوراً وباباً للفضاءْ
كُلَّما انهار جدارٌ حولنا شاد بيوتاً في اللغهْ
كلَّما ضاق بنا البرُّ بنى الجنة، وامتدَّ بجُملهْ
من ثلاثينَ شتاء، وهو يحيا خارجي.

□

قال: إنْ جئنا إلى أُولى المُدُنْ

ووجدناها غياباً
وخراباً
لا تُصدِّقْ
لا تُطَلِّقْ
شارعاً سرنا عليه.. وإليهِ.
تكذب الأرضُ ولا يكذب حُلْمٌ يتدلى من يديهِ.

□

من ثلاثينَ خريفاً
يكتب الشعر ولا يحيا ولا يعشق إلّا صوَرَهْ
يدخل السجنَ فلا يُبصر إلّا قمرَهْ
يدخل الحبَّ فلا يَقطِفُ إلّا ثمرَهْ
قلتُ: ما المرأةُ فينا؟ قال لي: تُفَّاحةٌ للمغفرهْ.
أين إنسانيَّتي؟ صحتُ
فسدَّ الباب كي يبصرني خارجَهُ. يصرخ بي:
من فكرةٍ في صورةٍ في سُلَّم الإيقاع تأتي المرأة المنتظرهْ.

□

آن للشاعر أن يخرج مني للأبد.
ليس قلبي من ورقْ
آن لي أن أفترقْ
عن مرايايَ وعن شعب الورقْ.
آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفقْ
آن للوردة أن تخرج من شوكتها كي تحترقْ
آن للشوكة أن تدخل قلبي كُلَّهُ
كي أرى قلبي، وكي أسمع قلبي، وأحسَّهْ.
آن للشاعر أن يقتل نفسهْ،
لا لشيء،
بل لكي يقتل نفسهْ.

أوديب

[ما حاجتك للمعرفة... يا أُوديب]

ما حاجتي للمعرفهْ؟
لـم ينجُ منِّي طائرٌ أو ساحرٌ أو اِمرأهْ.
العرش خاتمةُ المطافِ، ولا ضفافَ لقُوَّتي
ومشيئتي قَدَرٌ. صنعتُ أُلوهتي
بيدي، آلهةُ القطيع مُزَيَّفَهْ.
ما حاجتي للمعرفهْ؟

□

السرُّ في الإنسان،
والإنسانُ سَيِّدُ نفسه وسؤالِهِ
لا علم إلّا ما يراهُ الآن،
والماضي دموعٌ مُتْرَفهْ

ما حاجتي للمعرفهْ؟

□

أمشي أمامي واثقاً من صولجان خطايَ. ظلّي أزرقٌ
والناسُ أشجاري
وللتاريخ أن يأتي بكُلّ قضاتِهِ وشهودِهِ
ليؤرخوا فرحي بمملكتي
وأولادي وسُورَ مدينتي
وجلالَ أقنعتي
وموتَ الأمسِ فيَّ وفي المؤرِّخ. ههنا أحيا. هنا أحيا، هنا
ما حاجتي للمعرفهْ؟

□

لا شأنَ لي بسلالتي
كانوا رُعاةً، أم ملوكاً، أم عبيدْ
هذا أنا مَلِكٌ
أنا ملك وحيدْ
وأُحِبُّ إمرأتي وأعبدُها وأَلبسُ عُرْيَها
وأشدُّها من كل أطراف الدم الجنسيِّ في دمها

وأُطلقُ صرختي بفحيح حيواناتها الصغرى.
أُريدكِ مَرَّةً أخرى، فلا تتحدثي عن زوجكِ الماضي وعن
رجل
سوايَ.
أنا هنا. وأنا هنا.
وأنا هنا
وهنا أنا ...
ما حاجتي للمعرفهْ؟

□

أنا كائنٌ في ما أكونْ
وأنا أنا
ماضيَّ سرٌّ لا يُؤرِّقني؛
سأكمل ما بدأتُ من الجوابِ، لأكملَهْ.
لا شأن لي بالأسئلهْ.
عمَّا مضى
لا شأن لي، لا شأنَ لي. وأنا جوابٌ للجوابْ،
لا شأن لي في أصل أُمِّي
سيَّان، إن كانت أميرهْ

أو فقيرهْ.

أنا واحدٌ

أحَدٌ

مَلكْ ...

ما حاجتي للمعرفهْ؟

□

لم يسألوني مَرَّةً: من أيِّ صُلْبٍ قد أتيت؟

لم يسألوني: مَنْ أبوك ومَنْ أخوك؟ ومن قتلتَ وهل قتلتُ؟

لكنهم قالوا: ستثأرُ للملكْ

فسألت: مَنْ قتلَ الملكْ؟

وسألتُ: من قتل الملكْ؟

أنا قاتلُ الملكِ. الملكْ

هو والدي المجهول والراحلْ

وأنا بريءٌ من دَمٍ واقفْ

بيني وبين اللّه . لم أعرفْ

بأني القاتل الجاهلْ

وهل الجريمة أنني قاتلْ

أَمْ أنَّني عارفْ؟!

□

أنا زوجُ أُمِّي
وابنتي أُختي
وتختي، مثل عرشي، أوبئهْ
يا إمرأةْ
يا معرفهْ
ما حاجتي لكما،
لماذا لم تموتا مثلَ موت الآلههْ
مَنْ أطلق الماضي عليَّ كأخطبوط حول روحي التائههْ
مَنْ دسَّ في خمري سموم المعرفهْ؟
ما حاجتي للمعرفهْ
ما حاجتي للمعرفهْ؟

يكتب الراوي: يموت

ليس لي وجهٌ على هذا الزجاجْ
الشظايا جسدي
وخريفي نائمٌ في البحرِ
والبحرُ زواجْ.
فلينم أصحاب هذا الوقت في ساعاتهم
هذه الأجراس لا تأخذني اليومَ
إلى أي لقاء أو وداع..
هذه الأجراسُ لا تعلن وقتي
إنَّ وقتي من شعاع

□

يكتبُ الراوي على الكورنيش

والموج الممزَّقْ:
ذهب المَوتُ إلى البحر
وظلَّ البحر أزرق

□

مُدنٌ تأتي وتمضي. هذه زنزانتي
بين جوار الضوء والظلِّ
جدارٌ وجدارْ..
إن وجهي واحدٌ. والموت واحدْ.
مدن تأتي.. وظلَّ يتمدَّدْ
مدن تمضي .. وظلَّ يتبدد
هذه حريتي
بين حوار الظلِّ والضوء
نهار وجدار
إن وجهي واحدٌ.. والموت واحدْ

□

يكتب الراوي على السكين:

من هذا النزيفْ
طار عنقودُ حمامْ
وعلى سطح الرغيفْ
وجد العشَّ، ونامْ

□

ليس لي وجه على مرآة هذا الوقت
وجهي كبيوت الفقراء
«يشرب النسيان» من ذاكرة القمحِ
وحلم الأنبياء.
مُدُنٌ تأتي وتمضي. ساعةُ الحائط للعرضِ
وللأرض أنا .. والشهداء

□

وهنا بيروت في الصفر التجاريِّ وفي أقراص منع الحمل والحنطة ـ تبكي وقتها المكسور في الإِعلان عن أقراص منع الوطن الآخر ـ
تبكي وقتها المهدور في هذا المساء.
ليس لي وجه على هذا الكفن

فلينم أصحاب هذا الوقت في ساعاتهمْ
ولينهضِ الموتى من الموت لترويض الزمن

□

يكتُبُ الراوي على باب المدينة:
من هنا مر الخريفْ
في ثياب القَتَلَهْ
وعلى كل رصيفْ
حفلة للسنبلَهْ

□

ليس لي وَجْهٌ على هذا الفراق
الشظايا جسدي
والمسافاتُ عناق
آه، لو يبتعد الموتى عن الموت قليلا
لأراهم في تفاصيل الأملْ
آه، لو أسحب مني جثتي
لأرى الفارقَ ما بين الصّدى والصوت

والفكرةَ في بؤس العمل.
كلٌّ شيء قابل للاحتراقْ
في احتمالات الكتابة
كلٌّ شيء في يد الراوي أو الشاعر
شعرٌ وعناقْ ..

□

الضحايا ـ صُورَةٌ
والدم ـ إيقاع قصيدهْ
واندلاعُ الفجر في الغابةِ
والماء الطليعيّ ..
وعطرُ البرتقال الرحبُ..
والموتُ دفاعاً عن حصان أو عقيدهْ
في يد الشاعر شعرٌ وعناقْ!..
يا إلهي! أين إنسانيتي
يا إلهي! كيف أنجو من مهارات اللغة!
كل شيء قابل للاحتراق
في احتمالات الكتابة

المسافات عناق

والتفاصيل عناق

والعلاقات عناق

□

ولذلك

يكتب الراوي على كل البيوت:

الحقيقيُّ يموت

والحقيقيُّ يموت!

أسميك نرجسة حول قلبي

[إلى سميح القاسم]

دوائرُ حولَ الدوائرِ، لو كان قلبي مَعَكْ
قطعتُ مزيداً من البحرِ. ماذا أصابَ الفَرَاشَ،
وما صَنَعَ النبعُ بالفتياتِ الصغيرات؟ ماذا دهانا؟
لندخل هذا العناقَ السرابَ.. العناقَ السرابَ السرابْ
ونحن على مشهدٍ لا يُكَرِّر إلّا حضورَ الغيابْ
تماثيلَ تُحصى، حصى، مشمشاً، شارعاً، شارعين. وبابْ
يطلُّ على خُطْوةٍ لم تصلْ بعدُ. ماذا أصاب الوهجْ
وما فعل الليلُ بالعتبات الأليفةِ؟ ماذا دهانا؟
لتنفصلَ العينُ عن نظرةٍ صَوَّبَتها؟ أحين تمدُّ الجذورْ
رسائلَها في الفضاءِ لتمتدَّ فينا يغيبُ الحضورْ؟
غيابٌ حُلوليَ في كُلِّ دارِ. غيابٌ بلادٌ أُشيّدها في اللغهْ

غيابٌ دخوليَ في الروحِ لا شيءَ فيَّ. غيابٌ غيابْ.

□

إذا غَفَر اللهُ للأنبياءْ
وعادوا إلى الأرضِ من ملكوت العقيدهْ؛
إذا غَفَر اللّهُ للسجناءْ
وعادوا إلى البيتِ من رحلةٍ في مساء القصيدهْ؛
إذا غَفَر اللّهُ للشهداءْ
وعادوا إلى الأهل من جنَّة الكلماتِ البعيدهْ
فهل تغفرُ الأمُّ لي
رحيلي إلى امرأةٍ ثانيهْ؟

□

دوائرُ حول الدوائِرِ، دعني أُفسِّرْ لكَ الحادثهْ
حلمتُ، كما كُنْتَ تحلم، أَن حزيران أقسى الشهورْ
وأَنَّ الكلام الذي يتكرَّرُ فينا لكي نتبعهْ
هو الكارثهْ.
حلمتُ، كما كنتَ تحلمُ، أن البحيرات زرقاءُ خلف يديَّ
وخلفَ يديكْ.

وأن الطريق المعاكسَ أقربُ منّي إليَّ، وأقربُ منكَ إليكْ،
وأَن لحريتي رمزَ تموزَ والزوبعهْ.
حلمتُ فَطِرْتُ لأدخل، ثانيةً، في الجذورْ
وغبتُ لأُحضِرَ كلَّ هدايا اللغهْ
إليكْ ..
وكدتُ أعود قُبَيْل انبثاق الفراقْ
ولكنَّ حادثةَ الوهم تمَّتْ، وتَمَّ احتراقُ البُراقْ
على شارعٍ عجَّ بالحالمين،
وبالرحلة الثالثهْ.

□

إذا ضَلَّت الروحُ خارجَها
ضَلَّلَتْ روحَ داخلها.

□

أسمِّيك نرجسةً حول قلبيَ
لو كان قلبي معكْ،
وأودعتُهُ خَشَبَ السنديانِ،
لكنتُ قطعتُ الطريقَ بموتٍ أقلَّ...

أما من وراءٍ؟ أما من أمامٍ؟ أما من صعود؟
أما من هبوط؟
أما آن للفارس الحُرِّ أن يتوسَّدَ ظِلاّ
وأن يشتري قبرَهُ قبل أن ينفدَ القفرُ. ماذا دهانا
أما كان من حقِّنا أن نُصَدِّق امرأةً واحدهْ
وأُسطورة واحدهْ؟
حرامٌ علينا مكاشفةُ الذات. هل ترقص الباسادوبلي
وتعبر في شارع المومساتْ؟
أما كان من حَقِّنا أن نواصل ذاك الضحكْ
وكَسْرَ الزجاجاتِ في شارعِ الليل حين يموت الملكْ؟
لنا الذكرياتُ، وللغزوِ ترجمةُ الذكرياتِ إلى أسلحهْ
ومستوطناتْ.
أما زلت تؤمن أن القصائد أقوى من الطائراتْ؟
إذن، كيف لم يستطع إمرؤُ القيسِ فينا مواجهة المذبحهْ؟
سؤالي غلطْ
لأنَّ جروحي صحيحهْ
ونطقي صحيحٌ، وحبري صحيحٌ، وروحي فضيحهْ.
أما كان من حَقِّنا أن نكرّس للخيل بعضَ القصائد قبلَ انتحار

القريحهْ؟
سؤالي غلطْ
لأني نمطْ
وبعد دقائقَ أشربُ نخبي ونخبكَ من أجل عامٍ سعيدٍ جديدٍ
جديدٍ
سعيدٍ
جديدٍ سعيدْ

□

إذا ضلَّت الروحُ خارجَها
ضلَّلَتْ روحَ داخِلها.

□

سنكتبُ، لا شيء يثبت أني أُحبك غير الكتابهْ
أُعانق فيك الذين أحبوا ولم يفصحوا بعد عن حُبِّهم.
أُعانق فيك تفاصيل عمر توقَّفَ في لحظةٍ لا تشيخُ.
هنا قلبُ أُمّي. هنا وجهُ أُمِّك.
هنا أوَّل الشِّعْرِ والسخريهْ.
هنا أول السُّلَّم الحجريِّ المؤدّي إلى اللّه والسجن والكلمهْ.

هنا نستطيع انتظارَ القياصرة المؤمنين بجحشٍ
توقف في أرضنا قبل ميلاد عيسى عليه السلام،
وأسَّس دولته بعد ألفي سنهْ.
أتحسب أن الزمانَ يُضَيِّعُ حَقَّ الحمير بقتلِ العربْ؟

□

سنكتب. لا شيء يثبتُ أنَّ الزمانَ طويلُ اللسانِ
سوى الكلماتِ التي لا تَصُدُّ سوى موتِ
صاحبها
فقُلها
وقُلْها
وخفِّفْ عن القلبِ بعضَ التلوّثِ والأسئلهْ
وقُلْها
وخفِّفْ عن الناس ساديَّة العصرِ والأخوةِ ـ القَتَلَهْ
سنكتب من غير قافيةٍ أو وطنْ
لأنَّ الكتابة تثبت أني أُحبكْ،
وأنَّ لأُمي حقاً بقلبكْ
وأنَّ يديك يدايَ، وقلبيَ قلبُكْ!

من فضة الموت الذي لا موت فيه

نسيانُ أَمرٍ مّا صعودٌ نحو باب الهاويهْ
هذا أنا أنسى نهاياتي وأصعدُ ثم أهبطُ. أين يُمْتَحنُ الصوابْ؟
هل في الطريق، أم الوصولِ إلى نهاياتِ الطريق المُفْرِحَهْ؟
وإذا وصلتُ فكَيفَ أمشي؟ كيفَ أرفعُ فكرةً أو أغنيهْ
ضيَّقْتُ هاويتي لتكبرَ خطوتي فيها، وأجلستُ السماء على الحصى
وعليَّ أنِ أنسى لأنفضَ عن يديَّ سلاسلَ الطُّرقِ الكثيرهْ
وعليَّ أن أنسى هزائميَ الأخيرة كي أرى أُفُقَ البدايهْ
وعليَّ أن أنسى البدايةَ كي أسيرَ إلى البدايةِ واثقاً منِّي ومِنها.
ولأنني ما زلتُ أسألُ، لا أرى شكلاً لصوتي غيرَ قبوي.
هل كان معيارُ الحقيقةِ دائماً سيفاً لأُخفي فكرتي مُذْ طارَ سيفي؟
مَنْ يستطيعُ البحثَ عن سفحٍ لصوتٍ خرٍّ في الوادي السحيقْ؟

مَنْ يستطيعُ البحثَ عن أمٍ أتانا صمتُها عبر الخيول الفاتحهْ
وتزوَّجَتْ لغةَ العدوِّ. تعلمتْ أديانَهُ واستسلمتْ لغيابها
ماذا أرى مما جرى؟ هل أستطيع البحثَ عن مترٍ مُرَبَّعْ
لأحيل أُغنيتي إليهِ، خلفَ هندسةِ الخرابِ الصارمهْ
ولخطوتي الأولى. ألم أعرف تماماً شكل موتي
وحجارة القمر المبعثرِ، عندما أهديتُ موتي
لسلام أطفالٍ سينجبهم عَدُوِّي من نسائي
هل هكذا التاريخ لا يروي سوى سِيرَ الملوك الناجحينْ؟
دافعتُ عما لا أراهُ، ولن أراهُ، ولن أراهُ، وعن سرير العاشقهْ
دافعتُ عن شجرٍ سيشنقني إذا ما عُدْتُ من لغتي إليهْ
دافعت عمَّا كان لي، ويفرُّ مني حين توقظهُ يدايْ
دافعت عمَّا ليس لي. وسأستطيع إذا استعطتُ سأستطيع
أن أُرجعَ الماضي إلى ماضيهِ، أن أستلَّ موعظةَ الجبلْ
ممَّن رآني سائراً متسائلاً بين الضحايا والشهودْ
ضيَّقْتُ هاويتي لأوضحَ خطوتي. وسأستطيعُ سأستطيعْ
أن أملأَ الكلماتِ معناها وأن أحيا كما شاءت مشيئةُ رغبتي
هذا أنا أنسى نهاياتي وأصعدُ ثم أصعدُ نحو باب الهاويهْ
أهناك ما يكفي من الأفكار كي أختارَ خطوتي الأخيرهْ؟

أهناك ما يكفي من البلدان كي أضعَ الكلامَ على الرصيفِ..
وأنصرفْ
أهناك ما يكفي من الكلمات كي أبني نوافِذَ لا تطلُّ على المذابحْ؟
أهناك ما يكفي من التاريخ كي أجدَ ابتهالاتِ الشعوبِ السابقهْ؟
أهناك ما يكفي من النسيان كي أنسى.. وأنسى
أنسى لأبتكر البداية من نهاية ما انتهى فينا. كَسَرْتُ الدائرهْ
وكسرتُ نفسي كي أرى نفسي تدلُّ على انتباهِ الأجنحهْ
وعليَّ أحياناً. أنطعمُ خيلَنا لُغَةً، أنُسْرِجُها الكنايهْ؟
من ليس منَّا صار منَّا. إفتحوا باب الحدائق في قيودي
يخرجْ إليكمْ ما أُريدُ من الكلام، وما أُريدُ من اليمامْ.
لم يَبقَ لي شيءٌ لأخسرَهُ هنا. لم يبقَ شيءٌ كي أراهْ
لم يَبقَ لي شيءٌ يناديني ولا شيءٌ يضافُ إلى كتابات الكهوفْ
في قوَّتي ضعفُ الممرِّ، وفي انكساري قوةُ المعنى. فماذا
لو هبَّ نعناعٌ على أقفاص نفسي، وارتفعتُ على حطامي العاليهْ
ماذا لو اكتمل النشيدُ الحرُّ، وانهارتْ حدودُ الهاويهْ؟

ماذا لو انقضَّ النهارُ عليَّ من ثقب المدى؟ هي أُغنيهْ
منذُ الصعود إلى الهبوط إلى محاولةِ الصعود على الصدى.
هي أُغنيهْ
سيوزِّع النسيانُ أعشاباً على جدرانها، وسنستعيدْ
أيامَ إخوتنا وتاريخ انبجاس الماءِ من حجر. فكم سنةً سنبقى
في قاع هاويةٍ نُعَلم روحنا قُدَّاسَها وجنَاسَها.
ونعيدُ للأسماءِ سُكَّاناً نسوا أسماءَهم كي يتبعونا
ويُقايضوا دَمهم برُمَّان البعيدْ؟
صَدَّقتُ أُغنيتي وكذَّبْتُ الخريفَ وليتني كذَّبتُ أُغنيتي
وصدَّقتُ
الخريفْ
هل يستطيع الوردُ في أحلامِ مَن مات النزولَ عن السياجْ؟
هل نستطيع العيشَ أكثرَ ما استطعنا كي نرى ذَهَبَ الكلامْ
خبزاً وفاكهةً؟ «أسأتُ إليكَ يا شعبي» أسأتُ كما أساء الحبُّ
لي
وأصَبْتُ طفلاً بالأغاني حين قدَّستُ المعاني وحدها
وتركتُ سُكَّان القصيدة في مُخَيَّمهم يَعُدُّونَ الهواءَ على
الأصابعْ.
كم من أخ لك لم تلدْهُ الأمُّ يولَدُ من شظاياكَ الصغيرهْ؟

كم من عدوٍّ غامض ولدتْهُ أُمُّك يفصلُ الآن الظهيرةَ عن دمكْ؟
«أأسأتُ يا شعبي إليكَ» كما أساءَ إليَّ آدمْ؟
ما أضيقَ الأرضَ التي لا أرضَ فيها للحنين إلى أحدْ!
كم مرةً ستعيدُ للأممِ، المسيحَ على طبقْ
من فضة الموت الذي لا موت فيهِ ولا دَرَجْ..
كم مرةً ستعيدُ للأَشياءِ أوَّلها وللأَسماءِ فكرتها البسيطهْ
كم مرةً ستمرُّ وحدكَ في «الطريق إلى دمشق»، ولا ترى
غيرَ الفراغ المُرِّ، يا صحراءُ كوني نعمةً، كوني صغيرهْ
لتمرَّ قافلةُ الدعاءِ وقبضةُ القمحِ الأخيرهْ
كم مرةً ستكونُ آخرَ من يكونُ ولا يكونْ؟
يستدرجونَكَ، فانتظرهمْ خارجَ المعنى ولا تُلقِ السلامَ على أحدْ
واخطفْ خطاكَ من الخناجر، وارتفعْ أعلى من الشجرِ السحابةِ واللغهْ
وادخلْ إلى أنفاقِ نفسك كي ترى ما ليس فيهم.
يستدرجونَكَ، فانتظرهمْ خارجَ الأشياء. كن شبحاً. وكنْ
شبحاً، ولا تخلعْ قناعَكَ عن دروعك. كُنْ شبحْ
شبحَ البدايةِ والنهايةِ والمدى، أنت المدى. هي أُغنيهْ

قطعوا يديَّ وطالبوني أن أُدافع عن حلبْ
واستأصلوا مني خطاي وطالبوني أن أسير إلى صلاة الغائبين
أشعلتُ معجزتي وسِرتُ، فحاصروني، حاصروني، حاصروني
قالوا: انتظِرْ، فنظرتُ. [لا تكسرْ موازينَ الرياحِ مع العدوّ]
ووقفتُ. قالوا: لا تقفْ. فمشيتُ ثانيةً، فقالوا: لا تسِرْ
[الحربُ فَرٌّ. لا تحاربْ خارجَ الكلماتِ]. قلتُ: مَن العدوّ؟
[إرفعْ شِعارَكَ وانتظرهُ. واعتذرْ عمَّا فعلتْ]
ماذا فعلتُ؟ [بحثتَ وحدكَ عن خطاكَ ولم تبلِّغْ سيِّدَكْ]
مَن سيّدي؟ قالوا: [الشعارُ على الجدارِ] فقلت: لا
لا سيِّدٌ إلّا دمي المحروقُ في جسدي يفتشُ عن يديّْ
لتدُقَّ بوابات هذا الليلِ. لا. لا سيِّدٌ إلّا دمي. هي أُغنيهْ
وعليَّ أن أجدَ الغناء لكي أسلِّي مَنْ أسلِّي: قاتلي، وحبيبتي
وأنا أُحبُّ لأرفعَ الأنقاضَ عن نفسي، وأحياناً أحبُّ لكي أحبّ
ماذا سأفعلُ بعد جسمِكِ، والشتاءُ هو الشتاءُ
عسلٌ عنيفٌ يرشدُ الأنثى إلى ذكرٍ، ويرشدني إلى عبثِ الكلامْ
دَقَّتْ حوافرُ هذه الأمطار خاصرتي. أألجأ للقصيدهْ
وهي التي فتحتْ على حريتي منفايَ فيكِ. وأين أنت وأين
أنتِ؟

في القاع يتَّضحُ الغيابُ. أرى الغيابَ. أجسُّهُ وأراهُ جسماً للغيابْ

وأقيسُ هَاويتي بما يبقى من النسيانِ، لا أنسى فأهبطُ في الجحيمْ

وأقيسُ هاويتي بما يبقى من النسيان، فاهبطْ أيها النسيانُ حَبْلاً للخروجْ

للخارجِ الهاوي. تعِبتُ من الرجوع إلى مَهَبِّ الذاكرهْ

أنسى لأعرف أننا بَشَرٌ. وأنسى كي أجَدِّد وردتي

لا شيء فيَّ، ولا أمامي‌َ، كي أرى خُبَّيْزَةً حمراءَ في هذا الخرابْ

لا شيء فيكِ لكي أضحّي بالمدائحِ والجسدْ

لا شيء فينا كي نعود إلى مُسَاءَلَةِ الطبيعةِ والطبائعْ

لا شيء فينا كي نعلّق شارعاً فوق الصدى. هي أغنيهْ

وعليَّ أن أجدَ السماءَ هنا لأُصبحَ طائراً

وعليَّ أن أنسى لكي أجدَ الذي أنساهُ. ماذا أنتظرْ؟

لم يبقَ في تاريخ بابي ما يدلُّ على حضوري أو غيابي

بابٌ ليدخل أو ليخرجَ مَنْ يتوبُ ومَنْ يَؤوبُ إلى الرموزْ

بابٌ ليحملَ هدهدٌ بعضَ الرسائلِ للبعيدْ

لم يبقَ في تاريخ بابي غيرُ خطوة مَنْ أريدُ ومن أحبّ،

كلُّ الذين كرهتهمْ مرُّوا ببابي حين نمتُ وحين قمتُ

من آدمَ المحكومِ بالصحراءِ حتى آخرِ الأعداءِ من أبناءِ أمِّي
أأنا الوحيدُ المستباحُ كشمسٍ آبَ وتسميات الآلهةْ؟
أأنا الوحيدُ الحرُّ في كلِّ العصورِ وفي جميع الأمكنةْ
ليقيسَ كلُّ الناسِ، حُرِّياتهم بطلاق أُمِّي من أبي
هل متُّ من زمنٍ بعيدٍ واختفيتُ ولم يصدِّقني أحدْ؟
ويواصلون البحثَ عن قبري ليتفق الحليفُ مع العدوِّ على فضاء مشانقي
ويواصلون البحثَ عن صوتي لأشهدَ أنني ... لا صوت لي
أو أنني نصفُ الطريقِ إلى التوابل والحرير.
أأننا استراحةُ من يحاربُ أو يفاوضُ.. أو يخاطب ربَّهُ
أو واحةٌ للقافلةْ!
لا أستطيعُ تأمُّلَ الأَشياءِ وهي تعيشُ فيَّ لكي أغيب
وقُدِدْتُ من حجَرٍ، وفي حجرٍ سُجِنْتُ. ومِنْ حجرْ
أَطلعتُ نرجسةً لتُؤْنسَ صورتي. أنا من هناكْ
وبكُلِّ ما أُوتيتُ من حجرٍ سأجمعُ قوَّتي وخرافتي
لأكون صنواً لإسمي الحجريِّ، تخطيطاً لظلٍّ لي، وظلٍّ للمكانْ
ومسافةً قرب المسافةِ بين أسئلتي وأجوبةِ السيوفِ الغادرةْ.
سأُمزِّق الصحراءَ فيَّ وحول أجوبتي. سأسكنُ صرختي

«أنا من رأى»...

أنا من رأى في ساعةِ الميلادِ صحراءً فأمسك حفنة العشب الأخيرهْ

سأكون ما وسعَتْ يدايَ من الأفق

سأُعيدُ ترتيبَ الدروب على خُطاي

سأكونُ ما كانتْ رؤاي.

«أنا من رأى»...

«أنا مَنْ رأى نومَ التتارِ على الخيولِ الراكضهْ.

أنا مَنْ رأى أَمعاءَهُ فوق الدوالي.. فاقْتَرَبْ.

أنا مَنْ رأى تسعينَ والدةً لبنتٍ واحدهْ

أنا مَنْ رأى سرباً من الحشراتِ يصطادُ القمرْ

أنا مَنْ رأى في جرحِهِ تاريخَ هجراتِ الشعوب من الكهوفِ إلى

المسارحْ

أنا مَنْ رأى ما لا يَرَى. **هي أُغنيهْ**

لا شيءَ يعنيها سوى إيقاعِها؛ ريحٌ تهبُّ لكي تهبَّ لذاتِها. **هي أُغنيهْ**

حجرٌ يُشاهدُ عودةَ الأسرى إلى ما ليس فيهم؛ **أُغنيهْ**

قمرٌ يرى أسرارَ كُلِّ الناس حين يخبئون جنونهم في ضوئِهِ
ويصدقون
الأُغـنـيهْ
وهشاشةٌ تتفَقَّدُ الإنسانَ في آثارِهِ؛
في قطعةِ الخزفِ القديمةِ؛ في أداة الصَّيْدِ، في لَوْحٍ يُؤَوَّلُ؛
أُغنيهْ
لتمجِّدَ العبثَ الشقيَّ وقوةَ الأشياءِ في ما ليس يُدْرَكُ؛ **أُغنيهْ**
تُرسي، لتعرفَ نفسها، قانونَ غبطتِها وتَرْحَلْ
لقراءة أُخرى تراها عكسَ ما كانتْ تُشيرُ ولا تشير.
هـي أُغنيـهْ
هـي أُغنيـهْ

ورد
أقــل
١٩٨٦

سأقطع هذا الطريق

سأَقْطَعُ هذَا الطَّريقَ الطويلَ، وهذا الطريقَ الطويلَ، إلى آخِرِهْ
إلى آخر القلب أَقطعُ هذا الطريقَ الطويلَ الطويلَ الطويلْ...
فما عدتُ أَخسرُ غيرَ الغُبار وما ماتَ منِّي، وصفُّ النخيلْ
يدُلُّ علَى ما يَغيبُ. سأَعبرُ صفَّ النخيلِ. أَيحتاجُ جُرْحٌ إِلى شاعِرِهْ
لِيرسُم رُمَّانةً للغيابِ؟ سأبْني لكُمْ فَوْقَ سَقْفِ الصَّهِيلْ
ثَلاثِينَ نَافِذَةً للْكِنَاية، فلتخرُجُوا مِنْ رَحيلِ لكيْ تدْخُلُوا فِي رحِيلْ.
تضِيقُ بِنَا الأرضُ أَوْ لَا تضِيقُ. سنَقطعُ هذا الطَّريقَ الطَّويلْ
إِلَى آخر القوْس. فلتتوتَّرْ خُطَانا سِهاماً. أَكُنَّا هنا منذُ وقتٍ قليلْ
وعمَّا قليلٍ سنَبلغُ سهمَ البِدايةِ؟ دَارتْ بِنَا الرِّيحُ دارتْ، فَمَاذَا تقُولْ؟

أَقُولُ: سأَقْطَعُ هَذا الطَّريقَ الطَّويلَ إِلَى آخِري... وإِلى آخِرِهْ.

وما زال في الدرب درب

وَمَا زالَ فِي الدَّربِ دربٌ. وما زالَ في الدربِ مُتَّسَعٌ للرَّحِيلْ
سَنَرْمِي كثيراً من الوردِ في النَّهْرِ كَيْ نَقطَعَ النَّهْرَ. لا أَرْملَهْ
تحبُّ الرجُوعَ إِلَيْنا. لنذهبْ هناك.. هناكَ شمالُ الصهيلْ.
أَلَمْ تنْسَ شيئاً بسِيطاً يليقُ بميلادِ فكرتِنَا المُقْبلَهْ؟
تكلَّم عن الأَمسِ، يَا صاحِبي، كيْ أَرَى صُورَتِي في الهديلْ
وأُمسكَ طوقَ اليمَامَةِ، أَوْ أَجدَ النايَ فِي تينةٍ مُهْملَهْ..
حَنِيني يئنُّ إِلَى أَيِّ شيءٍ، حَنِيني يُصَوِّبني قاتلاً أو قتِيلْ
وَما زَالَ في الدَّرْبِ دربٌ لِنَمْشِي ونَمْشِي. إِلَى أَيْن تأخُذُنِي الأَسْئِلَهْ؟
أَنا مِنْ هُنَا، وأَنَا مِنْ هُنَاكَ. وَلَسْتُ هُنَاكَ ولسْتُ هُنَا
سَأَرْمِي كَثِيراً مِنَ الورْدِ قبْلَ الوُصُولِ إِلَى ورْدَةٍ فِي الجَلِيلْ.

إذا كان لي أن أعيد البداية

إِذَا كَانَ لِي أَنْ أُعِيدَ البِدَايَة أَختارُ ما اخْتَرْتُ: وَرْدَ السّياج
أُسَافِرُ ثَانيةً فِي الدُّرُوبِ التِي قدْ تُؤدِّي وقَدْ لا تُؤَدِّي إِلَى
قُرْطبَهْ.
أُعَلِّقُ ظِلِّي عَلَى صَخْرَتَيْنِ لِتَبْنِي الطُّيُورُ الشَّرِيدَةُ عُشّاً علَى
غُصْنِ ظِلِّي
وأَكْسِرُ ظِلِّي لأَتْبَعَ رَائِحَةَ اللَّوْزِ وَهِيَ تَطِيرُ عَلَى غَيْمَةٍ مُتْربَهْ
وَأَتعبُ عِنْدَ السُّفوحِ: تَعَالَوا إِلَيَّ اسْمَعُوني. كُلُوا مِنْ رَغِيفِي
اْشْربُوا مِنْ نَبيذي، ولا تَتْرُكُونِي عَلَى شَارِعِ العُمْرِ وَحْدِي
كَصَفْصَافَةٍ
مُتْعَبَهْ.
أُحِبُّ البِلادَ التِي لَمْ يَطَأْهَا نَشِيدُ الرَّحِيلِ ولمْ تَمْتَثِلْ لدمٍ وامْرَأَهْ

أُحِبُّ النِّسَاءَ اللَّواتِي يُخَبِّئْنَ فِي الشَّهَوَاتِ انْتِحَارَ الخُيُولِ عَلَى عتبَهْ.
أَعُودُ، إِذَا كَانَ لِي أَنْ أَعُودَ، إِلَى وَرْدَتِي نَفْسِهَا وإِلَى خطْوَتِي نَفْسِهَا
وَلَكِنَّنِي لَا أَعُودُ إِلَى قُرْطُبَه...

على هذه الأرض

عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ مَا يَسْتَحِقُّ الحَيَاةْ: تَرَدُّدُ إبريلَ، رَائِحَةُ الخُبْزِ فِي الفجْرِ، تعويذةُ امْرأةٍ للرِّجَالِ، كِتَابَاتُ أَسْخِيْلِيوس، أَوَّلُ الحُبِّ، عشبٌ عَلَى حَجرٍ، أُمَّهَاتٌ يَقِفْنَ عَلَى خيْطِ نايٍ، وخوفُ الغُزَاةِ مِنَ الذِّكْرَيَاتْ.

عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ مَا يَسْتَحِقُّ الحَيَاةْ: نِهَايَةُ أَيلُولَ، سَيِّدَةٌ تترُكُ الأَرْبَعِينَ بِكَامِلِ مشْمِشِهَا، ساعَةُ الشَّمْسِ فِي السِّجْنِ، غَيْمٌ يُقَلِّدُ سِرْباً مِنَ الكَائِنَاتِ، هُتَافَاتُ شَعْبٍ لِمَنْ يَصْعَدُونَ إِلَى حَتْفِهِمْ بَاسِمِينَ، وَخَوْفُ الطُّغَاةِ مِنَ الأُغْنِيَاتْ.

عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ مَا يَسْتَحِقُّ الحَيَاةْ: عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ سَيِّدَةُ الأَرْضِ، أُمُّ البِدَايَاتِ أُمُّ النِّهَايَاتِ. كَانَتْ تُسَمَّى فِلِسْطِين. صَارَتْ تُسَمَّى فلسْطِين. سَيِّدَتِي: أَسْتَحِقُّ، لأَنَّكِ سَيِّدَتِي، أَسْتَحِقُّ الحَيَاةْ.

أنا من هناك

أَنَا مِنْ هُنَاكَ. وَلِي ذِكْرِيَاتٌ. وُلِدْتُ كَمَا تُولَدُ النَّاسُ. لِي وَالِدَهْ
وبيتٌ كثيرُ النَّوافِذِ. لِي إِخْوَةٌ. أَصْدِقَاءُ. وَسِجْنٌ بِنَافِذَةٍ بَارِدَهْ.
وَلِي مَوْجَةٌ خَطَفَتْهَا النَّوارِسُ. لِي مَشْهَدِي الخَاصُّ. لِي عُشْبَةٌ
زَائِدَهْ
وَلِي قَمَرٌ فِي أَقَاصِي الكَلَام، وَرِزْقُ الطُّيُورِ، وَزَيْتُونَةٌ خَالِدَهْ.
مَرَرْتُ عَلَى الأَرْضِ قَبْلَ مُرُورِ السُّيُوفِ عَلَى جَسَدٍ حَوَّلُوه إِلَى
مَائِدَهْ.
أَنَا مِنْ هُنَاكَ. أُعِيدُ السَّمَاءَ إِلَى أُمِّهَا حِينَ تَبْكِي السَّمَاءُ عَلَى أُمِّهَا،
وَأَبْكِي لِتَعْرفَنِي غَيْمَةٌ عَائِدَهْ.
تَعَلَّمْتُ كُلَّ كَلامٍ يَلِيقُ بِمَحْكَمَةِ الدَّمِ كَيْ أكسر القَاعِدَهْ.
تَعَلَّمْتُ كُلَّ الكَلَامِ، وَفَكَّكْتُهُ كَيْ أُرَكِّبَ مُفْرَدَةً وَاحِدَهْ
هِيَ: الوَطَنُ ...

عناوين للروح خارج هذا المكان

عَنَاوِينُ لِلرُّوحِ خَارِجَ هَذَا المَكَانِ. أُحِبُّ السَّفَرْ
إِلَى قرْيَةٍ لَمْ تُعَلِّقْ مَسَائِي الأَخِيرَ عَلَى سَرْوِهَا. وأُحِبُّ الشَّجَرْ
عَلَى سَطْحِ بَيْتٍ رَآنا نُعَذِّبُ عُصْفُورَتَيْن، رَآنا نُرَبِّي الحَصَى
أَمَا كَانَ فِي وسْعِنَا أَنْ نُرَبِّي أَيَّامنَا
لِتَنْمُو عَلَى مَهلٍ فِي اتِّجَاهِ النَّبَاتِ؟ أُحِبُّ سُقُوطَ المَطَرْ
عَلَى سَيِّدَاتِ المُرُوجِ البَعِيدَةِ. مَاءٌ يُضِيءُ. وَرَائِحَةٌ صَلْبَةٌ
كَالحَجَرْ
أَمَا كَانَ فِي وسْعِنَا أَنْ نُغَافِلَ أَعْمَارَنَا،
وَأَنْ نَتَطَلَّعَ أَكْثَرَ نَحْوَ السَّمَاءِ الأَخِيرَةِ قَبْلَ أُفُولِ القَمَرْ؟
عَنَاوِينُ لِلرُّوحِ خَارِجَ هَذَا المَكَانِ. أُحِبُّ الرَّحِيلْ
إِلَى أَيِّ رِيحٍ.. وَلَكِنَّنِي لَا أُحِبُّ الوُصُولْ.

تضيق بنا الأرض

تَضِيقُ بِنَا الأَرْضُ. تَحْشُرُنَا فِي المَمَرِّ الأَخِيرِ، فَنَخْلَعُ أَعْضَاءَنَا كَيْ نَمُرَّ
وَتَعْصُرُنَا الأَرْضُ. يَا لَيْتَنَا قَمْحُهَا كَيْ نَمُوتَ وَنَحْيَا. وَيَا لَيْتَهَا أُمُّنَا
لِتَرْحَمَنَا أُمُّنَا. لَيْتَنَا صُوَرٌ لِلصُّخُورِ التِي سَوْفَ يَحْمِلُهَا حُلْمُنَا
مَرَايَا. رَأَيْنَا وُجُوهَ الذِينَ سَيَقْتُلُهُمْ فِي الدِّفَاعِ الأَخِيرِ عَنِ الرُّوحِ آخِرُنَا
بَكَيْنَا عَلَى عِيدِ أَطْفَالِهِم. وَرَأَيْنَا وُجُوهَ الذِينَ سَيَرْمُونَ أَطْفَالَنَا
مِنْ نَوَافِذِ هَذَا الفَضاءِ الأَخِيرِ. مَرَايَا سَيَصقُلُهَا نَجْمُنَا.
إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ بَعْدَ الحُدُودِ الأَخِيرَةِ؟ أَيْنَ تَطِيرُ العَصَافِيرُ بَعْدَ السَّمَاءِ الأَخِيرَةِ
أَيْنَ تَنَامُ النَّبَاتَاتُ بَعْدَ الهَوَاءِ الأَخِيرِ؟ سَنَكْتُبُ أَسْمَاءَنَا بِالبُخَارِ
المُلَوَّنِ بِالقُرْمُزِيِّ سَنَقْطَعُ كَفَّ النَّشِيدِ لِيُكْمِلَهُ لَحْمُنَا

هُنَا سَنَموتُ. هُنَا فِي المَمَرِّ الأَخِيرِ. هُنَا أَو هُنَا سَوْفَ يَغرِسُ زَيْتُونَهُ...
دَمُنَا.

نسير إلى بلد

نَسِيرُ إِلَى بَلَدٍ لَيْسَ مِنْ لَحْمِنَا. لَيْسَ مِنْ عَظْمِنَا شَجَرُ الكسْتَنَا
وَلَيْسَتْ حِجَارَتُهُ مَاعِزاً فِي نَشِيدِ الجِبَالِ. وَلَيْسَتْ عُيُونُ الحَصَى سَوْسَنَا
نَسِيرُ إِلَى بَلَدٍ لَا يُعَلِّقُ شَمْساً خُصُوصِيَّةً فَوْقَنَا
تُصَفِّقُ مِنْ أَجْلِنَا سَيِّدَاتُ الأَسَاطِيرِ: بَحْرٌ عَلَيْنَا وَبَحْرٌ لَنَا
إِذَا انْقَطَعَ القَمْحُ والمَاءُ عَنْكُم، كُلُوا حبَّنَا واشْرَبُوا دَمْعَنَا
مَنَادِيلُ سَوْدَاءُ لِلشُّعَرَاءِ. وَصَفٌّ تَمَاثِيلَ مِنْ مَرْمَرٍ سَوْفَ تَرْفَعُ أَصْواتَنَا
وَجُرْنٌ لِيَحْمِيَ أَرْوَاحَنَا مِنْ غُبَارِ الزَّمَانِ. وَوَرْدٌ عَلَيْنَا وَوَرْدٌ لَنَا
لَكُمْ مَجْدُكُمْ وَلَنَا مَجْدُنَا. آهِ مِنْ بَلَدٍ لَا نَرَى مِنْهُ إِلَّا الذِي لَا يُرَى: سِرُّنَا

لَنَا المجْدُ: عَرْشٌ عَلَى أَرْجُلٍ قَطَّعَتْها الدُّرُوبُ التِي أَوْصَلَتْنَا إِلَى كُلِّ بَيْتٍ

سِوَى بَيْتِنَا!

عَلَى الرُّوحِ أَنْ تَجِدَ الرُّوحَ فِي رُوحِهَا أَوْ تَمُوتَ هُنَا...

نسافر كالناس

نُسَافِرُ كَالنَّاسِ، لكِنَّنَا لَا نَعُودُ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ... كَأَنَّ السَّفَرْ
طَرِيقُ الغُيُومِ. دَفَنَّا أَحِبَّتَنَا فِي ظِلَالِ الغُيُومِ وَبَيْنَ جُذُوعِ الشَّجَرْ
وَقُلْنَا لِزَوْجَاتِنَا: لِدْنَ مِنَّا مِئَات السِّنِين لِنُكملَ هَذَا الرَّحِيلْ
إِلَى سَاعَةٍ مِنْ بِلادٍ، وَمِتْرٍ مِنَ المُسْتَحِيلْ.
نُسَافِرُ في عَرَبَاتِ المَزَامِيرِ، نَرْقُدُ فِي خَيْمَةِ الأَنْبِيَاءِ، وَنَخْرُجُ
مِنْ كَلِمَاتِ الغَجَرْ
نَقِيسُ الفَضَاءَ بِمِنْقَارِ هُدْهُدَةٍ، أَو نُغَنِّي لِنُلْهِي المَسَافَةَ عَنَّا،
وَنَغْسِلُ ضوءَ القَمَرْ
طَوِيلٌ طَرِيقُكَ فَاحْلُمْ بِسَبْعِ نِسَاءٍ لِتَحْمِلَ هَذَا الطَّرِيقَ الطَّوِيلْ
عَلَى كَتِفَيْكَ. وَهُزَّ لَهُنَّ النَّخِيلَ لِتَعْرِف أَسْمَاءَهُنَّ وَمِنْ أَيِّ أُمٍّ
سَيُولَدُ طِفْلُ الجليلْ
لَنَا بَلَدٌ مِنْ كَلَام. تَكَلَّمْ تَكَلَّمْ لأُسْنِدَ دَرْبِي إلى حَجَرٍ مِنْ حَجَرْ
لَنَا بَلَدٌ مِنْ كَلَام. تَكَلَّمْ لِنَعْرِفَ حَدّاً لِهَذَا السَّفَرْ!

مطار أثينا

مَطَارُ أَثِينَا يُوَزِّعُنَا لِلْمَطَارَاتِ. قَالَ المُقَاتِلُ: أَيْنَ أُقَاتِلُ؟ صَاحَتْ بِهِ حَامِلٌ: أَيْنَ أُهْدِيكَ طِفْلَكَ؟ قَالَ المُوَظَّفُ: أَيْنَ أُوَظِّفُ مَالِي؟ فَقَالَ المُثَقَّفُ: مَالِي وَمَالكَ؟ قَالَ رِجَالُ الجَمَارِكِ: مِنْ أَيْنَ جِئتُمْ؟ أَجبْنَا: مِنَ البَحْرِ. قَالُوا: إِلَى أَيْنَ تَمْضُون؟ قُلْنَا: إلى البَحْرِ. قَالُوا: وَأَيْنَ عَنَاوِينُكُم؟ قَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ جَمَاعَتِنَا: بُقْجَتِي قَرْيَتِي. فِي مَطَارِ أَثِينَا انْتَظَرْنَا سِنِينَا. تَزَوَّجَ شَابٌّ فَتَاةً وَلَمْ يَجِدَا غُرْفَةً لِلزَّواجِ السَّرِيعِ. تَسَاءَلَ: أَيْنَ أَفُضُّ بَكَارَتَهَا؟ فَضَحِكْنَا وَقُلْنَا لَهُ: يَا فتيّ، لَا مَكَانَ لِهَذَا السُّؤالِ. وَقَالَ المُحلِّلُ فِينَا: يَمُوتُونَ مِنْ أَجْلِ أَلاَّ يَمُوتُوا. يَمُوتُونَ سَهْواً. وَقَالَ الأَدِيبُ: مُخَيَّمُنَا سَاقِطٌ لَا مَحَالَة. مَاذَا يُرِيدُونَ مِنَّا؟ وَكَانَ مَطَارُ أَثِينَا يُغَيِّرُ سُكَّانَهُ كُلَّ يَوْم. وَنَحْنُ بَقِيْنَا مَقَاعِدَ فَوْقَ المَقَاعِدِ نَنْتَظِرُ البَحْرَ، كَمْ سَنَةً يَا مَطَارَ أَثِينَا!...

أقول كلاماً كثيراً

أَقُولُ كَلَاماً كَثِيراً عَنِ الفَارِقِ الهَشِّ بَيْنَ النِّسَاءِ وَبَيْنَ الشَّجَرْ،
وَعَنْ فِتْنَةِ الأَرْضِ؛ عَنْ بَلَدٍ لَمْ أَجِدْ خَتْمَهُ فِي جَوازِ السَّفَرْ
وَأَسْأَلُ: يَا سَيِّدَاتِي، وَيَا سَادَتِي الطَّيِّبِينَ: أَأَرْضُ البَشَرْ / لِجَمِيعِ البَشَرْ
كَمَا تَدَّعُون؟ إِذاً، أَيْنَ كُوخِي الصَّغِيرُ وأَيْنَ أَنَا؟ فَتُصَفِّقُ لِي قَاعَةُ المُؤتَمَرْ
ثَلَاثَ دَقَائِقَ أُخْرَى، ثَلَاثَ دَقَائِقَ حُرِّيَّةً واعْتِرَافاً... فَقَدْ وَافَقَ المُؤتَمَرْ
عَلَى حَقِّنَا فِي الرُّجُوعِ، كَكُلِّ الدَّجَاجِ، وَكُلِّ الخُيُولِ، إِلَى حُلُمٍ مِنْ حَجَرْ.
أُصَافِحُهمْ وَاحِداً وَاحِداً، ثُمَّ أُحْنِي لَهُمْ قَامَتِي.. وَأُوَاصِلُ هَذَا السَّفَرْ

إِلَى بَلَدٍ آخَرٍ، وأَقُولَ كَلَاماً عَنِ الفَرْقِ بَيْنَ السَّرَابِ وَبَيْتَ المَطَرْ
وَأَسْأَلُ: يَا سَيِّدَاتِي، وَيَا سَادَتِي الطَّيِّبِينَ: أَأَرْضُ البَشَرْ
لِكُلِّ البَشَرْ؟

يحق لنا أن نحب الخريف

وَنَحْنُ، يَحِقُّ لَنَا أَنْ نُحِبَّ نِهَايَاتِ هَذَا الخَرِيف، وَأَنْ نَسْأَلَهْ:

أَفِي الحَقْلِ مُتَّسَعٌ لِخَريفٍ جَدِيدٍ، وَنَحْنُ نُمَدِّدُ أَجْسَادَنَا فِيهِ فَحْما؟

خَرِيفٌ يُنَكِّسُ أَوْرَاقَهُ ذَهَباً. لَيْتَنَا وَرَقُ التِّين، يَا لَيْتَنَا عُشْبَةٌ مُهْمَلَهْ

لِنَشْهَدَ مَا الفَرْقُ بَيْنَ الفُصُولِ. وَيَا لَيْتَنَا لَمْ نُوَدِّعْ جَنُوبَ العُيُونَ لِنَسْأَل عَمَّا

تَسَاءَلَ آبَاؤُنَا حِينَ طَاروا عَلَى قِمَّةِ الرُّمْحِ. يَرْحَمُنَا الشِّعْرُ وَالبَسْمَلَهْ.

وَنَحْنُ يَحِقُّ لَنَا أَنْ نُجَفِّفَ لَيْلَ النِّسَاءِ الجَمِيلَات، أَنْ نَتَحَدَّثَ عَمَّا

يُقَصِّرُ لَيْلَ غَرِيبَيْنِ يَنْتَظِرَانِ وُصُولَ الشَّمَالِ إِلَى البَوْصَلَهْ

خَرِيفٌ. ونَحْنُ يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَشُمَّ رَوَائِحَ هَذَا الخَرِيف، وَأَنْ
نَسْأَلَ اللَّيْلَ حُلْما
أَيَمْرضُ حُلْمٌ كَمَا يَمْرَضُ الحَالِمُون؟ خَرِيفٌ خَرِيفٌ. أَيُولَدُ
شَعْبٌ عَلَى مِقْصلَهْ؛
يَحِقُّ لَنَا أَنْ نَمُوتَ كَمَا نَشْتَهِي أَنْ نَمُوت، لِتَخْتَبِئَ الأَرْضُ
فِي سُنْبُلَهْ

القطار الأخير توقف

القِطَارُ الأَخِيرُ تَوَقَّفَ عِنْدَ الرَّصِيفِ الأَخِيرِ. وَمَا مِنْ أَحَدْ
يُنْقِذُ الوَرْدَ. مَا مِنْ حَمَامٍ يَحُطُّ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ كَلَامْ
وَانْتَهَى الوَقْتُ. لَا تَسْتَطِيعُ القَصِيدَةُ أَكْثَرَ مِمَّا اسْتَطَاعَ الزَّبَدْ.
لَا تُصَدِّقْ قِطَارَاتِنَا ـ أَيُّهَا الحُبُّ ـ لَا تَنْتَظِرْ أَحداً فِي الزِّحَامْ.
القِطَارُ الأَخيرُ تَوَقَّفَ عِنْدَ الرَّصِيفِ الأَخِيرِ؛ وَمَا مِنْ أَحَدْ
يَسْتَطِيعُ الرُّجُوعَ إِلَى مَا تَرَاجَعَ مِنْ نَرْجِسٍ فِي مَرَايَا الظَّلَامْ.
أَيْنَ أَتْرُكُ وَصْفِي الأَخِيرَ لِمَا حَلَّ بِي مِنْ جَسَدْ؟
وَانْتَهَى مَا انْتَهَى. أَيْنَ مَا ينتهي؟ أَيْنَ أُفْرِغُ مَا حَلَّ بِي مِنْ بَلَدْ؟
لَا تُصَدِّقْ قِطَارَاتِنَا ـ أَيُّهَا الحُبُّ ـ طَارَ الحَمَامُ الأَخِيرُ وَطَارَ
الحَمَامْ
وَالقِطَارُ الأَخِيرُ تَوَقَّفَ عِنْدَ الرَّصِيفِ الأَخِيرِ.. وَمَا مِنْ أَحَدْ.

على السفح، أعلى من البحر، ناموا

عَلَى السَّفْحِ، أَعْلَى مِنَ البَحْرِ، أَعْلَى مِنَ السَّرْوِ، نَامُوا
لَقَدْ أَفْرَغَتْهُمْ سَمَاءُ الحَدِيدِ مِنَ الذِّكْرَيَاتِ. وَطَارَ الحَمَامُ
إِلَى جِهَةٍ حَدَّدَتْهَا أَصَابِعُهُمْ شَرْقَ أَشْلَائِهِم.
أَمَا كَان مِنْ حَقِّهم أَنْ يَرُشُّوا عَلَى قَمَرِ المَاءِ رِيْحَانَ أَسْمَائِهِمْ
وَأَنْ يَزْرَعُوا فِي الخَنَادِقِ نَارنْجَةً كَيْ يَقِلَّ الظَّلَامُ؟

يَنَامُونَ أَبْعَدَ مِمَّا يَضِيقُ المَدَى فَوْقَ سَفْحٍ تَحَجَّرَ فِيهِ الكَلَامُ
يَنَامُونَ فِي حَجَرٍ صُكَّ مِنْ عَظْمِ عَنْقَائِهِمْ ...
وَفِينَا مِنَ القَلْبِ مَا يَسْتَطِيعُ الوُصُولَ قَرِيباً إِلَى عِيدِ أَشْيَائِهِم
وَفِينَا مِنَ القَلْبِ مَا يَسْتَطِيعُ انْتِشَالَ الفَضَاءِ لِيَرْجِعَ هَذَا الحَمَامُ
إِلَى أَوَّلِ الأَرْضِ. يَا أَيُّهَا النَّائِمُونَ عَلَى آخِرِ الأَرْضِ فِينَا، سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ ... سَلَامُ

يعانق قاتله

يُعَانِقُ قَاتِلَهُ كَيْ يَفُوزَ بِرَحْمَتِهِ: هَلْ سَتَغْضَبُ مِنِّي كَثِيراً إِذَا مَا نَجَوْتُ؟ أَخِي... يَا أَخِي! مَا صَنَعْتُ لِتَغْتَالَنِي؟... فَوْقَنَا طَائِرَانِ فَصَوِّبْ إِلَى فَوْق! أَطْلِقْ جَحِيمَكَ أَبْعَدَ مِنِّي... تعالَ إِلَى كُوخِ أُمِّي لِتَطْبُخَ مِنْ أَجْلِكَ الفُولَ. مَاذَا تَقُولُ؟ وَمَاذَا تَقُول؟ مَلَلْتَ عِنَاقِي وَرَائِحَتِي. هَلْ تَعِبْتَ مِنَ الخَوْفِ فِيَّ؟ إِذَنْ، إِرْمِ هَذَا المُسَدَّسَ فِي النَّهْرِ! مَاذَا تَقُول؟.. عَدُوٌّ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ صَوَّبَ رَشَّاشَهُ فِي اتِّجَاهِ العناقِ؟ إِذَنْ أَطْلِقِ النَّارَ نَحْوَ العَدُوّ لِنَنْجُو معاً مِنْ رَصَاصِ العَدُوِّ، وَتَنْجُو مِنَ الإِثْمِ. مَاذَا تَقُول؟ سَتَقْتُلُنِي كَيْ يَعُودَ العَدُوُّ إِلَى بَيْتِهِ / بَيْتِنَا وَتَعُودَ إِلَى لُعْبَةِ الكَهْفِ، مَاذَا صَنَعْتَ بِقَهْوَةِ أُمِّي وَأُمِّكَ؟ ماذَا جَنَيْتُ لِتَغْتَالَنِي يَا أَخِي. لَنْ أَحُلَّ وِثَاقَ العِنَاقِ

ولَنْ أَترُكَكْ

تخالفنا الـرّيح

تُخَالِفُنَا الرِّيحُ، ريحُ الجَنوبِ تُخَالِفُ أَعْدَاءَنَا. وَالمَمرُّ
يَضِيقُ. فَنَرْفَعُ شَارَاتِ نَصْرٍ أَمَامَ الظَّلَامِ لَعلَّ الظلامَ يُضِيءُ...
وَنَسْرُو
عَلَى شَجَرِ الحُلْمِ. يَا آخِرَ الأَرْضِ ـ يَا حُلْمَنَا الصَّعْبَ! هَلْ
تَسْتَمِرُّ؟
وَنَكْتُبُ فِي المَرَّةِ الأَلْفِ فَوْقَ الهَوَاءِ الأَخِيرِ: نَمُوتُ، وَلَكِنَّهُم
لَنْ يَمُرُّوا
وَنَتْبَعُ أَصْوَاتَنَا كَيْ نَرَى قَمَراً بَيْنَهَا، وَنُغَنِّي لِيَجفُلَ صَخْرُ
وَنَحْفُرُ أَجْسَادَنَا بالحَدِيدِ... وَنَحْفرهَا بالحَدِيد... لِيبْزُغَ نَهْرُ
تُخَالِفُنَا الرِّيح، ريحُ الشَّمَالِ تُخَالِفُ رِيحَ الجَنُوبِ ونَصْرُخ: أَيْنَ
المَقَرُّ؟
وَنَطْلُبُ مِنْ سيِّدَاتِ الخُرَافَاتِ أَهْلاً يُحِبُّونَنَا مَيِّتِين، فَيَسْقُطُ نَسْرُ

عَلَيْنَا. وَنَتْبَعُ أَحْلاَمَنَا كَيْ نَرَاهَا، وَتَتْبَعُنَا كَيْ تَرَانَا هُنَا. لَا مَفَرُّ وَنَحْنُ نُوَاصِلُ مَا يُشْبِهُ المَوْتَ نَحْيَا. وَهَذَا الَّذِي يُشْبِهُ المَوْتَ نَصْرُ!

صهيل على السفح

صَهِيلُ الخُيُولِ عَلَى السَّفْحِ: إِمَّا الهُبُوطُ وَإِمَّا الصُّعُودُ
أُعِدُّ لِسَيِّدَتِي صُورَتِي، عَلِّقِيهَا إِذَا مُتُّ فَوْقَ الجِدَارْ
تَقُول: وَهَلْ مِنْ جِدَارٍ لَهَا؟ قُلْتُ: نَبْنِي لَهَا غُرْفَةً. ـ أَيْنَ... فِي أَيِّ دَارْ؟

صَهِيلُ الخُيُولِ عَلَى السَّفْحِ: إِمَّا الهُبُوطُ، وَإِمَّا الصُّعُودُ

أَتَحْتَاجُ سَيِّدَةٌ فِي الثَّلَاثِينَ أَرْضاً لِتَجْمَعَ صُورَةَ فَارِسِهَا فِي إِطَارْ؟
وَهَلْ أَسْتَطِيعُ الوُصُولَ إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ الصَّعْبِ؟ وَالسَّفْحُ هَاوِيَةٌ أَوْ حِصَارْ

وَمُنْتَصَفُ الدَّرْبِ مُفْتَرقٌ... آهِ مِنْ رِحْلَةٍ كَانَ يَقْتُلُ فِيهَا
الشَّهِيدَ الشَّهِيدُ!
أُعِدُّ لِسَيِّدَتِي صُورَتِي. مَزِّقِي صُورَتِي حِينَ يَصْهَلُ فِيكِ
حِصَانٌ جَدِيدُ

صَهِيلُ الخُيُولِ عَلَى السَّفْحِ: إمَّا الصُّعُودُ... وَإمَّا الصُّعُودُ

سيأتي برابرة آخرون

سَيَأتِي بَرَابِرَةٌ آخَرُون. سَتُخْطَفُ إمْرَأَةُ الإمْبرَاطُور. سَوْفَ تُدَقُّ الطُّبُولْ

تُدَقُّ الطُبُولُ لِتَعْلُو الخُيُولُ عَلَى جُثَثِ النَّاسِ مِنْ بَحْرِ إِيجَا إِلَى الدَّرْدَنِيلْ

فَمَا شَأْنُنَا نَحنُ؟ مَا شَأْنُ زَوْجَاتِنَا بِسِبَاقِ الخُيُولْ؟

سَتُخْطَفُ إِمْرَأَةُ الإمْبرَاطُور. سَوْفَ تدقُّ الطُّبُول. وَيَأتِي بَرَابِرَةٌ آخَرُونْ

بَرَابِرَةٌ يَمْلأُونَ فَرَاغَ المَدَائِن، أَعْلَى قَلِيلاً مِنَ البَحْرِ، أَقْوَى مِنَ السَّيْفِ وَقْتَ الجُنُونْ

فَمَا شَأْنُنَا نَحنُ؟ مَا شَأْنُ أَوْلَادِنَا بِسُلَالَةِ هَذَا المُجُونْ؟

وَسَوْفَ تدقُّ الطُّبُول. وَيَأْتِي بَرَابِرَةٌ آخَرُون. وَتُخْطَفُ إمرأةُ الإِمْبرَاطُورِ مِنْ بَيْتِهِ
وَمِنْ بَيْتِهِ تُولَدُ الحَمْلَةُ العَسْكَرِيَّةُ حَتَّى تُعِيدَ العَرُوسَ إِلَى تَخْتِهِ
فَمَا شَأْنُنَا نَحْنُ؟ مَا شَأْنُ خَمْسِينَ أَلْفَ قَتِيلٍ بِهَذَا الزَّوَاجِ السَّرِيعْ؟

أَيُولَدُ «هُومِير» مِنْ بَعْدِنَا... وَالأَسَاطِيرُ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلْجَمِيعْ؟

يحبّونني ميتاً

يُحِبُّونَنِي مَيِّتاً لِيَقُولُوا: لَقَدْ كَان مِنَّا، وَكَانَ لَنَا.

سَمِعْتُ الخُطَى ذَاتَهَا. مُنْذُ عِشْرِينَ عَاماً تدقُّ عَلَى حَائِطِ اللَّيْلِ. تَأْتِي وَلَا تَفْتَحُ البَابَ. لَكِنَّهَا تَدْخُلُ الآن. يَخْرُجُ مِنْهَا الثَّلَاثَةُ: شَاعِرٌ، قَاتِلٌ، قَارِئٌ. أَلَا تَشْرَبُونَ نَبِيذاً؟ سَأَلْتُ. سَنَشْرَبُ. قَالُوا. مَتَى تُطْلِقُونَ الرَّصَاصَ عَلَيَّ؟ سَأَلْتُ. أجابوا: تَمَهَّلْ! وَصَفُّوا الكُؤُوسَ وَرَاحُوا يُغَنُّونَ لِلشَّعْبِ. قُلْتُ: مَتَى تَبْدَأُونَ اغْتِيَالي؟ فَقَالُوا: ابْتَدَأْنَا... لِمَاذَا بَعَثْتَ إِلَى الرُّوحِ أَحْذِيَةً! كَيْ تَسِيرَ عَلَى الأَرْضِ. قُلْتُ. فَقَالُوا: لِمَاذَا كَتَبْتَ القَصِيدَةَ بَيْضَاءَ والأَرْضُ سَوْدَاءُ جِدّاً. أَجَبْتُ: لأَنَّ ثَلَاثِينَ بَحْراً تَصُبُّ بِقَلْبِي. فَقَالوا: لِمَاذَا تُحِبُّ النَّبِيذَ الفَرَنْسِيّ؟ قُلْتُ: لأَنِّي جَدِيرٌ بأَجْمَلِ إِمْرَأَةٍ. كَيْفَ تَطْلُبُ مَوْتَك؟ أَزْرَق مِثْل نُجُومٍ تَسِيلُ مِنَ السَّقْفِ ـ هَلْ تَطْلُبُونَ المَزِيدَ مِنَ الخمْر؟ قَالُوا: سَنَشْرَبُ. قُلْتُ: سَأَسَأَلُكُمْ أَنْ تَكُونُوا بَطِيئِين، أَنْ تَقْتُلُونِي رُوَيْداً رُوَيْداً

لأَكْتُب شِعْراً أَخِيراً لِزَوْجَةِ قَلْبِي. وَلَكِنَّهُم يَضْحكُونَ وَلَا يَسْرقُونَ مِنَ البَيْتِ غَيْرَ الكَلَامِ الذي سَأَقُولُ لِزَوْجَة قَلْبِي..

عندما يذهب الشهداء إلى النوم

عِنْدَمَا يَذْهَبُ الشُّهَدَاء إِلَى النَّوْمِ أَصْحُو، وَأَحْرُسُهُم مِنْ هُوَاةِ الرِّثَاءْ

أَقُولُ لَهُم: تُصْبِحُونَ عَلَى وَطَنٍ، مِنْ سَحَابٍ وَمِنْ شَجَرٍ، مِنْ سَرَابٍ وَمَاءْ

أُهَنِّئُهُمْ بِالسَّلَامَةِ مِنْ حَادِثِ المُسْتَحِيلِ، وَمِنْ قِيمَةِ المَذْبَحِ الفَائِضَهْ

وَأسْرِقُ وَقْتاً لِكَيْ يسْرِقُوني مِنَ الوَقْتِ. هَلْ كُلُّنَا شُهَدَاءْ؟

وَأهْمسُ: يَا أَصْدِقَائِي اتْرُكُوا حَائِطاً وَاحِداً، لِحِبَالِ الغَسِيلِ، اتْرُكُوا لَيْلَةً لِلْغِنَاءْ

أُعَلِّق أَسْمَاءَكُمْ أيْنَ شِئْتُمْ فَنَامُوا قَلِيلاً، وَنَامُوا عَلَى سُلَّم الكَرْمَة الحَامضهْ

لأَحْرُسَ أَحْلامَكُمْ مِنْ خَنَاجِرِ حُرَّاسِكُم وانْقِلَاب الكِتَابِ عَلَى الأَنْبِيَاءْ
وَكُونُوا نَشِيدَ الذي لَا نَشِيدَ لهُ عِنْدَمَا تَذْهَبُونَ إِلَى النَّوْمِ هَذَا المَسَاءْ
أَقُولُ لكُم: تُصْبِحُونَ عَلَى وَطَنٍ حَمَّلُوهُ عَلَى فَرَسٍ رَاكِضَهْ
وَأَهْمِسُ: يَا أَصْدِقَائِيَ لَنْ تُصْبِحُوا مِثلَنَا... حَبْلَ مِشْنَقَةٍ غَامِضَهْ!

هنالك ليل ..

هُنَالِكَ لَيْلٌ أَشَدُّ سَوَاداً... هنالك وَرْدٌ أَقَلُّ
سَيَنْقَسِمُ الدَّرْبُ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْنَا، سَيَنْشَقُّ سَهْلُ
ويَنْهَدُّ سَفْحٌ عَلَيْنَا، وَيَنْقَضُّ جُرْحٌ عَلَيْنَا، وَيَنْفَضُّ أَهْلُ
سَيَقْتُلُ فِينَا القَتِيلُ القَتِيلَ لِيَنْسَى عُيُونَ القَتِيلِ... وَيَسْلُو
سَنَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمَّا عَرَفْنَا، وَنَبْلُغُ هَاوِيَةً بَعْدَ هَاوِيَةٍ حِينَ نَعْلُو
عَلَى فِكْرَةٍ عَبَدَتْهَا القَبَائِلُ ثُمَّ شَوَتْهَا عَلَى لَحمِ أصْحَابِهَا حِينَ قَلُّوا
سَنَشْهَدُ فِينَا أَبَاطِرَةً يَحْفِرُونَ عَلَى القَمْحِ أَسْمَاءَهُم كَيْ يَدُلُّوا
عَلَيْنَا. أَلَمْ نَتَغَيَّرْ؟ رِجَالٌ عَلَى دِينِ خِنْجَرِهِم يَذْبَحُونَ، وَرَمْلٌ لِيَكْثُرَ رَمْلُ
نِسَاءٌ عَلَى دِينِ مَا بَيْنَ أَفْخَاذِهِنَّ وَظِلّ لِيَصْغرَ ظِلٌّ...

وَلَكِنَّنِي سَأُتَابِعُ مَجْرَى النَّشِيدِ، وَلَوْ أَنَّ وَرْدِي أَقَلُّ

ذهبنا إلى عدن

ذَهَبْنَا إِلَى عَدَنٍ قَبْلَ أَحْلاَمِنَا، فَوَجَدْنا القَمَرْ
يُضِيءُ جَنَاحَ الغُرَابِ. التَفَتْنَا إِلَى البَحْرِ، قُلْنَا: لِمَنْ
لِمَنْ يَرْفَعُ البَحْرُ أَجْرَاسَهُ، أَلِنَسْمَعَ إِيقَاعَنا المُنْتَظَرْ؟

ذَهَبْنَا إِلَى عَدَنٍ قَبْلَ تَارِيخِنَا، فَوَجَدْنَا اليَمَنْ
حَزِيناً عَلَى امْرِئِ القَيْسِ، يَمْضَغُ قاتاً، وَيَمْحُو الصُّوَرْ.
أَمَا كُنْتَ تُدْرِكُ، يَا صَاحِبِي، أَنَّنَا لاَحِقَانِ بِقَيْصَرِ هَذَا الزَّمَنْ؟

ذَهَبْنَا إِلَى جَنَّةِ الفُقَرَاءِ الفَقِيرَةِ، نَفْتَحُ نَافِذَةً فِي الحَجَرْ
لَقَدْ حَاصَرَتْنَا القَبَائِلُ، يَا صَاحِبِي، وَرَمَتْنَا المِحَنْ،
وَلَكِنَّنَا لَمْ نُقَايِضْ رَغِيفَ العَدُوِّ بِخُبْزِ الشَّجَرْ
أَمَا زَالَ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نُصَدِّقَ أَحْلاَمَنا، وَنُكَذِّبَ هَذَا الوَطَنْ؟

وفي الشام شام

وَفِي الشَّامِ شَامٌ لِكُلِّ زَمَانٍ. ظَلَمْتُكَ حِينَ ظَلَمْتَ نُزُوحِي
إِلَى طَلْقَةِ القَلْبِ، يَوْمَيْنِ يَوْمَيْنِ، يَا صَاحِبِي
أَمِنْ حَقِّيَ، الآنَ، بَعْدَ الرُّجُوعِ مِنَ الحُبِّ أَنْ أَسْأَلَكْ
لِمَاذَا اتَّكَأْتَ عَلَى خِنْجَرٍ كَيْ تَرَانِي؟ لِمَاذا رَفَعْتَ سُفُوحِي
لِتُسْقِطَ خَيْلِي عَلَيَّ؟ تَمَنَّيْتُ.. إِنِّي تَمَنَّيْتُ أَنْ أَحْمِلَكْ
إِلَى أَوَّلِ الشِّعرِ، أَوْ آخِرِ الأَرْض، مَا أَجْمَلَكْ!
وَمَا أَجْمَلَ، الشَّامَ، مَا أَجْمَلَ الشَّامَ، لَوْلَا جُرُوحِي،
فَضَعْ نِصْفَ قَلْبِكَ فِي نِصْفِ قَلْبِيَ، يَا صَاحِبِي
لِنَصْنَعَ قَلْباً صَحِيحاً فَسِيحاً لَهَا، لِي، وَلَكْ
فَفِي الشَّام شَامٌ، إِذَا شِئْتَ، فِي الشَّامِ مِرْآةُ رُوحِي.

بكى الناي

بَكَى النَّايُ، لَوْ أَسْتَطِيعُ ذَهَبْتُ إِلَى الشَّامِ مَشْياً كَأَنِّي الصَّدَى
يَنُوحُ الحَرِيرُ عَلَى سَاحِلٍ، يَتَعَرَّجُ فِي صَرْخَةٍ لَمْ تَصِلْ أَبَدَا
وَتَنْزِلُ فِينَا المَسَافَاتُ دَمْعاً. بَكَى النَّايُ. شَقَّ السَّمَاءَ إِلَى امْرَأَتَيْنِ. وَشقَّ
الطَّرِيق، وَشقَّ القَطَا فَافْتَرَقْنَا لِنَعْشَق. يَا نَايُ! رِفْقا
بنَا. نَحْنُ لَسْنَا بَعِيدِينَ حَتَّى الغُرُوبِ. أَتَبْكِي لِتَبْكِي سُدى
أَمْ لِتَثْقُبَ صَخْرَ الجِبَالِ وَتُفَّاحَةَ الحُبِّ. يَا رُمْحَ صَمْتِ المَدَى
حِينَ يَصْرُخ: يَا شَامُ، يَا امْرأَةً. هَلْ أُحِبُّ وَأَبْقَى؟
بَكَى النَّايُ. لَوْ أَسْتَطِيعُ ذَهَبْتُ إِلَى الشَّامِ مَشْياً كَأَنِّي الصَّدَى
أُصَدِّقُ مَا لَا أُصَدِّقُ. يَلْهَثُ فِينَا حَرِيرُ الدُّمُوعِ يَدَا
بَكَى النَّايُ. لَوْ أَسْتَطِيعُ البُكَاءَ كَنَايٍ ... عَرفْتُ دِمَشْقَا!

أفي مثل هذا النشيد

أَفِي مِثْلِ هَذَا النَّشِيدِ نُوَسِّدُ حُلْماً عَلَى صَدْرِ فَارِسْ
وَنَحْمِلُ عَنْهُ القَمِيصَ الأَخِير، وَشَارَةَ نَصْرٍ، وَمِفْتَاحَ آخِرِ بَابْ
لِنَدْخُل أَوَّلَ بَحْرٍ؟ سَلَامٌ عَلَيْكَ رَفِيقَ المَكَانِ الَّذي لَا مَكَان لَهُ
سَلامٌ عَلَى قَدَمَيْكَ / الرُّعَاةُ سَيَنْسَوْنَ آثَارَ عَيْنَيْك فَوقَ التُّرَابْ
سَلَامٌ عَلَى سَاعِدَيْكَ / القطَاةُ ستَعْبُر ثَانِيَةً مِنْ هُنَا
وَسَلَامٌ عَلَى شَفَتَيْكَ / الصَّلَاةُ سَتَرْكَعُ فِي الحَقْلِ. مَاذَا نَقُولُ
لِجَمْرَةِ عَيْنَيْك.
مَاذَا يَقُولُ الغِيَابْ
لأُمِّكَ؟ فِي البِئْرِ نَامَ؟ وَمَاذَا يَقُولُ الغُزَاةُ؟
انْتَصَرْنَا عَلَى غَيْمَةِ الصَّوْتِ فِي شَهْر آبْ؟
وَمَاذَا تَقُولُ الحَيَاةُ لِمَحْمُود درْويش؟ عِشْتَ، عَشِقْتَ، عَرَفْتَ،
وَكُلُّ الذِينَ

سَتَعْشَقُ مَاتُوا؟
أَفِي مِثْلِ هَذَا النَّشِيدِ نُوَسِّدُ حُلْماً وَنَحْمِلُ شَارَة نَصْرٍ وَمِفْتَاحَ آخِرِ بَابْ
لِنُغْلِقَ هَذَا النَّشِيدَ عَلَيْنَا؟ وَلَكِنَّنَا سَوْفَ نَحْيَا... لأَنَّ الحَيَاةَ حَيَاةُ

نخاف على حلم

نَخَافُ عَلَى حُلُمٍ: لَا تُصَدِّقْ كَثِيراً فَراشَاتِنَا
وَصَدِّقْ قَرَابِينَنَا إِنْ أَرَدْتَ، وَبَوْصَلَةَ الخَيْلِ صَدِّقْ، وَحَاجَتَنَا لِلشّمَالْ
رَفَعْنَا إِلَيْكَ مَنَاقِيرَ أَرْوَاحِنَا. أَعْطِنَا حَبَّةَ القَمْحِ يَا حُلْمَنَا. هَاتِهَا هَاتِنَا
رَفَعْنا إِلَيْكَ الشَّواطِئَ مُنْذُ أَتَيْنَا إِلَى الأَرْضِ مِنْ فِكْرَةٍ أَوْ زِنَا مَوْجَتَيْنِ
عَلَى صَخْرَةٍ فِي الرِّمَالْ
وَلَا شَيْءَ، لَا شَيْءِ. نَطْفُو عَلَى قَدَمٍ مِنْ هَوَاءٍ... هَوَاءٍ تَكَسَّرَ فِي ذَاتِنَا
وَنَعْرِفُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ عَنَّا، وَتبْنِي سُجوناً تُسَمَّى لَنَا جَنَّةَ البُرْتُقَالْ
وَنَحْلُمُ... يَا حُلُماً نَشْتَهِيه، وَنَسْرقُ أَيَّامَنَا مِنْ تَجَلِّيهِ فِي مَا مَضَى مِنْ خُرَافَاتِنَا

نَخَافُ عَلَيْكَ ومِنكَ نَخَافُ. آتَّضَحْنَا مَعاً، لَا تُصَدِّقْ إِذَنْ
صَبْرَ زَوْجَاتِنَا
سَيَنْسُجْنَ ثَوْبَيْنِ، ثُمَّ يَبِعْنَ ثياب الحَبِيبِ لِيَبْتَعْنَ كَأسَ الحَلِيبِ
لأَطْفَالِنَا.
نَخَافُ عَلَى الحُلْمِ مِنْهُ وَمِنَّا. وَنَحْلُمُ يَا حُلْمَنَا. لَا تُصَدِّقْ كَثِيراً
فَرَاشَاتِنَا!

هنا تنتهي رحلة الطير

هُنَا تَنْتَهي رِحْلَةُ الطَّيْرِ، رِحْلَتُنَا، رِحْلَةُ الكَلِمَاتْ
وَمِنْ بَعْدِنَا أُفُقٌ لِلطُّيُورِ الجَدِيدَةِ؛ مِنْ بَعْدِنَا أُفُقٌ لِلطُّيُورِ الجَدِيدةْ
وَنَحْنُ الَّذِينَ نَدُقُّ نُحَاسَ السَّمَاءِ، نَدُقُّ السَّمَاءَ لِتحفرَ مِنْ بَعْدِنَا طُرُقاتْ
نُصَالِحُ أَسْمَاءَنَا فَوْقَ سفْحِ الغُيُومِ البَعِيدَةِ؛ سَفْحِ الغُيُومِ البَعِيدَهْ.
سَنَهْبِطُ عَمَّا قَلِيلٍ هُبُوطَ الأَرَامِلِ في سَاحَةِ الذِّكْرَيَاتْ
وَنَرْفَعُ خَيْمَتَنَا لِلرِّياحِ الأَخِيرَة: هُبِّي وَهُبِّي، لِتَحْيَا القَصِيدَهْ
وَتَحْيَا الطَّرِيقُ إِلَيْهَا. وَمِنْ بَعْدِنَا سَوْفَ يَنْمُو النَّبَاتُ وَيَعْلُو النَّبَاتْ
عَلَى طُرُقٍ لَمْ يَطَأْهَا سِوَانَا؛ عَلَى طُرُقٍ دَشَّنَتْهَا خُطَانَا العَنِيدَهْ.
هُنَا سَوْفَ نَحْفرُ فَوْقَ الصُّخُورِ الأَخِيرَةِ: تَحْيَا الحَيَاةُ، وَتَحْيَا الحَيَاةْ.
وَنسْقطُ فِينَا. وَمِنْ بَعْدِنَا أُفُقٌ للطُّيُورِ الجَدِيدَه.

رأيت الوداع الأخير

رَأَيْتُ الوَدَاعَ الأَخِيرَ: سَأُودعُ قَافِيَةً مِنْ خَشَبْ
سَأُرْفَعُ فَوْقَ أَكُفّ الرِّجَال، سَأُرْفَعُ فَوْق عُيُونِ النِّسَاءْ
سَأُرْزَمُ في عَلَمٍ، ثُمَّ يُحْفَظُ صَوْتِيَ فِي علَبِ الأَشْرِطَهْ
سَتُغْفَرُ كُلُّ خَطَايايَ فِي سَاعَةٍ ثُمَّ يَشْتُمُني الشُّعَرَاءْ.
سَيَذْكُرُ أَكْثَرُ مِنْ قَارِئٍ أنني كُنْتُ أَسْهَرُ فِي بَيْتِهِ كُلَّ لَيْلَهْ.
سَتَأتي فَتَاةٌ وتَزْعُمُ أَنِّي تَزَوَّجْتُهَا مُنْذُ عِشْرِينَ عَاماً.. وأكثر.
سَتُرْوَى أَسَاطِيرُ عَنِّي، وَعَنْ صَدَفٍ كُنْتُ أَجْمَعُهُ مِنْ بِحَارٍ بَعِيدَه.
سَتَبْحَثُ صَاحِبَتي عَنْ عَشِيقٍ جَديدٍ تُخبِّئُهُ في ثِيَابِ الحِدَادْ.
سَأُبْصِرُ خَطَّ الجَنَازَةِ، وَالمَارَّة المُتْعبِين مِنَ الانْتِظَارْ.

وَلكِنَّني لَا أَرَى القَبْرَ بَعْدُ. أَلَا قَبْرَ لِي بَعْدَ هَذَا التَّعَبْ؟

وداعاً لما سوف يأتي

وَدَاعاً لِمَا سَوْفَ يَأْتِي بِهِ الوَقْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ .. وَدَاعَاً.
وَدَاعاً لِمَا سَوْفَ تَأْتِي بِهِ الأمْكِنَهْ..
تَشَابَهَ في اللَّيْلِ لَيْلِي، وَفِي الرَّمْلِ رَمْلي، وَمَا عَادَ قَلْبِي مَشَاعَا.
وَدَاعاً لِمَنْ سَأَرَاهَا بِلاداً لِنَفْسِي؛ لِمَنْ سَأَرَاهَا ضِياعَا.
سَأَعْرِفُ كَيْفَ سَأَحْلُمُ بَعْدَ قَلِيلٍ، وَكَيْفَ سَأَحْلُمُ بَعْدَ سَنَهْ،
وَأَعْرِفُ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ في رَقْصَةِ السَّيْفِ وَالسَّوْسَنَهْ،
وَكَيْفَ سَيخْلَعُ عَنِّي القِنَاعُ القِنَاعَا.
أَأَسْرِقُ عُمْري لأَحْيَا دَقَائِقَ أُخْرَى؛ دَقَائِقَ بَيْنَ السَّرادِيبِ وَالمِئْذَنَهْ
لأَشْهَدَ طَقْسَ القِيامَة فِي حَفْلَةِ الكَهَنَهْ،
لأَعْرِفَ مَا كُنتُ أَعْرِفُ؟ إِنِّي رَأَيْتُ.. رَأَيْتُ الوَدَاعَا.

لديني... لديني لأعرف

لِدِينِي... لِدِينِي لأَعْرِفَ فِي أَيِّ أَرْضٍ أَمُوتُ وَفِي أَيِّ أَرْضٍ سَأُبْعَثُ حَيَّا

سَلَامٌ عَلَيْكِ وَأَنْتِ تُعِدِّينَ نَارَ الصَّبَاحِ، سَلَامٌ عَلَيْكِ... سَلَامٌ عَلَيْكِ. أَمَا

آنَ لِي أَنْ أُقَدِّمَ بَعْضَ الهَدَايَا إِلَيْكِ: أَمَا آنَ لِي أَنْ أَعُودَ إِلَيْكِ؟ أَمَا زَالَ شَعْرُكِ أَطْوَلَ مِنْ عُمرِنَا وَمِنْ شَجَرِ الغَيْمِ وَهوَ يَمُدُّ السَّمَاءَ إِلَيْكِ لِيَحْيَا؟ لِدِينِي لأَشربَ مِنْكِ حَلِيبَ البِلادِ، وَأَبْقَى صَبِيّاً عَلَى سَاعِدَيْكِ وَأَبْقَى صَبِيَّا

إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. رَأَيْتُ كَثِيراً يَ أُمِّي رَأَيْتُ. لِدِينِي لأَبْقَى عَلَى رَاحَتَيْكِ. أَمَا زِلْتِ حِينَ تُحِبِّينَنِي تُنْشِدِينَ وَتَبْكِينَ مِنْ أَجْلِ لَا شَيْءَ. أُمِّي! أَضَعْتُ يَدَيَّا عَلَى خَصْرِ إِمْرَأَةٍ مِنْ سَرَابٍ. أُعانِقُ رَمْلاً أُعَانِقُ ظِلاًّ. فَهَلْ أَسْتَطِيعُ الرُّجُوعَ إِلَيْكِ / إِلَيَّا؟ لأُمِّكِ أُمٌّ، لِتِينِ الحَدِيقَةِ غَيْمٌ. فَلَا تَتْرُكِينِي وَحِيداً شَرِيداً،

أُرِيدُ يَدَيْكِ لأَحْمِلَ قَلْبِي. أَحِنُّ إِلَى خُبْزِ صَوْتِكِ أُمِّي! أَحِنُّ
إِلَى كُلِّ شَيْءٍ. أَحِنُّ إِلَيَّ.. أَحِنُّ إِلَيْكْ

لصوص المدافن

لُصُوصُ المَدَافِنِ لَمْ يَتْرُكُوا لِلْمُؤَرِخِ شَيْئاً يَدُلُّ عَلَيَّ.

يَنَامُونَ فِي جُثَتِي أَيْنَمَا طَلَعَ العُشْبُ مِنْهَا، وَقَامَ الشَّبَحْ.
يَقُولُونَ مَا لا أُفَكِّرُ. يَنْسَوْنَ مَا أَتَذَكَّرُ. يُعْطُونَ صَمْتِي
ذَرَائِعَهم. فاسْتَرِيحُوا قَلِيلاً، لُصُوصَ المَدَافِنِ، فِي الوَقْتِ مُتَّسَعٌ
لِلضَّحِيَّهْ
لِتُجْرِي حِوَاراً عَنِ الوَقْتِ مَع قَاتلٍ قَدْ يَكُونُ الضَّحِيَّهْ.
وَعُودُوا إِلَى أَهْلِكُمْ. رُبَّمَا احْتَاجَ أَطْفَالُكُمْ لُعْبَةً غَيْرَ قَلْبِيَ فِي
بُنْدُقِيَّهْ،
وَأَسْمَاءَهُم، أَوْ مَلاَبِسَ أَسْمَائِهِم كَيْ يَسِيرُوا إِلَى المَدْرَسَهْ.
أَلا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَرْتَدُوا غَيْرَ قَبْرِي القَدِيمِ / الجَدِيد.. هُوِيَّهْ؟
أَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَجِدُوا فَارِقاً وَاحِداً بَيْنَ ظِلِّي المُذَهَّبِ وَالنَّرْجِسَهْ؟

إِذَنْ، مَنْ هُوَ الحَيُّ فِينَا؟ مَنِ الحَيُّ فِي هَذِه المَسْرَحِيَّهْ؟

قريباً من السور

قَرِيباً مِنَ السُّورِ، سُورِ المَدِينَةِ، أَمْنَعُ نَفْسِي مِنَ الاعْتِرَافْ
بِأَنِّي رَأَيْتُ الذِينَ سَيَأْتُونَ بَعْدَ قَلِيلٍ، سَيَأْتُونَ بَعْدَ قَلِيلْ،
وَيَبْنُونَ أَسْوَارَهُمْ حَوْلَ سُورٍ قَدِيمٍ يُحِيطُ بِسُورٍ قَدِيمْ.
وَأَنِّي رَأَيْتُ الذِينَ مَضَوْا مِنْ هُنَا، وَمَضَوْا مِنْ هُنَا، بَعْدَمَا
بَنَوْا سُورَهُمْ حَوْلَ سُورٍ قَدِيمٍ يُحِيطُ بِسُورٍ قَدِيمْ.
قَرِيباً من السُّورِ، أَرْسُمُ سِلْسِلَةً مِنْ نُجُومٍ وَدَائِرةً مِنْ نُجُومْ،
وَأَبْحَثُ عَنْ حَاضِرٍ كَانَ، أَوْ حَاضِرٍ كَانَ، أَوْ حاضِرٍ سَيَكُونْ:
أَفِي وُسْعِنَا أَنْ نَكُونَ هُنَا... الآنَ؟ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَكُونْ؟
وَنَبْنِيَ أَسْوَارَنَا، هَهُنَا... هَهُنَا، حَوْلَ سُورٍ قَدِيمْ؟

سَأَلْتُ القَصِيدَةَ، فَاغْرَوْرَقَتْ بِالغُيُومْ.

هنا نحن قرب هناك

هُنَا نَحْنُ قُرْبَ هُنَاكَ، ثَلَاثُونَ بَاباً لِخَيْمَهْ
هُنَا نَحْنُ بَيْنَ الحَصَى والظِّلَالِ مَكَانٌ. مَكَانٌ لِصَوْتٍ، مَكَانٌ لِحُرِّيَةٍ، أَوْ مَكَانْ
لأَيِّ مَكَانٍ تَدَحْرَجَ عَنْ فَرَسٍ، أَوْ تَنَاثَرَ مِنْ جَرَسٍ أَو أَذَانْ
هُنَا نَحْنُ، عَمَّا قَلِيلٍ سَنَثْقُبُ هَذَا الحِصَارَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ نُحَرِّرُ غَيْمَهْ
وَنَرْحَلُ فِينَا. هُنَا نَحْنُ قُرْبَ هُنَاكَ ثَلَاثُونَ بَاباً لِرِيحٍ، ثَلَاثُونَ «كَانْ»
نُعَلِّمُكُم أَنْ تَرَوْنَا، وَأَنْ تَعْرِفُونَا، وَأَنْ تَسْمَعُونَا، وَأَنْ تَلْمَسُوا ظِلَّنا فِي المكان
نُعَلِّمُكُم سِلْمَنَا. قَدْ نُحِبُّ وَقَدْ لَا نُحِبُّ طَرِيقَ دِمَشْقَ وَمَكَّةَ وَالقَيْرَوَانْ
هُنَا نَحْنُ فِينَا. سَمَاءٌ لآبَ، وَبَحْرٌ لِمَايُو، وَحُرِّيَةٌ لِحِصَانْ

وَلَا نَطْلُبُ البَحْرَ إِلَّا لِنَسْحَبَ مِنْهُ دَوَائِرَ زَرْقَاءَ حَوْلَ الدُّخانْ
هُنَا نَحْنُ قُرْبَ هُنَاك، ثَلَاثُونَ شَكْلاً ثَلَاثُونَ ظِلاًّ.. لِنَجْمَهْ

لأول مرّة يرى البحر

لأَوَّل مَرَّةٍ

يَرَى البَحْرَ مِنْ دَاخِلِهْ

سَفِينَتُنَا تَحْمِلُ البَرَّ بَاحِثَةً عَنْ مَرَافِئَ لِلْبَرِّ. كُنَّا نُدَافِعُ عَنْ وَاجِبِ الكَلِمَاتِ،

وَعَنْ كَعْبِ «آشِيلَ». كُنَّا نُوَاصِلُ هَذَا الرَّحِيلَ إِلَى البَدْءِ. مَنْ يُوقِف البَحْرَ

كَيْ نَجِدَ البَدءَ في سَاحِلِهْ.

وَكَانَ الرِّوَائِيُّ فِينَا يَشُدُّ السَّفِينَةَ نَحْوَ الوَرَاءِ، يُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى صَوْتِ

بَيْرُوتَ: لَا تَخْرُجُوا. كَانَ يَكْتُبُ فَصْلاً جَدِيداً عَنِ المُعْجِزَاتِ، وَعَنْ قَاتِلِهْ

وَحِينَ انْتَهَى مِنْ كِتَابَتِهِ، قَامَ أَبْطَالُ قِصَّتِهِ يَلْعَبُونَ،

فَبَالُوا عَلَيْهِ وَبَالُوا عَلَى بَابِلِهْ
لِكَيْ يُبْصِرَ البَحْرَ مِنْ دَاخِلِهْ،
وَيَحْمِلَ عِبءَ الكَلَامِ عَلَى كَاهِلِهْ.

يمثل دوري الأخير

يُمَثِّلُ دَوْرِي الأَخِيرَ. وَكَانَ وَحِيداً وَحِيداً عَلَى مَسْرَحِهْ
يُرَتِّبُ مَا لَا يُرَتَّبُ مِنْ جَوْقَةٍ مُتْعَبَهْ
لَقَدْ أَطْفَأُوا النُّورَ، وانْصَرَفُوا وَاحِداً وَاحِداً خَلْفَ أَرْزَاقِهِم..
وَمَا زَالَ يَلْعَبُ فِي دَمِهِ وَهوَ يَحْسبُهُ رَغْوَةَ العَتَبَهْ.

تَقَمَّصَ دَوْرَ الشُّهُودِ وَدَوْرَ الشَّهِيدِ، وَلَمْ يَبْلُغِ الانْكِسَارَ وَلَا الغَلَبَهْ.
وَحِيداً، يُرَمِّمُ مَا انْهَارَ مِنَّا وَمِنْهُ، وَمِنْ آخِرِ الخَشَبَهْ
ـ أَلَا بُدَّ مِنْ مَسْرَحٍ يَا أَبِي؟
فَقَالَ: وَلَا بُدَّ مِنْ شَاعِرٍ فِي الطَّرِيقِ إِلَى قُرْطُبَهْ
وَحِيداً .. وَحِيداً يَسِيرُ إِلَى قُرْطُبَهْ
وَوَحْدِي أُصَدِّقُهُ حِينَ يَكْذِبُ، مِثْلِيَ... مَا أَكْذَبَهْ.

بقاياك للصقر

بَقَايَاكَ لِلصَّقرِ. مَنْ أَنْتِ كَيْ تَحْفِرَ الصَّخرَ وَحْدَكْ،
وَتَعْبرَ هَذَا الفَرَاغَ النِّهائِيَّ، هَذَا البَيَاضَ النِّهَائِيَّ؟ مَرْحَى!
سَتَصْطَفُّ حَوْلَكَ خَرُّوبَتَان، وَأَرْمَلَتَانِ، وَصَمْتُ الفَضَاءِ
المُجَوَّفِ بَعْدَكْ
شُهُوداً عَلَى العَبَثِ البَشَرِيِّ؛ شُهُوداً عَلَى المُعْجِزَهْ.
أَفِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ ظِلَّكَ، فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ
تُصَدِّقُ وَرْدَكْ؟
وَتَلْفظُ إِسْمَكَ واسْمِ بِلَادِكَ واسِمِي مَعاً
بِلَا خَطَإٍ، يَا رَفِيقِي، كَأَنَّكَ تَمْلِكُ وَغدكْ!
سَنُخلِي لَكَ المَسْرَحَ الدَّائِرِيَّ. تَقَدَّم إِلَى الصَّقْرِ وَحْدَكْ،
فَلَا أَرْضَ فِيكَ لِكَيْ تَتَلَاشَى،
وَلِلصَّقرِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْكَ، وَلِلصَّقْرِ أَنْ يَتَقَمَّصَ جلْدَكْ.

أنا يوسف يا أبي

أَنَا يُوسُفٌ يَا أَبِي. يَا أَبِي، إِخْوَتِي لَا يُحِبُّونَنِي، لَا يُرِيدُونَنِي بَيْنَهُم يَا أَبِي. يَعْتَدُونَ عَلَيَّ وَيَرْمُونَنِي بِالحَصَى وَالكَلَامِ. يُرِيدُونَنِي أَنْ أَمُوتَ لِكَيْ يَمْدَحُوني. وَهُمْ أَوْصَدُوا بَابَ بَيْتِكَ دُونِي. وَهُمْ طَرَدُونِي مِنَ الحَقْلِ. هُمْ سَمَّمُوا عِنَبِي يَا أَبِي. وَهُمْ حَطَّمُوا لُعَبِي يَا أَبِي. حِينَ مَرَّ النَّسِيمُ وَلَاعَبَ شَعْرِيَ غَارُوا وَثَاروا عَلَيْكَ، فَمَاذَا صَنَعْتُ لَهُمْ يا أَبِي؟ الفَرَاشَاتُ حَطَّتْ عَلَى كَتِفَيَّ، وَمَالَتْ عَلَيَّ السَّنَابِلُ، وَالطَّيْرُ حَطَّتْ على راحتيَّ. فَمَاذَا فَعَلْتُ أَنَا يَا أَبِي، وِلِمَاذَا أَنَا؟ أَنْتَ سَمَّيْتَنِي يُوسُفاً، وَهُمُو أَوْقَعُونِيَ فِي الجُبِّ، وَاتَّهَمُوا الذِّئْبَ؛ وَالذِّئْبُ أَرْحَمُ مِنْ إِخْوَتِي.. أَبَتِ! هَلْ جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ عِنْدَمَا قُلْتُ إِنِّي: رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً، والشَّمْسَ والقَمَرَ، رَأَيْتُهُم لِي سَاجِدِينْ.

يطول العشاء الأخير

يَطُولُ العَشَاءُ الأَخِيرُ؛ تَطُولُ وَصَايَا العَشَاءِ الأَخِيرْ
أَبَانَا الذِي مَعَنَا! كُنْ رَحِيماً بِنَا، وانْتَظِرْنَا، قَلِيلاً، أَبَانَا!
وَلَا تُبْعِدِ الكَأسَ عَنَّا. تَمَهَّلْ لِنَسْأَلَ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْنَا
وَلَا تَتَّهِمْ أَحَداً. كُنْ رَحيماً بِمَنْ سَوْفَ يَضْعُفُ مِنَّا،
أَبَانَا الذِي فِي النِّهَايَاتِ، وَاصْعَدْ رُوَيْداً رُوَيْداً إِلَى حَتْفِنَا
لَقَدْ ضَاقَ هَذَا المَكَانُ الصَّغِيرُ بِصَرْخَتِنَا. ضَاقَ هَذَا الجَسَدْ
بِفِكْرَتِنَا، يَا أَبَانَا، وَقُلْتَ الكَلَامَ الَّذِي كَانَ فِينَا. فَخُذْنَا مَعَكْ
إِلَى أَوَّلِ المَاءِ خُذْنَا، إِلَى أَوَّلِ الشَّيْءِ خُذْنَا، إِلَى أَوَّلِ الكَلِمَهْ.
لَقَدْ طَالَ هَذَا العَشَاءُ، وَقَلَّ الرَّغِيفُ، وَطَالَتْ وَصَايَاكَ، فَاصْعَدْ بِنَا
لأَنَّ «الرَّسَائِلَ» بَعْدَكَ تَغْتَالُنَا وَاحِداً وَاحِداً.. يَا أَبَانَا.

إلهي لماذا تخليت عني؟

إِلَهِي.. إِلَهِي، لِمَاذَا تَخَلَّيْتَ عَنِّي؟ لِمَاذا تَزَوَّجْتَ مَرْيَمْ؟
لِمَاذا وَعَدْتَ الجُنُودَ بِكَرْمِي الوَحِيدِ.. لِماذا؟ أَنَا الأَرْمَلَهْ.
أَنَا بِنتُ هَذَا السُّكُونِ، أَنَا بِنْتُ لَفْظَتِكَ المُهْمَلَهْ
لِمَاذَا تَخَلَّيْتَ عَنِّي إِلَهي، إِلَهِي.. لِمَاذَا تَزَوَّجْتَ مَرْيَمْ؟
تَنَزَّلْتَ فِيَّ كَلَاماً، وَأَنْزلْتَ شَعْبَيْنِ مِنْ سُنْبُلَهْ،
وَزَوَّجْتَنِي فِكْرَةً فامْتَثَلْتُ؛ امْتَثَلْتُ تَمَاماً لِحِكْمَتِكَ المُقْبِلَهْ؟
أَطَلَّقْتَني؟ أَمْ ذَهَبْتَ لِتُشْفِي سِوَايَ/عَدُوِّي مِنَ المِقْصَله.
أَمِنْ حَقِّ مَنْ هِيَ مِثْلِيَ أَنْ تَطْلُبَ اللَّهَ زَوجاً.. وَأَنْ تَسْأَلَهْ
إِلَهِي.. إِلَهِي.. لِمَاذَا تَخَلَّيْتَ عَنِّي،
لِمَاذَا تَزَوَّجْتَني يَا إِلَهِي، لِمَاذَا .. لِمَاذَا تَزَوَّجْتَ مَرْيَمْ؟

أريد مزيداً من العمر

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ العُمْرِ كَيْ نَلْتَقِي، وَمَزِيداً مِنَ الاغْتِرَابْ
وَلَوْ كَان قَلْبي خفِيفاً لأَطْلَقْتُ قَلْبِي عَلَى كُلِّ نَحلَه.

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ القَلْبِ كَيْ أَسْتَطيعَ الوُصُولَ إِلَى سَاقِ نَخْلَهْ.
وَلَوْ كَانَ عُمْرِي مَعِي لاَنْتَظَرْتُكِ خَلْفَ زُجَاجِ الغِيَابْ.

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ الأُغْنِيَاتِ لأَحْمِلَ مَلْيُونَ بَابٍ... وَبَابْ
وأَنْصبَهَا خَيْمَةً فِي مَهَبِّ البلاَدِ، وَأَسْكُنَ جُمْلَهْ.

أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ السَّيِّدَاتِ لأَعْرِفَ آخِر قُبْلَهْ،
وَأَوَّلَ مَوْتٍ جَمِيلٍ عَلَى قدح مِنْ نَبِيذِ السَّحَابْ.
أُرِيدُ مَزِيداً مِنَ العُمْرِ كَيْ يَعْرِفَ القَلْبُ أَهْلَهْ،
وَكَيْ أَسْتَطِيعَ الرُّجُوعَ إِلَى... سَاعَةٍ مِنْ تُرَابْ.

ألا تستطيعين أن تطفئي قمراً

أَلَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُطْفِئِي قَمَراً وَاحِداً كَيْ أَنَامْ؟
أَنَامُ قَلِيلاً عَلَى رُكْبَتَيْكِ، فَيَصْحُو الكَلَامْ
لِيَمْدَحَ مَوْجاً مِنَ القَمْحِ يَنْبُتُ بَيْنَ عُرُوقِ الرُّخَامْ؟

تَطِيرينَ مِنِّي غزَالاً يَخَافُ، وَيَرْقُصُ حَوْلي. يَخَافُ وَيَرْقُصُ حَوْلي
وَلَا أَسْتَطِيعُ اللِّحَاقَ بِقَلْبٍ يَعَضُّ يَدَيْكِ وَيَصْرُخُ: ظَلِّي
لأَعْرِفَ مِنْ أَيِّ رِيحٍ يَهُبُّ عَلَيَّ سَحَابُ الحَمامْ.

أَلَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُطْفِئِي قَمَراً وَاحِداً كَيْ أَرَى
غُرُورَ الغَزَالِ الأَشُورِيِّ يَطْعنُ صَيَّادَهُ قَمَرَا
أُفَتِّشُ عَنْكِ فَلَا أَهْتَدِي. أَيْنَ سُومَرُ فِيَّ... وَأَيْنَ الشآمْ؟

تَذَكَّرْتُ أَنِّي نَسِيتُكِ. فَلْتَرْقُصِي فِي أَعَالي الكَلَامْ.

خريف جديد لسيّدة النار

خَرِيفٌ جَدِيدٌ لسيدة النَّارِ: كُونِي كَمَا خَلَقَتْكِ الأَسَاطِيرُ وَالشَّهَوَاتُ. وَكُونِي رَصِيفاً لِمَا يَتَسَاقَطُ مِنْ وَرْدَتِي. وَرِيَاحاً لِبَحَّارَةٍ لا يُرِيدُونَ أَنْ يُبْحِرُوا. كَمْ أُرِيدُكِ عِنْدَ هُبُوطِ الخَرِيفِ عَلَى الرُّوحِ؛ كَمْ أَتَمَنَّى بَقَائِي شَرِيداً عَلَى قَدَمٍ مِنْ حَرِيرِ المَدَائِحِ. كُونِي نِسَاءً لِقَلْبِي، وأَسْمَاءَ عَيْنَيَّ كُونِي، وَنَافِذَةً لِلْحَدِيقَةِ كُونِي، وَأُمّاً لِيَأْسِي مِنَ الأَرْضِ. كُونِي مَلَائِكَتي، أَوْ خطِيئَةَ سَاقَيْنِ حَوْلي، أُحِبُّكِ قَبْلَ احْتِكَاكِ دَمِي بِالعَوَاصِفِ وَالنَّحْلِ، كُونِي كَمَا كُنْتِ. كُونِي كَمَا لَا تَكُونِينَ، مُسِّي بِأَطْرَافِ ظِلِّكِ جِنَّ الأَنَاشِيدِ يَصْحُ الكَلَامُ عَلَى عَسَلِ الشَّهَوَاتِ. أُحِبُّكِ، أَوْ لَا أُحِبُّكِ، لَا أَسْتَطِيعُ الرُّجُوعَ إِلَى بَلَدِي. لَا أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى جَسَدِي. لَا أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى أَحَدٍ بَعْدَ هَذَا الخَرِيفْ.

سيأتي الشتاء الذي كان

سَيَأْتِي الشِّتَاءُ الَّذِي كَانَ... لِلْمَرَّةِ العَاشِرَهْ
فَمَاذَا سَأفْعَلُ حِينَ يَجِيءُ الشِّتَاءُ الذِي كَانَ، مَاذَا سَأَفْعَلُ كَيْ
لَا أَمُوتَ كَمَا
مُتُّ. مَا بَيْنَ قَلْبَيْنِ، أَعْلَى مِنَ الغَيْمِ أعْلَى .. وَأَعْلَى؟
أُعِدُّ لَكِ الذِّكْرَيَاتِ، وَأَفْتَحُ نَافِذَةً لِلْحمامِ المُصَابِ بِنِسْيَانِ دفْلَى
وَأَلْمَسُ فَرْوَ غِيَابَك.. هَلْ كان فِي وَسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ
لِنَفْرَحَ أَكْثَرَ؟ هَلْ كَانَ فِي وسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ... أَقَلَّ؟

نُعِيدُ إِلَى الحُبِّ أَشْيَاءَهُ: نُرْجِعُ الرُّوحَ لِلرُّوحِ، نُرْجِعُ ظِلاً
إِلَى أَهْلِهِ. نَتَبَادَلُ أَسْمَاءَ نِسْيَانِنَا، ثُمَّ نَرجِعُ قَتْلَى.. وَأَحْلَى
نُعِيدُ إِلَى الحُبِّ أَشْيَاءَه، زَهْرَةَ الوَقْتِ فِي جَسَدَيْنْ
وَلَكِنَّنَا لَا نَعُودُ إِلَى نَفْسِنَا، نَفْسِهَا، مَرَّتَيْنْ!..

يعلمني الحب ألّا أحب

يُعَلِّمُني الحُبُّ أَلَّا أُحِبَّ، وَأَنْ أَفْتَحَ النَّافِذَهِ
عَلَى ضِفَّةِ الدَّرْبِ. هَلْ تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَخْرُجِي مِنْ نِدَاءِ الحَبَقْ
وَأَنْ تقسمِينِي إِلَى اثْنَيْنِ: أَنْتِ، وَمَا يَتَبَقَّى مِنَ الأُغْنِيَهْ؟
وَحُبٌّ هُوَ الحُبُّ. فِي كُلِّ حُبٍّ أَرَى الحُبَّ مَوْتاً لِمَوْتٍ سَبَقْ،
وَرِيحاً تُعَاوِدُ دَفْعَ الخُيُولِ إِلَى أُمِّهَا ـ الرِّيحِ بَيْنَ السَّحَابَةِ والأَوْدِيَهْ..
أَلَا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَخْرُجِي مِنْ طَنِينِ دَمِي كَيْ أُهَدْهِدَ هَذَا الشَّبَقْ؟
وَكَيْ أَسْحَبَ النَّحْلَ مِنْ وَرَقِ الوَرْدَةِ المُعْدِيَهْ؟
وَحُبٌّ هُوَ الحُبُّ، يَسْأَلُنِي: كَيْفَ عَادَ النَّبِيذُ إِلَى أُمِّهِ واحْتَرَقْ...
وَمَا أَعْذَبَ الحُبَّ حِينَ يُعَذِّبُ، حِينَ يُخَرِّبُ نَرْجِسَةَ الأُغْنِيَهْ.

يُعَلِّمُني الحُبُّ أَنْ لَا أُحِبَّ، وَيَتْرُكُني فِي مَهَبِّ الوَرَقْ.

خسرنا، ولم يربح الحب

خَسِرْنَا، وَلَمْ يَرْبَحِ الحُبُّ شَيْئاً
لأَنَّكَ يَا حُبُّ حُبٌّ، لأَنَّكَ يَا حُبُّ طِفْلٌ مُدَلَّلْ
تُكَسِّرُ بَابَ السَّمَاءِ الوَحِيدَ، وَكُلَّ الكَلَامِ الَّذِي لَمْ نَقُلْهُ. وَتَرْحَلْ
فَكَمْ وَرْدَةٍ لَمْ نَرَ اليَوْمَ. كَمْ شَارِعٍ لَمْ يُحَطِّمْ كَآبَةَ قَلْبٍ مُكَبَّلْ
وَكَمْ مِنْ فَتَاةٍ يُغَافِلُنَا عُمْرُهَا وَيَسِيرُ إِلَى جِهَةٍ لَا نَرَاهَا...
لِتَصْهَلْ.
وَكَمْ مِنْ نَشِيدٍ تَنَزَّلَ فِينَا وَكُنَّا نِيَاماً، وَكَمْ مِنْ هِلَالٍ تَرَجَّلْ
لِيَرْتَاحَ فَوْقَ الوِسَادَةِ. كَمْ قُبْلَةٍ طَرَقَتْ بَابَنَا حِينَ كُنَّا بَعِيدَيْنِ
عَنْ بَيْتِنَا
وَكَمْ حُلُم ضَاعَ مِنْ نَوْمِنَا حِينَ كُنَّا نُفَتِّشُ عَنْ خُبْزِنَا فِي
الصُّخُورِ وَنَعْمَلْ

وَكَم طَائِرٍ رَفَّ حَوْلَ نَوَافِذِنَا حِينَ كُنَّا نُدَاعِبُ أَغْلَالَنا فِي نهارٍ مُؤَجَّلْ
خَسِرْنَا كَثِيراً وَلَمْ يَرْبَحِ الحُبُّ شيْئاً، لأَنَّكَ يَا حُبُّ طِفْلٌ مُدَلَّلْ!

سأمدح هذا الصباح

سَأَمْدَحُ هَذَا الصَّبَاحَ الجَدِيدَ، سَأَنْسَى اللَّيَالِيَ، كُلَّ اللَّيَالي
وَأَمْشِي إِلَى وَرْدَةِ الجَارِ، أَخْطِفُ مِنْهَا طَرِيقَتَهَا فِي الفَرَحْ.
سَأَقْطِفُ فَاكِهَةَ الضَّوْءِ مِنْ شَجَرٍ لِلْجَمِيعْ..
سَأَمْلِكُ وَقْتاً لأَسْمَعَ لَحْنَ الزِّفَافِ عَلَى رِيشِ هَذَا الحَمَامْ.
سَلاَمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... شَوَارِعُ كَالنَّاسِ وَاقِفَةٌ بَيْنَ يَوْمَيْنِ...
لَا تَمْلِكُ الأَرْضَ غَيْرُ الطُّيُورِ التي حَلَّقَتْ فَوْقَ سَطْحِ الغِنَاءْ،
وَلَا يَمْلِكُ الطَّيْرَ غَيْرُ الفَضَاءِ المُعَلَّقِ فَوْقَ أَعَالِي الشَّجَرْ.
سَلاَمٌ عَلَى نَوْمِ مَنْ يَمْلِكُونَ مَنَ الوَقْتِ وَقْتاً لِكَيْ يَقْرَأوا..
وَسَلاَمٌ عَلَى المُتْعَبِينْ.

أَفِي مِثْلِ هَذَا الصَّبَاحِ القَوِيِّ تَقُولِينَ لِي: سَأَعُودُ إِلَى بَيْتِ أُمِّي؟
أَفِي مِثْلِ هَذَا الصَّبَاحِ تُعِيدِينَ قَلْبِي إِلَيَّ عَلَى طَبَقٍ مِنْ وَرَقْ؟

سماء لبحر

سَمَاءٌ لِبَحْرٍ. سَمَاءٌ لِتَرْسُمَ بِنْتُ الفَرَاشَةِ أُمّاً. سَمَاءٌ لِكُرْسِي
أُصَالِحُ نَفْسِي وَلَوْ جَاءَتِ اليَاسَمِينَةُ بَعْدَ الأَوَانِ. أُصَالِحُ يَوْمَ الأَحدْ
سَأُنْزِلُ عَنْ يَدِكِ النَّهْرَ كَيْ يَتَعَرَّى، وَأَعْرِفَ كَيْفَ يَصِيرُ الشُّعَاعُ جَسَدْ
سَأَحْمِلُ عَنْكِ ذِرَاعِي لأُجْلِسَ هَذَا البَهَاءَ النِّهَائِيَّ فَوْقَ يَدَيْكِ وَلَدْ.
سَمَاءٌ لِبَحْرٍ، وَبَحْرٌ لسُورِ الحَدِيقَةِ. هَذَا النَّهَارُ سَرِيرٌ لِعُرْسِي
يَحُطُّ الحَمَامُ عَلَى شَارَةِ العَسْكَرِيِّ، وَتفْلتُ عَاشِقَةٌ مِنْ فَتَاهَا لِتَأْخُذَ قَطْعَةَ شَمْسِ
أُحِبُّكِ هَذَا النَّهَارَ كَمَا لَمْ أُحِبَّكِ مِنْ قَبْلُ. أَرْفَعُ عَنْ مَوْجَةِ اليَاسَمِينِ الزَّبَدْ.

أَفِي الأَرْضِ غَيْرُ السَّلَام؟ أَفِي النَّاسِ غَيْرُ المَسَرَّةِ؟ إِنِّي أُصَالِحُ نَفْسِي
فَتَدْخُلُ كُلُّ الشُّعُوبِ مَدَائِحَ خَمْرِي... وَتَدْخُلُ زَيْتُونَ قَوْسِي
أَفِي مِثْلِ هَذَا النَّهَارِ تَمُوتُ عَصَافِيرُ فِضِّيَّةٌ، هَلْ يَمُوتُ أَحَدْ!

أستطيع الكلام عن الحب

وَهَا أَنَذَا أَسْتَطِيعُ الكَلامَ عَنِ الحُبِّ، عَنْ شَجَرٍ فِي طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَى هَدَفِ الآخَرِين؟ وَعَنْ حَالَةِ الجَوِّ فِي بَلَدِ الآخَرِين. وَأُهْدِي حَمَامَ المَدِينَةِ حَفْنَةَ قَمْحٍ؟ وَأَسْمَعُ أَصْوَاتَ جِيرَانِنَا وَهِيَ تَحْفُرُ جِلْدِي.

وَهَا أَنَذَا أَسْتَطِيعُ الحَيَاةَ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ. أَبْذُلُ جُهْدِي لأَكْتُبَ مَا يُقْنِعُ القَلْبَ بِالنَّبضِ عِنْدِي، وَمَا يُقْنِعُ الرُّوحَ بِالعَيْشِ بَعْدِي.

وَفِي وُسْعِ غَارْدِينْيَا أَنْ تُجَدِّدَ عُمْرِي. وَفِي وُسْعِ إِمْرَأَةٍ أَنْ تُحَدِّدَ لَحْدِي

وَهَاأَنَذَا أَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ إِلَى آخِرِ العُمْرِ فِي اثْنَيْنِ: وَحْدِي، وَوَحْدِي
وَلَا أَسْتَطِيعُ التَّوَاطُؤَ إِلَّا مَعَ الكَلِمَاتِ التي لَمْ أَقُلْهَا، لأُفْدِي
مُكُوثِي عَلَى حَافَةِ الأَرْضِ، بَيْنَ حِصَارِ الفَضَاءِ وَبَيْنَ جَحِيمِ التَّرَدِّي

سَأَحْيَا كَمَا تَشْتَهِي لُغَتِي أَنْ أَكُونَ ... سَأَحْيَا بِقُوَّةِ هَذَا التَّحَدِّي

ونحن نحب الحياة

وَنَحْنُ نُحِبُّ الحَيَاةَ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهَا سَبِيلَا
وَنَرْقُصُ بَيْنَ شَهِيدَيْنِ. نَرْفَعُ مِئْذَنَةً لِلْبَنفْسَجِ بَيْنَهُمَا أَوْ نَخِيلَا

نُحِبُّ الحَيَاةَ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهَا سَبِيلَا

وَنَسْرِقُ مِنْ دُودَةِ القَزِّ خَيْطاً لِنَبْنِي سَمَاءً لَنَا وَنُسَيِّجَ هَذَا الرَّحِيلَا
وَنَفْتَحُ بَابَ الحَدِيقَةِ كَيْ يَخْرُجَ اليَاسَمِينُ إِلَى الطُّرُقَاتِ نَهَاراً جَمِيلَا

نُحِبُّ الحَيَاةَ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهَا سَبِيلَا
وَنَزْرَعُ حَيْثُ أَقَمْنَا نَبَاتاً سَرِيعَ النُّمُوِّ، وَنَحْصدُ حَيْثُ أَقَمْنَا قَتِيلَا

وَنَنْفُخُ فِي النَّايِ لَوْنَ البَعِيدِ، وَنَرْسُمُ فَوْقَ تُرَابِ المَمَرِّ صَهِيلَا
وَنَكْتُبُ أَسْمَاءَنَا حَجَراً حَجَراً، أَيُّهَا البَرْقُ أَوْضِحْ لَنَا اللَّيْلَ،
أَوْضِحْ قَلِيلَا

نُحِبُّ الحَيَاةَ إِذَا مَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهَا سَبِيلا...

نؤرخ أيامنا بالفَراش

نُؤَرِّخُ أَيَّامَنَا بِفَرَاشِ الحُقُولِ، هَبَطْنَا سَلَالِمَ أَيَّامِنَا
صَعَدْنَا عَلَى مَا يَغِيبُ مِن السِّنْدِيَانِ. تَرَكْنَا غِيَاباً لأَوْهَامِنَا
وَسِرْنَا إِلَى الشِّعْرِ نَسْأَلُهُ أَنْ يُجَدِّدَ أَرْضاً لإِلْهَامِنَا
فَسَدَّ عَلَيْنَا جِهَاتِ الرِّيَاحِ، وَصَارَ هُوِيَّةَ أَصْنَامِنَا
سَنَكْتُبُ مِنْ أَجْلِ أَلَّا نَمُوتَ.. سَنَكْتُبُ مِنْ أَجْلِ أَحْلَامِنَا
سَنَكْتُبُ أَسْمَاءَنَا كَيْ تَدُلَّ عَلَى أَصْلِهَا شَرْقَ أَجْسَامِنَا
سَنَكْتُبُ مَا تكتبُ الطَّيْرُ فِي الفَلَوَاتِ، وَنَنْسَى تَوَاقِيعَ أَقْدَامِنَا
نَمُرُّ عَلَى الرِّيحِ .. مِنَّا المَسِيحُ، وَمِنَّا يَهُوذَا، وَمِنَّا مُؤَرِّخُ أَرْحَامِنَا
نَمُرُّ عَلَى الأَرْضِ .. لَا نَشْتَهِي حَجَراً لِلكَلَامِ ولَا لِلسَّلَامِ عَلَى شَامِنَا
خَسِرْنَا، وَلَمْ يَرْبَحِ الشِّعْرُ شَيْئاً .. خَسِرْنَا كُهُولَةَ أَيَّامِنَا!

أرى
ما أريد
(١٩٩٠)

.. وأَنا أَنظُرُ خَلْفِي في هذا الليلْ
في أَوراق الأَشجار وفي أَوراق العُمرْ
وأحَدِّقُ في ذاكرة الماء وفي ذاكرة الرملْ
لا أُبصرُ في هذا الليلْ
إلّا آخرَ هذا الليلْ
دَقّاتُ الساعة تَقْضُمُ عُمْري ثانيةً ثانيةً
وتقصِّرُ أَيضاً عُمْرَ الليلْ
لم يبقَ من الليل ومنّي وقتٌ نتصارعُ فيهِ.. وَعَلَيْهِ
لكنَّ الليلَ يعودُ إلى ليلتِهِ
وَأَنا أَسقطُ في حُفْرَةِ هذا الظلّ ..

رباعيات

.1

أَرى ما أُريدُ مِنَ الحَقْل .. إِنِّي أَرى
جدائلَ قَمْحٍ تُمَشِّطُهَا الريحُ، أُغمضُ عينيَّ:
هذا السرابُ يُؤدِّي إلى النَّهَوَنْدْ
وهذا السكونُ يُؤَدِّي إلى اللازَوَرِدْ

.2

أَرى ما أُريدُ من البحر .. إِني أَرى
هُبوبَ النوارس عند الغروب، فأُغمض عينيّ:
هذا الضياعُ يؤدّي إِلى أَندلُسْ
وهذا الشراعُ صلاةُ الحمام عليّ ..

.3

أَرى ما أُريدُ من الليل.. إِني أَرى
نهايات هذا الممرِّ الطويل على باب إِحدى المُدُنْ
سأَرمي مُفَكّرتني في مقاهي الرصيف، سأُجْلِسُ هذا الغيابْ
على مقعد فوق إِحدى السفُنْ

.4

أَرى ما أُريدُ من الروح: وَجْهَ الحجرْ
وَقَدْ حكَّهُ البرق، خضراءُ يا أَرضُ.. خضراءُ يا أَرضَ روحي
أَما كنتُ طفلاً على حافة البئْرِ يلعبُ؟
ما زلتُ أَلعب.. هذا المدى ساحتي، والحجارةُ ريحي

.5

أَرى ما أُريدُ من السلْم.. إِني أرى
غزالاً، وعشباً، وجدولَ ماءٍ... فأُغمض عينيّ:
هذا الغزال ينامُ على ساعديّ
وصيَّادُهُ نائم، قُرْبَ أَولادِهِ، في مكانٍ قصيّ

.6

أَرى ما أُريدُ من الحرب.. إِني أَرى
سواعدَ أَجدادنا تعصُرُ النبعَ في حَجَرٍ أَخضرا
وآباءنا يَرِثُون المياهَ ولا يُورثون، فأُغمض عينيّ:
إِنَّ البلادَ التي بين كفّيَّ من صُنْع كَفّيّ

.7

أَرى ما أُريدُ من السجن: أَيَّامَ زهرةْ
مَضَتْ من هنا كي تدلَّ غريبين فيّ
على مقعد في الحديقة، أُغمضُ عينيّ:
ما أَوسعَ الأَرض! ما أَجمل الأَرضَ من ثُقْب إِبرةْ

.8

أَرى ما أُريدُ من البرقِ.. إِني أَرى
حقولاً تُفَتِّتُ أَغلالَها بالنباتات، مَرْحى!
لأُغنية اللوز بيضاءَ تهبط فوق دخان القرى
حماماً .. حماماً نقاسِمُهُ قُوتَ أَطفالنا

.9

أَرى ما أُريدُ من الحُبّ.. إِني أَرى
خيولاً تُرَقِّص سهلاً، وخمسين غيتارةً تتنهَّدْ
وسرباً من النحل يمتصُّ توت البراري، فأُغمض عينيّ
حتى أَرى ظلَّنا خلف هذا المكان المُشَرَّدْ

.10

أَرى ما أُريد من الموت: إِني أُحبُّ، وينشقُّ صدري
ويقفزُ منه الحصانُ الإِروسيُّ أَبيضَ يركض فوق السحابْ
يطير على غيمة لا نهائية ويدور مع الأَزرق الأَبَدِيّ..
فلا توقفوني عن الموت، لا تُرْجعوني إِلى نجمةٍ من ترابْ

.11

أَرى ما أُريدُ من الدم: إِني رأَيتُ القتيلْ
يخاطِبُ قاتِلَهُ مُذ أَضاءتْ رصاصتُه قَلْبَهُ: أَنتَ لا تستطيعُ
من الآنَ أَن تتذكر غيري. قتلتُكَ سَهْواً، ولن تستطيعَ
من الآن أَن تتذَكَّر غيري.. وأَن تتحمل وردَ الربيعْ

.12

أَرى ما أُريدُ من المَسْرَحِ العبثيِّ: الوحوشْ
قضاةَ المحاكم، قُبَّعةَ الإِمبراطور، أَقنعةَ العصر،
لونَ السماء القديمة، راقصةَ القصر، فوضى الجيوش
فأَنسى الجميع، ولا أَتذكَّر إِلا الضحية خلف الستارة

.13

أَرى ما أُريدُ من الشعر: كُنّا قديماً إِذا استُشْهِد الشعراء
نُشَيِّعُهُمْ بالرياحين ثم نعود إِلى شعرهم سالمين..
ولكننا في زمان المجلات والسينما والطنين نهيل التراب على
شعرهم ضاحكين ..
وحين نعود نراهم على بابنا واقفين..

.14

أَرى ما أُريدُ من الفجر في الفجر .. إِني أَرى
شعوباً تفتِّشُ عن خبزها بين خبز الشعوبْ
هو الخبز، يَنْشُلُنا من حرير النعاس، ومن قُطْن أَحلامنا
أَمِنْ حَبَّة القمح يبزغُ فجر الحياة.. وفجرُ الحروبْ؟

.15

أَرى ما أُريدُ من الناس: رغبتَهُمْ في الحنينْ
إِلى أَيِّ شيء، تباطُؤهُمْ في الذهاب إِلى شُغْلِهِمْ
وسُرْعَتهُمْ في الرجوع إِلى أهلهمْ ..
وحاجتهم للتحيَّةِ عند الصباح...

ربِّ الأيائل

يا أبي.. ربِّــهــا

... مُسْتَسْلماً لخُطى أَبيكَ ذَهَبْتُ أَبحثُ عنكَ يا أَبتي هناكْ
عند احتراق أَصابعي بشموع شوْكك، عندما
كان الغروبُ يَقُصُّ خرُوبَ الغروبِ، وعندما
كنا ـ أَنا وأَبوكَ ـ يا أَبتي وراءك وَالِدَيْكْ
أَنتَ المُعَلَّقُ فوق صُبَّار البراري من يديكْ
وعليكَ صَقْرٌ من مخاوفنا عليكْ
وعليكَ أَن ترث السماء من السماءْ
وعليكَ أَرضٌ مثل جلد الروح تثقُبُهُ زهورُ الهِنْدباءْ
وعليكَ أَن تختار فَأْسَكَ من بنادقهمْ عليكْ
وعليكَ أَن تنحاز، يا أَبتي، لفائدة الندى في راحتيكْ
ولقمحكَ المهجورِ حول معسكرات الجيش، فاصنعْ ما تشاءْ
بقلوب سَجَّانيكَ، واصمدْ فوق شوكك حين يقهرك الصهيلُ
حول الجهات الستِّ، واصمدْ، فالسهول لكَ السهولُ

□

.. وأَبي خَجُولٌ، يا أَبي، ماذا يقولُ.. ولا تقولْ
حدَّثْتُهُ عنه فأَومأَ للشتاء، ودسّ شيئاً في الرمادْ
لا تُعْطني حُبّاً، همستُ، أُريدُ أَن أَهب البلاد
غزالةً. فاشرحْ بدايتَكَ البعيدةَ كي أَراك كما أَراك
أَباً يُعَلِّمني كتابَ الأَرض من أَلِفٍ إلى ياءٍ.. ويزرعني هناك.
لُغْزٌ هو الميلاد: ينبتُ مثل بَلُّوط يشقُّ الصخر في
عَتَبات هذا المشهد العاري ويصعَدُ.. ثم يكسره السوادْ
نَحْبُو ونَصْبُو. تنهضُ الأَفراس تركضُ في المدى. نكبو ونخبو
فمتى وُلِدْنا يا أَبي ومتى نموتُ؟ فلا يُجيبُ، هُوَ الخجولُ
والوقت ملْك يديه يُرْسِلُهُ إِلى الوادي ويرجعه إِليه
وَهُوَ الحديقةُ في مهابتها البسيطة. لا يحدِّثُني عن التاريخ في
أَيَّامِهِ: كُنَّا هنا قبل الزمان وههُنا نبقى، فتخضرُّ الحقولُ
رَبٌّ الأَيائل.. رَبُّها في ساحة الدار الكبيرة يا أَبي!
فيغُضّ عني الطَّرْفَ. يُصْلح غُصْنَ داليةٍ. يُقَدِّم للحصان شعيرَهُ
والماءَ. يَعْرِفُهُ على مَهَل، يلاطفه ويهمس: يا أَصِيلُ.
يتناولُ النعناعَ من أُمِّي. يُدَخِّن تبغه. يُحْصي ثُرَيَّات العِنَبْ
ويقول لي: إِهدأْ! فأَغفُو فوق ركبته على خَدَرِ التَّعَبْ..

□

أَتذكَّرُ الأَعشابَ: يأخذني قطيعُ الأُقحوان إِلى حَلَبْ
من ههُنا قطعتْ مُخَيلتي جبالَ الناي، خلف الناي أَعدو
أَعدو وراء الطير كي أَتعلَّم الطيرانَ. قد خَبَّأْتُ سرِّي
في ما يقول الأَوَّلون هناك، خلف التلِّ. كم أَبعدتني
عمَّا أُحاول أَن أَكون ولا أَكون.. وأَنت تدري
أَني أُريدُ فوائدَ الأَزهار، قَبْلَ الملح. كم قرَّبْتَني
من نجمة العَبَث البعيدة، يا أَبي. لِمَ لَمْ تَقُلْ لي مَرَّةً
في العمرْ: يا ابني!.. كي أَطير إِليكَ بعد المدرسةْ؟
لِمَ لَمْ تحاول أَن تربِّيني كما رَبَّيْتَ حقلك سمسماً، ذُرَةً، وحنطةْ
أَلأنَّ فيكَ من الحروب توجُّسَ الجنديِّ من حَبَق البيوت؟
كُنْ سَيِّدي، يا سيِّدي، لأَفرَّ منك إِلى الرعاة على التلالْ
كُنْ سَيِّدي لتحبَّني أُمِّي.. وينسى إِخوتي موز الهلالْ
كُنْ سيِّدي كي أَحفظَ القرآن أَكثرَ.. كي أُحبَّ الإِمرأَةْ
وأَكون سيِّدها وأَسجنها معي! كن سيِّدي لأَرى الدليلْ
خَبَّأْتَ قلبك، يا أَبي، عني لأَكبُر فجأة وحدي على شجر
النخيلْ

□

شَجَرٌ، وأَفكارٌ، ومزمارٌ.. سأَقفزُ من يديكَ إِلى الرحيلْ

لأَسيرَ عكس الريح، عكس غروبنا.. منفايَ أَرضُ
أَرضٌ من الشهوات، كنعانيةٌ، ترعى الأَيائل والوعولْ..
أَرضٌ من الكلمات يحملها اليمام إِلى اليمام.. وأَنتَ منفى
منفىً من الغزوات ينقلها الكلام إِلى الكلام.. وأَنت أَرضُ
أَرضٌ من النعناع تحت قصائدي، تدنُو وتنأى ثم تدنو
ثم تنأَى في آسم فاتحها، وتدنو في اسم فاتحها الجديدْ
كُرَةً تخاطفها الغزاةُ وَثبَّتُوها فوق أَطلال المعابد والجنودْ
لو كُنْتَ من حَجَرٍ لكان الطقسُ آخرَ.. يا بن كنعان القديمْ
لكنهم كتبوا عليك نشيدَهُمْ لتكون «أَنت» «هو» الوحيدْ
لمْ تأتِ سوسنةٌ لتشهد، مَرَّةً، مَنْ كان شاعِرَها الشهيدْ
سَرَقَ المؤرِّخُ، يا أَبي، لُغَتِي وسوْسَنَتي وأَقصاني عن الوعد الإِلهي
وبكى المؤرِّخُ عندما واجهتُهُ بعظام أَسلافي: «إِلهي.. يا إِلهي
لِمَ لمْ يموتوا كُلُّهم لتكون لي وحْدِي..؟».. أَتغفر يا أَبي
لِيَ ما صَنَعْتُ بقلبكَ المثقوبِ بالصُبَّار حين كبرتُ وحْدِي
وذهبتُ وحدي كل أُطِلَّ على القصيدة من بعيد؟
فَلِمَ اندفعتَ الآن في السفر الكبير وأَنتَ توراةُ الجذورْ
أَنت الذي ملأَ الجرارَ بأَوَّل الزيت المقدَّس، وابتكرتَ من الصخورْ

كَرْماً. وأَنت القائلُ الأَبديُّ: لا ترحل إِلى صيْدَا وصُورْ؟
أَنا قادمٌ حَيّاً ومَيْتاً، يا أَبي، تَوّاً.. أَتغفر لي جنوني
بطيور أَسئلتي عن المعنى؟ أَتغفر لي حنيني
هذا الشتاءَ إِلى انتحارِ باذخٍ؟ شاهدتُ قلبي يا أَبي
وأَضَعْتُ قلبك يا أَبي، خَبأته عني طويلاً، فالتجأتُ إِلى القمرْ
قل لي: أُحبُّكَ، قبل أَن تغفو.. فينهمر المطرْ

□

.. متداخلاً في صُوفِهِ البُنِّيِّ، مُتَّكِئاً على دَرَجِ الشجرْ
يرنو إِلى فِرْدَوْسِه المفقود، خلف يديه، يرمي ظِلَّهُ
فوق التراب ـ تُرابِهِ ويشدُّهُ.. يصطادُ زهرة أُقحوانْ
بعباءة الظلِّ المراوِغِ. أَيُّ صَيَّادٍ يغافل سارقَ الأَشجارِ!
أَيّ أَبٍ أَبي! يرمي نِبَالَ الظلّ نحو ترابِهِ
المسروقِ .. يخطفُ منه زهرة أُقحوانْ!
ويعود قبل الليل. كم جيشٍ جديد سوف يحتلُّ الزمانْ
يأتون كي يتحاربوا فينا.. هُمُ الأُمراءُ، والشهداءُ نحنُ
يأتون، يبنون القلاع على القلاع، ويذهبون، ونحْنُ نحْن
لكنَّ هذا الوحشَ يسرق جلدنا وينام فيه فوق خَيْش فراشنا
ويَعضُّنا، ويصيح من وَجَع الحنين إِلى عيون الأقحوانْ

يا أَرضُ ! لم أَسأَلك: هل رحلَ المكانُ من المكان؟
لأَكون زائركِ الغريبَ على جِراب القادمين من الدخان
بيني وبين حقوليَ الشقراء مترٌ واحدٌ.. مترٌ مِقَصٌّ قَصَّ قلبي
أَنا من هنا.. ورأَيتُ أَحشائي تطلُّ عليَّ من زَغَبِ الذُّرَةْ
ورأَيتُ ذاكرتي تَعُدُّ حُبُوبَ هذا الحقلِ والشهداءَ فيه
أَنا من هنا. أَنا ههُنا.. وأُمشِّطُ الزيتون في هذا الخريف
أَنا من هنا. وهنا أَنا. دَوَّى أَبي: أَنا من هنا.
وأَنا هنا. وأَنا أَنا. وهنا هنا. إِني أَنا. وأَنا هنا. وهنا
أَنا. وأَنا أَنا. وهنا أَنا. وأَنا هنا. إِني هنا. وأَنا أَنا.
ودنا الصدى. كَسَرَ المدى. قامت قيامَتُهُ. صدى وجد الصدى
دَوَّى الصدى.. أَبداً هنا أَبداً هنا. وغدا الزمان غدا.
بدا شكلُ الصدى بلداً هنا ورد الردى، فاكسرْ
جدار الكون يا أبتي صدى حول الصدى؛ ولتنفجرْ:
أَنا

مِنْ
هُنا

وَهُنَا

هُنَا
وأَنَا
أَنَا
وَهُنَا

أَنَا
وأَنَا
هُنَا

□

الأَرضُ تكسرُ قِشْرَ بَيْضَتها وتسبَحُ بيننا
خضراءَ تحت الغيم. تأخذ من سماء اللون زينَتَها
لتسحرنا، هي الزرقاءُ والخضراءُ، تولد من خُرافتها
ومن قُرْبانِنا في عيد حنطتها. تُعَلِّمنا فُنُونَ البحث عن أُسطورة التكوين
سَيِّدَةٌ على إِيوانها المائيِّ.
سيدة المديح. صغيرة لا عمر يخدش وجهها. لا ثور
يحملها على قرنيه. تحمل نفسها في نفسها وتنام في أَحضانها
هِيَ. لا تودِّعنا ولا تستقبلُ الغرباء. لا تتذكَّرُ الماضي.

فلا ماضي لها. هي ذاتُها ولذاتِها في ذاتِها، تحيا فنحيا
حين تحيا حُرَّةً حضراءَ. لم تركب قطاراً واحداً معنا، ولا جملًا
وطائرةً. ولم تفقد وليداً واحداً. لم تبتعد عنا ولم تفقد
معادنها. ولم تخسر مفاتنها. هي الخضراء فوق مياهها الزرقاء..

فآنهَضْ، يا أَبي، من بين أَنقاض الهياكِلِ واكتُب
آسمَكَ فوق خاتَمِها كما كتب الأَوائل، يا أَبي، أَسماءهم.
وانهض أَبي لتحبَّ زوجتك الشهيَّة من ضفائرها إِلى
خلخالها.
وانهض، فلا زيتون في زيتون هذي الأَرض غير ظلالها،
وانهض لتحمدها وتعبدها وتَرْوي سيرة النسيان:
كم مَرَّ الغزاة وغيَّروك وغيّروا أَسماءها،
كم أصلحوا عربَاتهم وتقاسموا شهداءها،
وهي التي بقيت، كما كانت، لك امرأَةً وأُمّاً يا أَبي
فانهض، ليرجعك الغناءُ
كشقائق النعمان في أَرض تَبنَّتْها وغَنَّتها لتسكنها السماءُ

□

.. ولِمَ القصيدةُ يا أَبي؟ إِنَّ الشتاءَ هو الشتاءُ
سأَنام بعدك، بعد هذا المهرجان الهشِّ، تَسْوَدُّ الدماءُ

على تماثيل المعابد كالنبيذ.. وتكسر العُشّاقَ نرجسةٌ وماءْ
وسيكسرون الآن غيرتهم وغربتهم وبَلّور الحنين إلى حنينْ
وأَنا حزين يا أَبي كحمامة الأَبراج خارج سربها.. وأَنا حزينْ
وأَنا حزين، يا أَبي، سَلِّم على جَدّي إذا قابلتَهُ
قَبِّلْ يديهِ نيابةً عني وعن أَحفاد «بَعْلٍ» أَو «عَنَاةْ»
واملأْ له إبريقه بالخمر من عنب الجليل أَو الخليل، وقل له:
أُنثايَ تأبى أَن تكون إِطارَ صُورَتِها. وتخرج من رفاتي
عنقاءَ أُخرى. يا أَبي سَلِّمْ عليَّ هناك إِنْ قابلتَني
وانسَ انصرافي عن خيولك يا أَبي واغفر لأَعرف ذكرياتي
أَنت الذي خَبَّأْتَ قلبك يا أَبي عني، فآوتني حياتي
في ما أَرى من كائناتٍ لا تُكَوِّنُ كائناتي..
والآن تسحبني أُبوَّتُك القصيَّةُ من يديَّ ومن شتاتي
بشِباك ظِلِّك نحو آجُرٍّ من الظلّ المعلَّق في القصيدهْ..
لُغْزٌ هو الميلاد.. يا أَبتي سألتك: هل وُلِدْتَ
لتموت؟ كم أَرجأْتَ عمرَك.. كم تعبتَ وكم وَعَدْتَ
بأَن تعيش غداً، ولكنْ لم تعش أَبداً. فما نَفْعُ القصيدهْ
تُعْلي سُقوفَ كهوفنا وتطيرُ من دَمِنا إِلى لغة الحمامْ؟
يا سيِّد الحجرالذي أَدْمَتْهُ كَفُّكَ.. هل خَرَجْتَ من الرخامْ

لتعود يا أَبتي إِليه؟ دُلَّني لِمَ جِئْتَ بي.. لم جئتَ بي
أَلِكَيْ أُنادي حين أَتعَبُ: يا أَبي، يا صاحبي؟
يا صاحبي! مَنْ مات مِنَّا قبل صاحبِهِ ..
أَنا؟
أَم صاحبي؟

هدنة مع المغول
أمام غابة السنديان

كائنات من السنْدِيان تُطيلُ الوقوفَ على التلّ.. قَدْ
يصعَدُ العُشْبُ من خبزنا نحوها إنْ تركنا المكانَ، وَقَدْ
يهبط اللازوردُ السماويُّ منها إلى الظلِّ فوق الحصونْ.
مَنْ سيملأُ فُخَّارنا بعدنا؟ مَنْ يُغيِّرُ أَعداءنا عندما يعرفونْ
أَننا صاعدون إلى التلِّ كي نمدَحَ الله..
في كائناتٍ من السنديانْ؟

□

كُلُّ شيء يدلُّ على عَبَث الريح، لكننا لا نَهُبُّ هباءْ
رُبَّما كان هذا النهارُ أَخَفَّ علينا من الأَمس، نحن الذينْ
قد أَطالوا المكوثَ أَمام السماء، ولم يعبدوا غير ما فَقَدُوا
من عبادتهمْ. رُبَّما كانت الأَرضُ أَوسعَ من وَصْفها. ربما

كان هذا الطريقُ دخولاً مع الريح..

في غابة السنديانْ

□

الضحايا تَمُرُّ من الجانبيْن، تقول كلاماً أَخيراً وتسقط في
عالَمٍ واحدٍ. سوف ينتصرُ النسْرُ والسنديانُ عليها، فلا بُدَّ مِنْ
هُدْنَةٍ للشقائق في السهل كي تُخْفِيَ الميتين على الجانبين،
وكيْ
نَتَبَادَلَ بَعْضَ الشتائم قبل الوصول إلى التلّ. لا بُدَّ مِنْ
تَعَبٍ آدميّ يُحَوِّل تلك الخيولَ إلى ..

كائناتٍ من السنديانْ

□

الصدى واحدٌ في البراري: صدى. والسماءُ على حجر غرْبَةٌ
عَلَّقتْها الطيورُ على لا نهايات هذا الفضاء، وطارتْ ..
والصدى واحدٌ في الحروب الطويلة: أُمٌّ، أَبٌ، وَلَدٌ صَدَّقوا
أَنَّ خلفَ البحيرات خيلاً تعود إليهم مُطَهَّمةً بالرجاء الأَخيرْ
فأَعدُّوا لأَحلامهم قهوةً تمنع النومَ ..

في شَبَح السنديانْ

□

كُلُّ حربٍ تُعَلِّمنا أَن نحبَّ الطبيعةَ أَكثرَ: بعد الحصارْ
نَعْتَني بالزنابقِ أَكثرَ، نقطف قُطْنَ الحنان من اللَوْزِ في
شهر آذارَ. نزرع غاردينيا في الرخام، ونَسْقي نباتاتِ جيراننا
عندما يذهبون إِلى صَيْد غزلاننا. فمتى تَضَعُ الحربُ أَوزارها
كي نفُكَّ خُصُورَ النساء على التلّ..

من عُقدة الرَّمز في السنديانْ؟

□

ليت أَعداءَنا يأخذون مقاعدنا في الأَساطير، كي يعلموا
كم نُحبُّ الرصيفَ الذي يكرهون.. ويا ليتهم يأخذونْ
ما لنا من نُحاس وبرْق.. لنأخذ منهم حرير الضجرْ
ليت أَعداءنا يقرأون رسائلنا مرتين، ثلاثاً... ليعتذروا
للفراشة عن لعبة النار..

في غابة السنديانْ

□

كم أَردنا السلامَ لسيِّدنا في الأَعالي.. لسيدنا في الكُتُبْ
كم أَردنا السلامَ لغازلة الصُّوف.. للطفل قرب المغارةْ
لِهُواة الحياة.. لأَولاد أَعدائنا في مخابئهمْ.. للمَغُولْ

عندما يذهبون إلى ليل زوجاتهم، عندما يرحلونْ
عن براعم أَزهارنا الآن.. عَنَّا،
وعن وَرق السنديانْ

□

الحروب تُعَلِّمنا أَن نذوق الهواء وأَن نمدح الماء. كَمْ
ليلةً سوف نفرح بالحُمُّص الصلْب والكستنا في جيوب معاطفنا؟
أَمْ سننسى مهارتنا في امتصاص الرذاذ؟ ونسأَل: هَلْ
كان في وُسْع مَنْ مات أَلَّا يموت ليبدأ سيرتَهُ من هنا؟
رُبَّما.. رُبَّما نستطيع مديح النبيذ ونرفعُ
نخْباً لأَرملة السنديانْ

□

كُلُّ قَلْبٍ هنا لا يردُّ على الناي يسقط في
شَرَك العنكبوت. تمهَّلْ تمهّلْ لتسمع رَجْعَ الصدى
فوق خيل العَدُوّ، فإنَّ المغُول يُحبُّون خمرتنا
ويريدون أَن يَرْتَدوا جلد زوجاتنا في الليالي، وأَنْ
يأخذوا شعراء القبيلة أَسرى، وأَنْ
يقطعُوا شَجَرَ السنديانْ

□

المغُول يريدوننا أَن نكون كما يبتغون لنا أن نكونْ
حفنةً من هبوب الغبار على الصين أَو فارسٍ، ويريدوننا
أَن نُحبَّ أَغانِيَهُمْ كُلَّها كي يَحُلَّ السلامُ الذي يطلبونْ..
سوف نحفظ أَمثالهم.. سوف نغفر أَفعالَهُم عندما يذهبونْ
مَعَ هذا المساء إِلى ريح أَجدادهمْ

خلفَ أُغنيةِ السندياںْ

□

لمْ يجيئوا لينتصروا، فالخرافةُ ليست خرافتَهُمْ. إِنهم يهبطونْ
من رحيل الخيول إِلى غرب آسيا المريضِ، ولا يعرفونْ
أَنَّ في وسعنا أَن نقاوم غازان ـ أَرغون أَلفَ سَنَةْ
بَيْدَ أَن الخرافةَ ليست خرافتَهُ. سوف يدخل عَمَّا قليلْ
دينَ قتلاهُ كي يتعلَّم منهم كلامَ قُرَيش..

ومعجزةَ السندياںْ

□

الصّدَى واحدٌ في الليالي. على قمّة الليل نُحْصي
النجومَ على صدر سَيِّدنا، عُمْرَ أَولادنا ـ كبروا سَنَةً بعدنا ـ

غَنَمَ الأَهل تحت الضباب، وأَعدادَ قتلى المغول، وأَعدادَنا
والصدى واحدٌ في الليالي: سنرجع يوماً، فلا بُدَّ من
شاعرٍ فارسيٍّ لهذا الحنين..

إِلى لُغَةِ السنديانْ

□

الحُروبُ تعلِّمنا أَن نحبَّ التفاصيل: شكْل مفاتيحِ أبوابنا،
أن نُمَشِّطَ حنطتنا بالرموش، ونمشي خفافاً على أَرضنا،
أَن نقدِّسَ ساعاتِ قبل الغروب على شجر الزَّنْزَلَخْت..
والحروبُ تَعَلِّمُنا أَن نرى صورة الله في كل شيء، وأَنْ
نَتَحمَّل عبء الأَساطير كي نُخْرِجَ الوحش..

من قصَّة السنديانْ

□

كم سنضحك من سُوس خُبْز الحروب ومن دُودِ ماء الحروب،
إِذا
ما انتصرنا نُعَلِّقُ أَعلامنا السودَ فوق حبال الغسيلْ
ثم نَصْنَع منها جواربَ.. أَما النشيدُ، فلا بُدَّ من رَفْعِهِ
في جنازات أَبطالنا الخالدين.. وأَما السبايا، فلا

بُدَّ من عَتْقهنَّ، ولا بُدَّ من مَطَرٍ
فَوق ذاكرة السنديانْ

□

خَلْفَ هذا المساء نرى ما تبقَّى من الليل، عما قليلْ
يشرب القَمَرُ الحُرُّ شايَ المُحَارب تحت الشجَرْ
قَمَرٌ واحدٌ للجميع على الخندقين لَهُمْ ولنا، هَلْ لَهُمْ
خلفَ تلك الجبال بيوتٌ من الطين، شايٌ، ونايٌ؟ وهَلْ
عندهُمْ حَبَقٌ مثلنا يُرجع الذاهبين من الموت...
في غابة السنديانْ؟

□

.. وأَخيراً، صعدْنا إِلى التّلّ. ها نحن نرتفع الآن
فوق جذوع الحكاية.. ينبت عُشْبٌ جديد على دمنا وعلى دَمِهِمْ.
سوف نحشو بنادقنا بالرياحين، سوف نُطَوّق أَعناقَ ذاك
الحمام بأَوسمة العائدين.. ولكننا
لم نجد أَحداً يقبل السّلْم.. لا نحن نحن ولا غيرنا غيرنا
البنَادِقُ مكسورة.. والحمامُ يطير بعيداً بعيداً

لم نجد أَحداً هنُا ..

لم نجد أَحداً ..

لم نجد غابة السنديانْ!

جملة موسيقية

شاعرٌ ما يكتبُ الآن قصيدهْ
بَدَلاً مني،
على صفصافة الريح البعيدهْ
فلماذا تلبسُ الوردةُ في الحائطِ
أَوراقاً جديدهْ؟

□

وَلَدٌ ما طَيَّر الآن حمامهْ
بدلاً منا،
إِلى أَعلى، إِلى سقف الغمامهْ
فلماذا تذرفُ الغابةُ هذا الثلجَ
حول الابتسامهْ؟

□

طائرٌ ما يحملُ الآن رسالهْ
بدلاً منّا،
إلى الأَزْرَقِ من أَرض الغزالهْ
فلماذا يدخُلُ الصَيَّادُ في المشهدِ
كي يرمي نِبَالَهْ؟

□

رَجُلٌ ما يغسلُ الآن القمرْ
بدلاً منّا،
ويمشي فوق بَلُّور النَّهَرْ
فلماذا يَقَعُ اللونُ على الأَرضِ
لماذا نتعرَّى كالشجرْ؟

□

عاشقٌ ما يجرف الآن العشيقهْ
بدلاً مِنّي
إلى ماءِ الينابيع السحيقهْ
فلماذا يقفُ السَّرْوُ هنا
حارساً بابَ الحديقهْ؟

□

فارسٌ ما يُوقِفُ الآن حصانهْ
بدلاً مِنّي،
ويغفو تحت ظلِّ السنديانهْ
فلماذا يخرجُ الموتى إِلينا
من جدارٍ وخزانهْ؟

□

مأساة النرجس
ملهاة الفضة

عادوا ...
من آخر النفَق الطويل إلى مراياهم.. وعادوا
حين استعادوا مِلْحَ إخوتهمْ، فرادى أَو جماعاتٍ، وعادوا
من أَساطيرِ الدفاع عن القلاع إلى البسيط من الكلامْ
لن يرفعوا، من بعدُ، أَيديَهُمْ ولا راياتِهِمْ للمعجزات إذا أَرادوا
عادوا ليحتفلوا بماء وجودهم؛ ويُرتِّبوا هذا الهواءْ
ويزوِّجوا أَبناءهم لبناتهم، ويرقِّصوا جَسَداً توارى في الرخامْ
ويُعَلِّقوا بسُقُوفهمْ بَصَلاً، وبامية، وثوماً للشتاءْ
وليحلبوا أَثداء مَاعِزِهمْ، وغيماً سالَ من ريش الحمامْ.
عادوا على أَطراف هاجسهم إلى جُغرافيا السحرِ الإلهي
وإلى بساط الموز في أَرض التضاريس القديمةْ:
جبلٌ على بحرٍ؛

وخلف الذكريات بحيرتان،
وساحلٌ للأَنبياء ـ
وشارعٌ لروائح الليمون. لم تُصَب البلاد بأَيِّ سوءْ.
هَبَّتْ رياح الخيل، والهكسوس، هبُّوا والتتَار مُقَنَّعينَ
وسافرينَ. وخلَّدوا أَسماءهم بالرمح أَو بالمنجنيق... وسافروا
لم يحرموا إِبريل من عاداته: يلدُ الزهور من الصخور
ولزهرة الليمون أَجراسٌ؛ ولم يُصب التُّرابُ بأَي سوءٍ ـ
أَيِّ سوء، أَيِّ سوءٍ بعدهم. والأَرضُ توُرَثُ كاللغةْ.
هَبَّتْ رياحُ الخيل وانطفأَت رياحُ الخيل، وانبثق الشعير من الشعيرْ.
عادوا لأَنهمُ أَرادوا واستعادوا النارَ في ناياتهم، فأَتى البعيدُ
من البعيد، مُضَرَّجاً بثيابهم وهشاشة البلور، وارتفع النشيدُ ـ
على المسافة والغياب. بأَيِّ أَسلحة تُصَدُّ الروح عن تحليقها؟
في كل منفى من منافيهم بلادٌ لم يصبها أَي سوءْ...
صنعوا خرافَتَهُمْ كما شاءوا، وشادوا للحصى أَلَقَ الطيور. وكُلَّما
مَرُّوا بنهرٍ... مَزَّقوهُ، وأَحرقوهُ من الحنين... وكُلّما
مَرُّوا بسَوْسَنَةٍ بكوا وتساءلوا: هل نحن شعب أَم نبيذٌ للقرابين الجديدةْ؟

يا نشيدُ! خذ العناصر كُلَّها
واصعدْ بنا
سفحاً فسفحاً
واهبطِ الوديان ـ
هيّا يا نشيدُ
فأَنت أَدرى بالمكانِ
وأَنت أَدرى بالزمانِ
وقُوَّةِ الأَشياء فينا..

لم يذهبوا أَبداً ولم يصلوا؛ لأَن قلوبهم حَبَّاتُ لَوْزٍ في الشوارع. كانت الساحاتُ أَوسعَ من سماء لا تُغَطِّيهم. وكان البحر ينساهم. وكانوا يعرفون شمالهم وجنوبهم، ويطيِّرون حمائمَ الذكرى إِلى أَبراجها الأُولى، ويصطادون من شهدائهم نجماً يُسَيِّرهم إِلى وحشِ الطفولةِ. كلما قالوا: وصلنا... خرَّ أَوَّلُهُمْ على قوسِ البدايةِ. أَيها البطلُ ابتعدْ عنا لنمشي فيك نحو نهاية أُخرى. فتبّاً للبدايةِ. أَيها البطل المضرّج بالبدايات الطويلةِ قُلْ لنا: كم مرةً ستكون رحلتُنا البدايةَ؟ أَيها البطل المُسَجَّى فوق أَرغفة الشعير وفوق صوف اللوز، سوف نحنِّطُ الجرحَ الذي يمتصُّ روحكَ بالندى: بحليبِ ليلٍ لا ينامُ؛ بزهرة الليمونِ بالحجر المُدَمَّى؛ بالنشيد ـ نشيدنا؛ وبريشةٍ مقلوعة من طائرِ الفينيق ـ

إِنَّ الأَرضَ تُورَثُ كاللغةْ!
.. ونشيدهم حَجَرٌ يَحُكُّ الشمسَ. كانوا طيِّبين وساخرينْ
لا يعرفون الرقص والمزمار إِلَّا في جنازات الرفاق الراحلينْ
كانوا يُحبُّون النساء كما يحبون الفواكه والمبادئ والقططْ
كانوا يَعُدُّون السنين بعمر موتاهم. وكانوا يرحلون إِلى الهواجسْ:
ماذا صنعنا بالقرنفل كي نكون بعيدَهُ؟ ماذا صنعنا بالنوارسْ
لنكون سُكَّانَ المرافئ والملوحةِ في هواءٍ يابسٍ: مستقبلين مُوَدِّعينْ؟
.. كانوا، كما كانوا، سليقةَ كلِّ نهرٍ لا يفتِّش عن ثباتْ
يجرون في الدنيا لعلَّ الدربَ يأخذهم إِلى درب النجاة من الشتاتْ
.. ولأَنهم لا يعرفون من الحياة سوى الحياة كما تقدِّمها الحياة
لم يسألوا عما وراء مصيرهم وقبورهم. ما شأنهم بعد القيامةْ؟
ما شأْنَهم إِن كان إِسماعيل أَمْ إِسحقُ شاةً للإِلهْ؟
هذي الجحيم هي الجحيمُ. تعوَّدوا أَن يزرعوا النعناعَ في قمصانهم
وتعلَّموا أَن يزرعوا اللبلابَ حول خيامهم؛ وتعوَّدوا
حفظ البنفسج في أَغانيهم وفي أَحواض موتاهم...، ولم

يُصَبِ النباتُ بأَيِّ سوءٍ، أَيِّ سوء، حين جَسَّدَهُ الحنينُ
لكنهم عادوا قبيل غروبهم؛ عادوا إِلى أَسمائهم
وإِلى وضوح الوقت في سَفَر السنونو
.. أَمَّا المنافي، فهي أمكنةٌ وأَزمنةٌ تُغيِّر أَهلها
وهي المساءُ إِذا تدلَّى من نوافذَ لا تُطِلُّ على أَحدْ
وهي الوصولُ إِلى السواحل فوق مركبة أَضاعتْ خيلها
وهي الطيورُ إِذا تمادت في مديح غنائها، وهي البلدْ
وقد انتمى للعرش.. واختصر الطبيعة في جَسَدْ
.. لكنهم عادوا من المنفى، وإِن تركوا هناك خيولَهُمْ
فلأَنهم كسروا خرافتهم بأَيديهم لكي يتسربوا منها وكي يتحرروا
ويفكِّروا بقلوبهم. عادوا من الأسطورة الكبرى لكي يتذكروا
أَيامهم وكلامهم. عادوا إِلى المألوف فيهم وهو يمشي
فوق الرصيف ويمضغُ الكسَلَ اللذيذَ ووقتَهُ من غير غايهْ
ويرى الزهورَ كما ترى الناسُ الزهورَ.. بلا حكايهْ
من زهرةِ الليمونِ تُولَدُ زَهْرةُ الليمون ثانيةً وتفتح في الظلامِ
نوافذَ الدورِ القديمةِ للمدى.. وعلى سلام العائلهْ
.. وكأَنهم عادوا، لأَن الوقت يكفي كي تعود القافلهْ
من رحلة الهند البعيدة. أَصلحوا عرباتهمْ وتقدموا قبل الكلامْ

وعلى نوافذ آسيا الوسطى أَضاءوا نجمةَ الذكرى، وعادوا
وكأنهم عادوا. وعادوا من شمال الشام عادوا
وكأَنهم عادوا من الجُزر الصغيرة في المحيط الرحب، عادوا
من فتوحاتٍ بلا عَدَدٍ ومن سَبي بلا عدد، وعادوا
وكأنهم عادوا كعودة ظلّ مئذنة إلى صوت المؤذّن في المغيبْ
لم تسخر الطرقاتُ منهم مثلما سخر الغريبُ من الغريبْ
النهر هاجسهم، تَلَعْثَمَ أمْ تَقَدَّم، غاضَ أَمْ فاض النهَرْ
ولراية الصفصاف عرّافٌ يُعَلِّقُها على ما سال من ذهبِ القمرْ
.. ولهم حكايَتُهُمْ. وآدَمُ ـ جَدُّ هجرتهم بكى ندماً. وللصحراء هاجَرْ
والأَنبياء تشرَّدوا في كل أرض، والحضارةُ هاجَرَتْ، والنخل هاجرْ
لكنهم عادوا قوافلَ،
أَو رُؤى،
أَو فكرةً،
أَو ذاكرهْ
ورأوا من الصُّوَر القديمة فتنةً أَو محنةً تكفي لوصف الآخرهْ
هل كانتِ الصحراءُ تكفي للضياع الآدميِّ؟ وصَبَّ آدمْ

في رَحْمِ زوجته، على مرأى من التُفَّاح، شَهْدَ الشهوةِ الأُولى.
وقاومَ
موتَهُ. يحيا ليعبد رَبَّهُ العالي، ويعبد ربَّهُ العالي ليحيا
هل كان أَوَّلُ قاتلٍ ـ قابيلُ ـ يعرف أَن نومَ أَخيه مَوْتٌ؟
هل كان يعرف أَنه لا يعرف الأَسماءَ، بعدُ، ولا اللغهْ
هل كانت امرأةٌ يغطِّيها قميصُ التوتِ أَوَّلَ خارطهْ؟
لا شمسَ تحت الشمس إلَّا نور هذا القلب يخترق الظلالْ
كم من زمانٍ مرَّ كي يجدوا الجوابَ عن السؤال. وما السؤالْ
إلَّا جوابٌ لا سؤال لَهُ. وكانت تلك أَسئلةُ الرمال إلى الرمالْ
نُبُوءةً في ما يُرى أَو لا يُرى. جَهْلاً يقول نبوءةً. والرملُ رملُ
ويغافل الصوفيُّ إمرأَةً ليغزل صوفَ عتمتِهِ بلحيته، ويعلو
جَسَداً من البلّور. هل للروح أرداف وخاصرةٌ وظلٌّ؟
في الأَسر مُتَّسع لشمسِ الشكِّ مُذْ صاروا سكارى الباب ـ
حُرّياتُهُمْ
هي ما تساقط من فضاء المُطْلَقِ المكسور حول خيامهم:
خُوَذٌ، صفيحٌ، زُرْقَةٌ، إبريقُ ماءٍ، أَسلحهْ
آثارُ إنسانٍ، غرابٌ، ساعةٌ رمليةٌ، عشبٌ يغطي مذبحهْ.
هل نستطيع بناء معبدنا على متر من الدنيا.. لنعبدْ
خالقَ الحشرات والأَسماء والأَعداء والسر المُخَبَّإِ في ذبابهْ؟

هل نستطيع إِعادة الماضي إِلى أطراف حاضرنا، لنسجدْ
فوق صخرتنا لمن كتب الزمان على الكتاب بلا كتابهْ؟
هل نستطيع غناء أُغنية على حجر سماويٍّ لنصمدْ
للأَساطير التي لم نستطِعْ تغييرها إِلَّا بتأويل السحابهْ؟
هل يستطيع بريدُنا المائيُّ أَن يأتي على منقار هُدْهُدْ
ويعيدَ من سَبَإٍ رسالتَنَا، لنؤمن بالخُرافةِ والغرابهْ؟
.. في التيه مُتَّسع لأَحصنة تشبُّ من السفوح إِلى الأَعالي
ومن السفوح تخر صوب القاعِ؛ مُتَّسعٌ لفرسان يحثون الليالي
إِن الليالي كُلَّها ليلٌ. وإِن الموت قتلٌ في الليالي.
... يا نشيدُ! خُذِ العناصرَ كُلَّها
واصعدْ بنا دهراً فدهراً
كي نرى من سيرة الإِنسان ما سيُعيدُنا
من رحلةِ العبثِ الطويل إِلى المكان ـ مكانِنَا،
واصعد بنا قِمَمَ الحراب لكي نُطلَّ على المدينةِ ـ
أَنتَ أدرى بالمكان، وقُوَّة الأَشياء فينا
أَنت أدرى بالزمان..
خذني إِلى حَجَرٍ ـ
لأجلس قرب جيتار البعيدِ

خذني إِلى قَمَرٍ -
لأعرف ما تبقَّى من شرودي
خذني إِلى وَتَرٍ -
يَشُدّ البحرَ للبرِّ الشريدِ
خذني إِلى سَفَرٍ -
قليلِ الموت في شريانِ عودِ
خذني إِلى مَطَرٍ -
على قرميد منزلنا الوحيدِ
خذني إِليَّ لأَنتمي لجنازتي في يوم عيدي
خذني إِلى عيدي شهيداً في بنفسجة الشهيدِ
عادوا، ولكن لم أَعُدْ ...
خذني هناك إِلى هناك من الوريد إِلى الوريدِ.

.. عادوا إِلى ما كان فيهم من منازلَ، واستعادوا
قَدَمَ الحرير على البحيرات المضيئة، واستعادوا
ما ضاع من قاموسهم: زيتونَ رُومَا في مخيّلة الجنودِ
توراةَ كنعانَ الدفينةَ تحت أَنقاض الهياكل بين صُورَ وأورشليم
وطريقَ رائحةِ البخور إِلى قُرَيْشَ تهبُّ من شامِ الورودِ

وغزالةَ الأبد التي زُفّت إِلى النيل الشماليّ الصعودِ
وإِلى فحولةِ دجلةَ الوحشيّ وَهْوَ يَزُفُّ سُومَرَ للخلودِ.
كانوا معاً
كانوا معاً يتحاربون، ويُغْلَبونْ
كانوا معاً
يتزوَّجون وينجبون سُلالةَ الأَضدادِ أَو نسلَ الجنونْ
كانوا معاً
يتحالفون على الشمال، ويرفعون على الجحيمْ
جسرَ العبور من الجحيم إِلى انتصار الروح فيهم كُلِّهم.
ويعاودون الحربَ حول العقل. مَنْ لا عَقْلَ في إِيمانِهِ
لا روح فيه ..
هل نستطيع تناسخَ الإِبداع من جلجامشَ المحرومِ من
عُشْبِ الخلودِ
ومن أَثينا بعد ذلك؟ أين نحن الآن! للرُّومان أَن يجدوا
وجودي
في الرخام، وأَن يعيدوا نقطة الدنيا إِلى روما، وأَن يلدوا
جُدودي
من تفوُّق سيفهم.
لكنَّ فينا من أَثينا

ما يجعل البحر القديمَ نشيدَنا
ونشيدُنا حَجَرٌ يَحُكُّ الشمسَ فينا
حَجَرٌ يشعُّ غموضَنا. أَقصى الوضوحِ هو الغموضُ،
فكيف ندرك ما نسينا؟
عاد المسيحُ إلى العشاء، كما نشاء، ومريمٌ عادتْ إِليهِ
على جديلتها الطويلة كي تُغَطِّيَ مسرحَ الرومان فينا.
هل كان في الزيتون ما يكفي من المعنى.. لنملأ راحتيهِ
سكينةً، وجروحَهُ حَبَقاً، وندلق روحَنَا أَلَقاً عليهِ؟
.. ويا نشيدُ، خذِ المعاني كلَّها
واصعدْ بنا جرحاً فجُرحاً
ضمِّدِ النسيانَ
واصعدْ ما استطعتَ بنا إِلى الإِنسانِ
حولَ خيامِهِ الأُولى
يُلَمِّعُ قُبَّةَ الأُفُقِ المُغَطَّى بالنحاسِ
لكي يَرَى
ما لا يَرَى
من قلبِهِ.
واصعد بنا، واهبط بنَا نحو المكان

فأَنتَ أدرى بالمكان،
وأَنت أدرى بالزمان
.. وفي الممرات استعدُّوا للحصار. نياقُهم عطشتْ وقد حلبوا السرابْ
حلبوا السرابَ ليشربوا لَبَنَ النبوءةِ من مخيّلة الجنوبْ
في كل منفى قلعةٌ مكسورةٌ أَبوابُها لحصارهمْ، ولكُلِّ بابْ
صحراءُ تكملُ سيرةَ السفر الطويل من الحروب إِلى الحروبْ
ولكل عَوْسَجَةٍ على الصحراءِ هاجَرُ هاجَرَتْ نحو الجنوبْ
مروا على أَسمائهم منقوشةً فوق المعادن والحصى
لم يعرفوها.. فالضحايا لا تصدِّق خَدْسها..
لم يعرفوها..
مَمْحُوَّةً بالرمل أَحياناً، وأَحيانا تغطيها نباتاتُ الغروبْ
تاريخُنا تاريخهم، لولا اختلافُ الطير في الرايات وحَّدتِ الشعوبُ ـ
دروبَ فكرتها. نهايتُنا بدايتنا ...
وإِنَّ الأَرضَ
تُورَثُ
كاللغةْ ..
لو كان ذو القرنين ذا قرن، وكان الكونُ أَكبرْ

لتشرَّقَ الشرقيُّ في أَلواحِهِ.. وتغرَّبَ الغربيُّ أَكثرْ
لو كان قيصرُ فيلسوفاً كانت الأَرضُ الصغيرةُ دارَ قيصرْ.
تاريخُنا تاريخنا..
ولنَخلة البدويِّ أَن تمتدَّ نحو الأَطلسيِّ
على طريق دمشقَ كي نشفى من الظمأ المميت إِلى غمامهْ.
تاريخُنا تاريخهم
تاريخهم تاريخُنا
لولا الخلافُ على مواعيدِ القيامهْ!
من وحَّد الأَرضَ العنيدة خارج السيفِ المُرَصَّع بالحماسةِ؟
لا أَحَدْ ...
من عاد من سَفَرٍ إِلى حَبَقِ الطفولةِ؟
لا أَحَدْ ...
من صاغَ سيرته بمنأى عن هُبُوب نقيضها وعن البطولةِ؟
لا أَحَدْ ..
لا بُدَّ من منفى يَبيضُ لآلئ الذكرى ويختزلُ الأَبَدْ
في لحظة تَسعُ الزمانَ،
.. لعلَّهم كتبوا على أَسمائهم أَسماءَهم،
وتذكروا في فضة الزيتون أَوَّلَ شاعرٍ سَجَّى هناكَ سماءهم.

يا بحر إيجةَ، عُدْ بنا يا بحرُ... قد نبحتْ كلابُ العائلاتْ
لتعيدَنا من حيث هَبَّتْ ريحُنا.. فالنَّصْرُ مَوْتْ
والموتُ نصرٌ في هِرَقْلَ.. وخطوةُ الشهداء بَيْتْ.
نحن الذين أتوا لكي يأتوا وينتصروا.. رمتنا الكاهناتْ
بشمال غربتنا ولم يَسْأَلْنَ عن زوجاتنا. من ماتَ ماتَ،
ومن تذكَّر بيتَهُ قتلَ المزيد من العجائز والبناتْ
أَلقى بأَطفال المدينة من أسرّتِهم إِلى الوادي السحيق
ليعود قبل الوقتِ من طروادةِ الشيطان؛
هل خُنَّا نظامَ ضميرنا
لتخوننا زوجاتُنا؟
كان الضميرُ الصَّلْبُ جسر عبورنا،
وسفينةً حملت إِليهنَّ البخورَ وعطرَ هيلينَ الجميلةْ.
النصر موت كالهزيمة، والجريمة قد تقود إِلى الفضيلةْ.
يا بَحْرُ! أَنتَ تُزيِّنُ القتلى بقاتلهم، أَعِدْنا أَيها البحرُ القديمُ
إِلى نُباح كلابنا في أَرضنا الأُولى. وتابعْ أَيها البحرُ القديمُ
مغامرات البحث عمَّا ضاعَ من أسطولنا... وزوارق الصيد القديمةِ،
عن رجال أَصبحوا شجراً من المرجان في القيعانِ،
أَما نحن، فاحملْنا لنرجعَ

من حروبِ الذَّودِ عن عرشِ السرير إلى فراشِ نسائنا
وإلى قماشِ الحورِ أَخضرَ في الرمادِ وفي رؤى شعرائنا.
لا بد من بَرٍّ لنرسُوَ فوق خطوتنا وبُنْدُقِ دارنا
فالضوء ـ هذا الضوء، لا يكفي لنقطف فيه توتَ ديارنا.

... كانوا هناك يحاورون الموجَ كي يتشبَّهوا بالعائدين من المعارك تحت قوس النصر. لم تذهب منافينا سدى أَبداً، ولم نذهب إلى المنفى سدى. سيموت موتاهم بلا ندمٍ على شيءٍ. وللأحياءِ أَن يَرِثُوا هُدوءَ الريح، أَن يتعلموا فتحَ النوافذ، أَن يروا ما يصنع الماضي بحاضرهم، وأَن يبكوا على مهلٍ لئلاً يسمع الأَعداءُ ما فيهم من الخزف المكسَّر. أَيها الشهداءُ قد كنتم على حَقٍّ، لأَن البيت أَجملُ من طريقِ البيتِ، رغمَ خيانةِ الأَزهار، لكنَّ النوافذَ لا تُطلُّ على سماء القلب.. والمنفى هو المنفى هنا وهناك. لم نذهب إلى المنفى سُدىً أَبداً، ولم تذهبْ منافينا سُدىً.

والأَرضُ
تُوْرَثُ
كاللغةْ!

.. لم يُشْبهوا الأَسرى، ولم يتقمَّصُوا حريةَ الشهداءِ. لم

يتخلَّصوا من صيف وحشتهم. لماذا أَشلعوا الجبلَ البعيد بنارِ وحشتهم، وغابوا حين لم يجدوا لمنحدراتهم طُرُقاً تُوزِّعهم على الوديان؟ قد يأتي الرعاةُ الأولون إلى الصدى. قد يعثرون على بقايا صوتهم وثيابهم، وعلى زمان سلاحهم، وعلى تعرُّج نايِهِمْ. مِنْ كُلِّ شعبٍ أَلَّفوا أسطورةً كي يشبهوا أَبطالها، في كلِّ حربٍ ماتَ منهم فارسٌ، لكنَّ للأنهار وِجْهَتَها. وليس الأَمس أَمس ليسكنوا أَعلى قليلاً من مَصَبِّ النهرِ..

جيتاراتُهُمْ فَرَسٌ وأَندلُسٌ على قدَمَيْ
فتاةِ الريحِ دُقِّينا على إِبَرِ
الصنوبرِ كي نُحِبَّ حياتَنا دُقِّي الهَوَاءَ
بصَنْدَلِ الغابات دُقِّينا تَرِقَّ الروحُ
فينا نتركِ الميناء للميناء دُقِّينا
بإيقاع النبيذ على سواد السرِّ بين الأَبيضين
وَخلِّصينا الآن من مُرْجان واديكِ
الكبير وعَلِّمينا مهنةَ الفَرَحِ المُسَلَّح
بالدم الغجريِّ دُقِّينا ودُقّي ما يُطِلُّ
من القلوب بكعبك العالي لتلتفت
الشعوبُ إلى بداية حربها: رَجُلٌ

يـفـتـش فـي الـبـراري عـن سـكـينته
ويسكن امرأةْ

.. وعلى أَعالي الموج، موج البحر والصحراء كانوا يرفعون جزيرةً
لوجودهم.
إِني وقد دافعتُ عن سَفري إِلى قَدَري أدافع عن نشيدي
بين النخيل وظلّه المثقوبِ. من عدمي سأمشي من جديدِ
نحو الوجود ـ يقول شاعرهم وقد عادوا ـ سأترك للبعيدِ
ولزهرة الليمون جِسْرَ الأَزرقِ المكسورِ بالأَمطار. مُرُّوا
يا منشدونَ، إِذا استطعتم أَن تُعيدوا
للخيول صهيلها؛ مُرُّوا إِذاً يا منشدونْ
الخيلُ تلهثُ خلف قلبي وهو يقفز من يديَّ إِلى السدُودْ
ها نحن نحن، فمن يغيِّرنا؟ نعودُ ولا نعودْ
ونسير فينا ...
عندما يأتي نهارٌ واحدٌ لا موتَ فيه
وليلةٌ لا حلمَ فيها، نبلغ الميناءَ محترقين بالوردِ الأَخيرِ.
وكأَنهم عادوا،
لأَن البحر يهبط عن أَصابعهم وعن طرف السريرِ

كانوا يرون بيوتهم خلفَ السحابِ
ويسمعون ثُغاءَ ماعزهم، وكانوا
يتحسَّسون قُرونَ غزلانِ الحكايةِ..
يضرمون النارَ فوق التَّلِّ. كانوا
يتبادلون الهالَ. كانوا يعجنونَ فطائرَ العيد السعيدِ
أَتذكرون؟
أَيامَ غربتنا هناك؟ ويرقصون على الحقائبِ ساخرينْ
من سيرة المنفى البعيد ومن بلادٍ سوف يهجرها الحنينْ
هل تذكرون حصارَ قرطاجَ الأَخيرْ؟
هل تذكرون سقوطَ صورْ
وممالكَ الإِفرنجِ فوق الساحلِ السوريِّ، والموتَ الكبيرْ
في نهر دجلةَ عندما فاضَ الرمادُ على المدينةِ والعصورْ؟
«ها نحن عدنا يا صلاح الدين»..
فابحث عن بَنِينْ.
كانوا يعيدون الحكاية من نهايتها إِلى زمن الفكاهةْ
قد تدخل المأساةُ في الملهاة يوماً
قد تدخل الملهاةُ في المأساة يوماً...
في نَرْجسِ المأساة كانوا يسخرونْ

من فِضَّة الملهاة، كانوا يسألون ويسألونْ:
ماذا سنحلم حين نعلم أَن مريمَ إِمرأةْ؟
كانوا يشمّون الحشائشَ وهي تفتح في الجدار ربيعَها وجروحَهم
وتعيدهم من كل منفى. لَسْعَةُ القُرَّاصِ تشبهُ لسعةَ الأَفعى ورائحةُ الحَبَقْ
هي قهوة المنفيّ.. ممشى للعواطف حين تمشي في منازلها... وصلنا!
صَفِّقُوا لكلابهم، لبيوت عودتهم، لأَجدادِ الحكايةِ، للمحاريث القديمة،
لاحتكاك البحر بالبصل المُعَلَّق فوق أَسلحةٍ قديمةْ.
ما كان كانَ. ومازحَ الأَزواجُ زوجاتِ الجنازات:
انتهينا من دموع النادبات، الراقصاتِ، الباكياتْ
نروي، إِذاً، رَكْضَ القلوبِ مع الخيول إِلى هبوب الذكرياتْ
نروي صُمُودَ هِرَقْل في دمه الأَخيرِ وفي جنون الأمهات ونَكُونُهُ،
ونكونُ أُوليسَ النقيضَ إِذا أَرادَ البحرُ ذلك يا بناتْ
نروي ونروي، حينما نروي، نداءَ القائد الكُرديِّ
للمتردِّد العربيِّ: هاتْ

سيفاً
وخُذْ مني الصلاةَ على النبيِّ وصَحْبِهِ ونسائِهِ
وخذِ الزكاةْ.
.. ضحكوا كثيراً: قد يكون السجن أَجمل من بساتين المنافي
ورأوا نوافذهم تطلّ على فُكاهتهم وتُوقد ورْدَها حول الضفافِ
ما كان كانَ، سيقفزون على السلالم؛
يفتحون خزائن الذكرى
وصندوقَ الثيابِ
يُلَمِّعُون مقابِضَ الأَبواب أَحياناً،
وأَحياناً يَعُدُّون الخواتمْ
كبُرَتْ أَصابعُهُم مع الأَيام وانتفخت محاجرهم
ولم يجدوا على صَدَأ المرايا والزجاج وجوههم.
حسناً،
ستتسع الحديقةُ عندما يصلون بعد هنيهةٍ قبل النشيدْ
وسينظرون وراءهم:
ها نحن نحن، فمن سيُرجِعُنا إِلى الصحراءِ؟

سوف نُلَقِّن الأَعداء درساً في الزراعة وانبثاق الماء من حجرٍ.. سنزرع فلفلاً في خوذة الجنديِّ.. نزرعُ حنطةً في كل منحدرٍ لأَنَّ القمح أَكبر من حدود الإِمبراطورية الحمقاءِ

في كل العصورِ. سنقتفي عادات موتانا ونغسل فضَّة الأَشجار
من صدأ السنينِ...
بلادُنا هي أَن تكون بلادَنا
وبلادنا هي أَن نكون بلادَها
هي أَن نكونَ نباتَها وطيورَها وجمادَها
وبلادُنا ميلادُنا
أَجدادُنا
أَحفادُنا
أَكبادُنا تمشي على القندول أَو زغبِ القطا،
وبلادُنا هي أَن نُسيِّج بالبنفسج نارَها ورمادَها
هي أَن تكون بلادَنا
هي أَن نكون بلادَها
هي جَنَّةٌ
أَو محنةٌ
سَيَّان ـ

سوف نُعَلِّم الأَعداءَ تربيةَ الحمام إِذا استطعنا أَن نُعَلِّمهمْ. وسوف ننام بعد الظهر تحت عريشةِ العنبِ الظليلةِ، حولنا قططٌ تنام على رذاذِ الضوءِ. أحصنةٌ تنام على انحناء شرودها. بَقَرٌ ينامُ ويمضغ الأَعشابَ. ديكٌ لا ينام لأَن في الدنيا

دجاجاتٍ. وسوف ننامُ بعد الظهرِ تحتَ عريشةِ العنبِ
الظليلةِ. كمْ تعبنا.. كم تعبنا من هواء البحر والصحراءِ ـ
.. كانوا يرجعُونَ
ويحلمون بأَنهم وصلوا
لأَن البحر ينزل عن أَصابعهم وعن أكتاف موتاهم
وكانوا يشهدون، فُجاءَةً: ريحانة البطل المسجّى فوق خطوته
الأَخيرةْ:
أَهنا يموت على مسدسه وسُندسِهِ وعَتْبَتِهِ الأَخيرةْ؟
أَهنا يموت هنا؟ هنا والآن في شمس الظهيرةْ
والآن، هَزَّت إِصبعاه بشارةِ النصر الأَخيرةْ
بوَّابةَ البيتِ القديم، وهزَّ أَسوار الجزيرةْ.
الآن سدَّدَ آخرَ الخطوات نحو الباب.. واختتم المسيرةْ
برجوع موتانا. ونامَ البحرُ تحت نوافذ الدّور الصغيرةْ
.. يا بحرُ! لم نخطئ كثيراً.. أَيها البحرُ القديمْ
لا تُعْطِنا، يا بحرُ، أَكثر من سِوانا.. نحن نَدري
أَن الضحايا فيك أَكثرُ. والمياهُ هي الغيومْ
.. كانوا كما كانوا. وكانوا يرجعون ويسألون كآبةَ الأَقدارِ:
هل لا بُدَّ من بطلٍ يموت لتكبر الرؤيا وتزداد النجومْ
نجْماً على راياتنا؟

لم يستطيعوا أَن يضيفوا للنهايةِ وردةً،
ويغيِّروا مجرى الأَساطير القديمة:
فالنشيدُ هو النشيدْ:
لا بُدَّ من بطلٍ يخرُّ على سياجِ النصرِ
في أَوج النشيدْ
.. يَا أيها البطل الذي فينا.. تَمَهَّلْ!
عِشْ ليلةً أُخرى لنبلغ آخر العمل المُكَلَّلْ
ببداية لم تكتملْ؛
عِشْ ليلةً أُخرى لنكملَ رحلةَ الحُلُم المُضَرَّجْ
يا تاجَ شوكتنا؛ ويا شَفَقَ الأَساطيرِ المُتَوَّجْ
ببدايةٍ لا تنتهي. يا أيها البطلُ الذي فينا.. تمهَّلْ!
عِشْ ساعةً أُخرى لنبدأ رقصةَ النصر المُنَزَّلْ
لم ننتصرْ، بعدُ، انتظرْ يا أيها البطلُ انتظرْ
فعلامَ ترحلْ
قبل الوصولِ بساعةٍ؟
يا أيها البطلُ
الذي
فينا

تمهَّلْ!
.. ما زالَ فيهم من منافيهم خريفُ الاعترافْ
ما زال فيهم شارعٌ يفضي إِلى المنفى..
وأَنهارٌ تسير بلا ضفافْ
ما زال فيهم نرجسٌ رخوٌ يخاف من الجفافْ
ما زال فيهم ما يغيِّرهم إِذا عادوا ولم يجدوا:
الشقائق ذاتَها
وَبَرَ السفرجلة العنيدةِ ذاتِها
والأقحوانةَ ذاتَها
والأَكيدنيا ذاتَها
وسنابلَ القمحِ الطويلةَ ذاتَها
والبيلسانةَ ذاتَها
وجدائلَ الثومِ المجفَّف ذاتَها
والسنديانَةَ ذاتَها
والأَبجديةَ ذاتَها
.. كانوا على وشك الهبوط إِلى هواءِ بيوتهم..
من أَيِّ حلم يحلمون؟
بأيِّ شيءٍ يدخلون حدائقَ الأَبوابِ

والمنفى هو المنفى
.. وكانوا يعرفون طريقَهم حتى نهايته وكانوا يحلمونْ
جاءوا من الغد نحو حاضرهم.. وكانوا يعرفونْ
ما سوف يحدث للأغاني في حناجرهم.. وكانوا يحلمونْ
بقرنفُل المنفى الجديدِ على سياجِ البيت، كانوا يعرفونْ
ما سوف يحدث للصقور إِذا استقرَّت في القصور، ويحلمونْ
بصراعِ نرْجِسِهم مع الفردوس حين يصير منفاهم، وكانوا يعرفونْ
ما سوف يحدث للسنونو حين يخْرقه الربيعُ، ويحلمونْ
بربيع هاجسهم يجيءُ ولا يجيءُ، ويعرفونْ
ما سوف يحدُث حين يأتي الحُلْمُ من حُلُمِ
ويعرف أنه قد كان يحلُم؛
يعرفُون، ويحلُمون، ويرجعُون، ويحلُمون، ويعرفُون،
ويرجِعُون، ويرجعُون، ويحلُمون، ويحلُمون، ويرجعُونْ.

الهدهد

لم نَقْتَرِبْ من أرض نجمتنا البعيدةِ بَعْدُ. تأخذُنا القصيدةْ
من خُرْمِ إبْرَتِنا لِنَغْزِلَ للفضاء عباءَةَ الأُفُق الجديدةْ،
أَسْرى، ولو قَفَزَتْ سنابلُنا عن الأَسوار وانبثق السنونُو
من قَيْدنا المكسورِ، أسرى ما نحبُّ وما نريدُ وما نكونُ...
لكنَّ فينا هُدْهُداً يُملي على زيتونةِ المنفى بريدَهْ.
عادتْ إلينا من رسائِلنا رسائلُنا، لنكتب من جديد
ما تكتبُ الأَمطارُ من زَهْرٍ بدائيٍّ على صخر البعيد
ويسافِرُ السَّفَرُ ـ الصدى منَّا إلينا. لم نكن حَبَقاً ـ
لِنَرْجِعَ في الربيع إلى نوافذنا الصغيرة. لم نكن ورقاً ـ
لتأخذنا الرياحُ إلى سواحلنا. هنا وهناك خطٌّ واضحٌ
للتيهِ. كم سنةً سنرفع للغموض العذبِ موْتانا مرايا؟
كم مَرَّةً سنحمِّل الجرحى جبالَ الملح كي نَجِدَ الوصايا؟

عادت إِلينا من رسالتِنا رسالَتُنا. هنا وهناك خطٌّ واضحٌ
للظلِّ. كم بحراً سنقطع داخل الصحراء؟ كَمْ لوحاً سنَنْسَى؟
كم نبياً سوف نَقتُلُ في ظهيرتنا؟ وكم شعباً سنُشْبه كي نكونَ ـ
قبيلةً؟ هذا الطريقُ ـ طريقُنا قَصَبٌ على الكلمات يرفو
طَرَفَ العباءة بين وحْشتنا وبين الأَرض إِذ تنأى، وتغفو
في زَعْفَران غُرُوبنا. فَلْنَنْبَسطْ كَيَدٍ لنرفع وقتنا للآلهةْ..
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليلُ لسيِّد الأَشياء ـ أَبحثُ عن سماء تائهةْ.
لم يبق منَّا في البراري غيرُ ما تجد البراري
منا: بقايا الجِلْد فوق الشوك، أُغنيةَ المحارِبِ للديارِ
وفمَ الفضاء. أَمامنا آثارُنا. ووراءنا صَدَفُ العَبَثْ...
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل لنا ـ وطار مع الأَشعَّة والغبارِ
من أَين جئنا؟ يسأل الحكماءُ عن معنى الحكاية والرحيلِ
وأَمامنا آثارنا، ووراءنا الصفصافُ. من أسمائنا نأتي إِلى
أَسمائنا ونخبئُ النسيانَ عن أَبنائنا. تَثِبُ الوعولُ من الوعولِ ـ
على المعابد. والطيُورُ تبيض فوق فكاهة التمثال. لم نسأل لماذا
لم يُولَدِ الإِنسانُ من شَجَرٍ ليرجعَ؟ أَنْبَأَتْنا الكاهناتُ
أَنَّ القلوب تُزَان بالميزان في مصر القديمة، أَنبأتنا الكاهناتُ
أَن المسلَّة تُسْنِدُ الأُفُقَ المُهَدَّدَ بالسقوط على الزمان. وأَننا

سنُعِيدُ رحلتنا هناك على الظلام الخارجيّ. وأَنبأتنا الكاهناتُ
أَن الملوكَ قضاتُنا، وشهودَنا أَعداؤُنا. والروحَ يحرسُها الرعاةُ
جسرٌ على نهرين رحلتُنا. ولم نولد لتمحونا وتمّحيَ الحياةُ..
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل ـ سأهتدي للنبع إِن جفَّ النباتُ
قلنا له: لسْنا طيوراً. قال: لن تصلوا إِليه، الكُلُّ لَهْ
والكُلُّ فيهِ، وَهْوَ في الكُلِّ، ٱبحثوا عنه لكي تجدوهُ فيه، فَهْوَ فيهِ
قلنا له: لسنا طيوراً كي نطير. فقال: أَجْنحتي زماني
والعشق نار العشق، فاحترِقوا لتلقوا عنكمُ جَسَدَ المكانِ
قلنا له: هل عُدْتَ من سبإٍ لتأخذنا إِلى سبإٍ جديدة؟
عادت إِلينا من رسائِلنا رسالتُنا ولم ترجع.. ولم ترجعْ
وفي اليونان لم تفهم أرسْطُوفَان. لم تجدِ المدينة في المدينة
لم تجد بَيْتَ الحنان لكي تُدَثِّرنا حريراً من سكينة
لم تدرك المعنى فمسَّك هاجسُ الشعراء: «طيري
يا بنتَ ريشي! يا طيورَ السهل والوديان، طيري
طيري سريعاً نحو أَجنحتي وطيري نحو صوتي». إِنَّ فينا
شبقاً إِلى الطيران في أَشواقنا. والناسُ طيرٌ لا تطيرُ...
يا هُدهدَ الكلمات حين تفرِّخُ المعنى وتخطفنا من اللغة الطيورُ
يا ٱبن التوتّر حين تنفصل الفراشةُ عن عناصرها ويسكنها الشعورُ

ذوِّبْ هنا صلْصالَنا ليشقَّ صورةَ هذه الأَشياءِ نورُ
حلِّقْ لتَّضحَ المسافةُ بين ما كنّا وما سيكون حاضرُنا الأَخيرُ
ننأى، فندنو من حقيقتنا ومن أَسوار غربتنا. وهاجِسُنا العبورُ
نحن الثنائيُّ السماءُ ـ الأَرضُ، والأَرضُ ـ السماءُ. وحولنا سورٌ وسورُ
ماذا وراء السور؟ علَّم آدمَ الأَسماءَ كي يتفتَّح السرُّ الكبيرُ
والسرُّ رحلتنا إِلى السريِّ. إِنَّ الناسَ طيرٌ لا تطيرُ
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل ـ وتحْتَنا طوفانُ نوحٍ. بابلُ.
أَشلاءُ يابسةٍ. بُخارٌ من نداءات الشعوب على المياه. هياكلُ
ونهايةٌ كبدايةٍ كبدايةٍ لنهايةٍ. حلِّقْ لينسى القاتلُ
قتلاهُ. حلِّقْ فوقنا. حلِّقْ لينسى الخالقُ المخلوقَ
والأَشياءَ والأَسماءَ في أسطورة الخلق الذي نتبادلُ
ـ هل كنتَ تعرفُ؟ ـ كنتُ أَعرف أَن بُركاناً سيرسم صورةَ الكون الجديدة. ـ لم تَقُلْ شيئاً وأَنتَ بريدُ هذي الأَرض. ـ كنتُ أَحاولُ..
فيه من الأَشباح ما يكفي ليبحث في المقابر عن حبيبةْ
.. كانت له أُمٌّ، وكان له جنوبٌ يستقرُّ على هُبُوبِهْ
كانت له أسطورةُ الحَدْسِ المتوَّجِ بالمياه.. وفي دروبِهْ
مَلِكٌ وإِمرأَة.. وجيشٌ يحرس الصبواتِ في الجسدين من أحلامنا

ولنا من الصحراء ما يكفي لنُعطيَه زمام سرابنا وغمامِنَا
ومن الهشاشة ما سيكفي كي نسلّمه منامَ منامِنا
خُذْنَا، لقد هَدَّ اللسانُ فكيف نمتدح الذي طلب المديحْ
ومديحُهُ فيه. وفيه الكلُّ للكلِّ. آعترفنا أَننا بشرٌ، وذُبْنا
في هذه الصحراء حُبّاً. أَين نخلتُنا لنعرف في التُّمور قلوبَنا؟
واللَّهُ أَجْمَلُ من طريق اللّه. لكن الذين يسافرونْ
لا يرجعون من الضياع لكي يضيعوا في الضياع. ويعرفونْ
أَن الطريق هو الوصول إِلى بدايات الطريق المستحيلْ
يا هُدْهدَ الأَسرار، جاهِدْ كي نشاهدَ في الحبيب حبيبَنَا
هي رحلةٌ أَبدية للبحث عن صفة الذي ليست لَهُ
صِفَةٌ. هو الموصوفُ خارجَ وَصْفِنا وَصِفَاتِهِ. حلِّقْ بنا
لم تَبْقَ مِنَّا غيرُ رحلتنا إِليه. إِليه نشكو ما نُكابد في الرحيل
دَمُنا نبيذُ شُعوبِهِ فوق الرخام وفوق مائدة الأَصيل
«لا أَنتَ إِلا أَنتَ» فاخطِفْنا إِليك إِذا أَذِنْتَ، ودُلَّنا
يوماً على الأَرض السريعة قبل دَوْرَتنا مَعَ العَدَم العميق، ودُلَّنا
يوماً على شَجَرٍ وُلِدْنا تحته، سِرّاً، ليُخْفيَ ظلَّنا
وعلى الطفولة دُلَّنا. وعلى يمام زافَ أَوَّل مرةٍ ليُذِلَّنا
يَفَعَ الصغارُ ولم يطيروا مثله. يا ليتَنَا. ولعلَّنا

سنطير في يوم من الأَيام.. إِنَّ الناسَ طَيْرٌ لا تطيرُ
والأَرضُ تكبر حين نجهلُ، ثم تصغر حين نعرف جهلنا
لكننا أَحفادُ هذا الطين، والشيطان من نار يحاول مثلنا
أَن يُدْرِكَ الأَسرارَ عن كَثَبٍ ليحرقنا ويحرق عقلنا
والعقل ليس سوى دخان، فليضعْ! إِنَّ القلوبَ تدلُّنا
خُذْنَا إِذاً يا هُدْهُدَ الأَسرار نحو فَنَائنا بِفِنائه. حلِّقْ بنا
واهبطْ بنا، لنودِّعَ الأُمَّ التي انتظرتْ دهوراً خيْلنا
لتموت غبَّ النور أَو تحيا لنيسابورَ أَرملةً تُزيِّن ليلنا
هي «لا تريد من الإِله ـ اللَّه إِلّا اللَّه».. خذْنا!
والحبُّ أَن لا يُدْرَكَ المحبوبُ. أَرْسَلَ عاشقٌ لفتاته
فَرَسَ الغياب على صدى الناياتِ واختصر الطريق: «أَنا هِيَ»
وهي «الأَنا» تنسلُّ من يأسٍ إِلى أَملٍ يعود إِليَّ يأسا
لا تنتهي طُرُقي إِلى أبوابها.. طارتْ أَنايَ «فلا أَنا إِلّا أَنا..»
لا تنتهي طُرُقي إِلى أَبوابها، لا تنتهي طُرُق الشعوبِ ـ
إِلى الينابيع القديمةِ ذاتِها. قُلْنا: ستكتملُ الشرائعُ ـ
عندما نجتازُ هذا الأَرخبيلَ ونعتقُ الأسرى من الأَلواحِ ـ
فلْيَجلِسْ على إِيوانِهِ هذا الفراغُ ليكمل البشريُّ فينا هجرتَهْ..
عَمَّنْ تفتِّشُ هذه النايات في الغايات؟ والغرباء نحنُ

ونحن أَهْلُ المعبد المهجور مهجورون فوق خيولنا البيضاء ـ
ينبت فوقنا قَصَبٌ وتعبر فوقنا شهُب ونبحث عن محطتنا الأَخيرةْ
لم تبق أَرضٌ لم نعمِّر فوقها منفى لخيمتنا الصغيرةْ
هل نحن جِلْدُ الأَرض؟ عَمَّنْ تبحثُ الكلماتُ فينا
وهي التي عقدَتْ لنا في العالم السفليّ محكمةَ البصيرةْ
وهي التي بَنَتِ المعابدَ كي تُروِّضَ وحش عزلتها بمزمارٍ وصورةْ
وأَمامَنا آثارُنا. ووراءَنا آثارُنا. وهنا هناك. وأَنبأتْنا الكاهناتُ
أَن المدينةَ تعبدُ الأَجدادَ في الصين القديمة. أَنبأَتنا الكاهناتُ:
الجدُّ يأخُذُ عَرْشَه مَعَهُ إلى القبر المقدَّس، يأخذُ ـ
الفتياتِ زوجاتٍ وأَسرى الحرب حُرّاساً لَه. قد أَنبأتنا الكاهناتُ
أَن الأُلوهةَ توأمُ الإِنسان في الهند القديمة. أنبأتنا الكاهناتُ
ما أَنبأتنا الكائناتُ به.. «وأَنتَ تكون أَيضاً مَنْ هُوَ»
لكننا لم نُغْلِ تِينَتَنَا ليشنقنا عليها القادِمُون من الجنوبْ
هل نحن جلدُ الأَرض؟ كُنَّا إِذ نَعَضُّ الصخْرَ نفتحُ ـ
حَيِّزاً للفُلِّ. كنا نحتمي باللّه من حُرَّاسه ومن الحروبْ
كنا نصدِّقُ ما تعلَّمْنا من الكلمات. كان الشعر يهبطُ ـ
من فواكِهِ لَيْلنا، ويقودُ ماعزنا إِلى المرعى على درب الزبيبْ
الفجْر أزرقُ، ناعمٌ، رطبٌ. وكُنَّا حين نحلُمُ نكتفي

بحدود منزلنا: نرى عَسَلاً على النخروب، نَجْنِيه. نرى
في النوم أَنَّ مُرَبَّعات السمسم آكتنزتْ، فننْخُلُهَا. نرى
في النوم ما سنراه عند الفجر. كان الحُلْمُ منديلَ الحبيبْ
لكننا لم نُعْلِ تِينَتَنَا ليشنقنا عليها القادمون من الجنوبْ
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل ـ وطارَ منَّا. طارت الكلماتُ ـ
منا. قبْلَنا الطوفان. لم نَخْلَعْ ثيابَ الأَرضِ عنَّا ـ
قبْلَنا الطوفانُ. لم نبدأ حروبَ النفس بعدُ. وقبلنا
الطوفانُ. لم نحصدْ شعيرَ سهولنا الصفراءِ بعدُ.
وقبْلَنا الطوفانُ. لم نَصْقُلْ حجارتنا بقَرْنِ الكبش بعدُ.
وقبْلَنا الطوفانُ. لم نيأس من التفاح بعدُ. ستنجب
الأُمُّ الحزينةُ إِخوةً من لحمنا لا من جذوع الكستناء ولا
الحديد. ستنجب الأُم الحزينة إِخوةً ليعمِّروا منفى
النشيدِ. ستنجب الأُم الحزينة إِخوةً كي يسكنوا
سعفَ النخيل إِذا أرادوا أو سطوح خيولنا. وستنجب
الأُمُّ الحزينةُ إِخوةً ليتوِّجوا هَابيلَهُمْ ملكاً على عرش الترابْ
لكنَّ رحلتنا إِلى النسيان طالت. والحجاب أَمامنا غطى الحجابْ
ولَعَلَّ منتصفَ الطريق هو الطريق إِلى طريق من سحابْ
ولعلنا، يا هُدهدَ الأَسرار، أَشباحٌ تفتِّش عن خرابْ

قال: اتركُوا أَجسادكم كي تتبعوني واتركوا الأَرض ـ السرابْ
كيْ تتبعوني. واتركوا أَسماءكم. لا تسألوني عن جوابْ
إِن الجوابَ هو الطريقُ ولا طريقَ سوى التلاشِي في الضبابْ
هل مَسَّكَ «العَطَّارُ» بالأَشعار؟ قلنا. قال: خاطَبَني وغابْ
في بطن وادي العشق. هل وقف «المعرِّيْ» عند وادي المعرفةْ؟
قلنا. فقال: طريقُهُ عَبَثٌ. سألنا: وابن سينا.. هل أَجابَ
عن السؤال وهل رآكَ؟ ـ أَنا أُرَى بالقلب لا بالفلسفةْ
هل أَنت صوفيٌّ إِذاً؟ أَنا هدهدٌ. أَنا لا أريد. «أَنا أريدُ
أَن لا أريد».. وغاب في أشواقه: عذَّبْتَنَا
يا حبُّ. من سَفَرٍ إِلى سَفَرٍ تُسَفِّرنا سدى. عَذَّبتنَا،
غَرَّبتنا عن أَهلنا، عن مائنا وهوائنا. خَرَّبتنَا. أفرغتَ
ساعات الغروب من الغروب. سلبتنَا كلماتنا الأُولى.
نهبْتَ شُجَيْرةَ الدُرَّاق من أَيامنا، وسلبتنا أَيامنا. يا
حُبُّ قد عَذَّبتَنا، ونهبتنَا. غرّبْتنَا عن كُلِّ شيء، واحتجبْتَ
وراء أوراق الخريف. نهبتنا يا حب. لم تترك لنا شيئاً
صغيراً كي نُفَتِّش عنكَ فيهِ وكي نقبِّل ظلَّه، فاتركْ
لنا في الروح سنبلةً تحبُّكَ أَنت. لا تَكْسِر زُجَاجَ
الكون حول نِدائنا. لا تضطربْ. لا تصطخبْ. واهدأْ

قليلاً كي نرى فيك العناصرَ وهي ترفع عُرْسَها الكُليَّ
نحوك. واقتربْ منا لنُدرك مَرَّةً: هل نستحقُّ
بأَن نكون عبيدَ رَعْشَتِكَ الخفيةِ؟ لا تبعثر ما
تبقَّى من حُطام سمائنا. يا حبُّ قد عذّبتنا، يا
حبُّ، يا هِبَةً تُبَدِّدُنا لترشد غيبنا فيهبّ..
هذا الغيب ليس لنا وليس لنا مَصَبُّ النهر،
والدنيا تهبُّ أَمامنا ورقاً من السّرْوِ القديم ليُرْشِدَ
الأَشواقَ للأَشواق. كم عذَّبتنَا يا حُبُّ، كم غيّبتَنَا
عن ذاتنا، وسلبتنَا أَسماءنا يا حُبُّ..
قال الهدهدُ السكرانُ: طيروا كي تطيروا. نحن عُشَّاقٌ وحَسْبْ
قلنا: تَعِبْنَا من بياض العشق واشتقنا إِلى أُمّ ويابسةٍ وأَبْ
هل نحن مَنْ كنا وما سنكون؟ قال: توحَّدوا في كل دربْ
وتبخَّروا تصِلُوا إِلى مَنْ ليس تدركه الحواسُّ. وكُلُّ قلبْ
كونٌ من الأَسرار. طيروا كي تطيروا. نحن عُشَّاقٌ وحسْبْ
قلنا، وقد مِتْنا مراراً وانتشيْنَا: نحن عُشَّاقٌ وحسْبْ.
منفىً هي الأَشواقُ. منفىً حُبُّنا. ونبيذُنا مَنْفىً. ومنفَى
تاريخُ هذا القلبِ. كم قُلْنا لرائحةِ المكان: تَحَجَّرِي لننام. كم
قلنا لأَشجار المكان تجرَّدي من زِينَةِ الغزوات كي نجد المكانْ

والّلامكانُ هو المكانُ وقد نأى في الروح عن تاريخهِ...
منفىً هِيَ الروحُ التي تنأى بِنَا عن أرضنا نحو الحبيبْ
منفىً هِيَ الأَرضُ التي تنأى بنا عن روحنا نحو الغريبْ
لم يَبْقَ سَيْفٌ لم يجد غِمْداً له في لحمنا
والإِخوةُ ـ الأَعداءُ منا أسْرَجُوا خَيْلَ العَدُوِّ ليخرجوا من حُلْمِنا
منفىً هو الماضي: قَطَفْنا خوخَ بهجتنا من الصيف العقيمْ
منفىً هي الأَفكارُ: شاهدنا غداً تحت النوافذ فاخترقنا
أسوارَ حاضرنا لنبلغه فأصبح ماضياً في دِرْعِ جُنْديٍّ قديمْ
والشعرُ منفى حين نَحْلُمُ ثم ننسى حين نصحو أَين كنا
هل نستحقُّ غزالةً؟ خُذْنا إِلى غَدِنا الذي لا ينتهي
يا هُدْهُدَ الأَسرارِ! علِّقْ وقتنا فوق المدى. حلّقْ بنا
إِنَّ الطبيعةَ كُلَّها روحٌ، وإِنّ الأَرضَ تبدو من هنا
ثدْياً لتلك الرعشة الكبرى، وخيلُ الريح مركبةٌ لنا
يا طيرُ.. طيري كي تطيري فالطبيعةُ كُلُّها رُوحٌ. ودوري
حول افتتانِك باليدِ الصفراء، شمسِكِ، كي تذوبي واستديري
بعد احتراقك نَحْوَ تلك الأَرض، أرضِكِ، كي تنيري
نَفَقَ السؤال الصلْب عن هذا الوجود وحائطِ الزَّمَن الصغيرِ
إِنَّ الطبيعةَ كُلَّها روحٌ، وروحٌ رقصةُ الجَسَدِ الأَخيرِ

طيري إِلى أَعلى من الطيران.. أَعلى من سمائِك.. كي تطيري
أَعلى من الـحُبِّ الكبير.. من القَدَاسَةِ.. والأُلوهةِ.. والشعورِ
وتحرَّري من كُلِّ أَجنحةِ السؤالِ عن البدايةِ والمصيرِ
الكونُ أَصغرُ من جناح فراشَةٍ في ساحة القلب الكبيرِ
في حَبَّة القمح التقيْنا، وافترقْنَا في الرغيف وفي المسيرِ
مَنْ نحنُ في هذا النشيدِ لِنَشْقُفَ الصحراءَ بالمطر الغزيرِ؟
مَنْ نحن في هذا النشيد لنُعْتِقَ الأَحياءَ من أسر القبورِ؟
طيري بأَجنحةِ انخطافِك، يا طيورُ، على عواصفَ من حريرِ
لكِ أن تطيري مثل نشوتنا. يناديكِ الصدى الكونيُّ: طيري
لكِ وَمْضَةُ الرؤيا: سنهبط فوق أنفسنا.. سنرجع إِنْ صَحَوْنا
سنزور وقتاً لم يكن يكفي مَسَرَّتَنا ولا طَقْسَ النُّشُورِ
مَنْ نحن في هذا النشيد لنلتقي بنقيضهِ باباً لسورِ
ما نفعُ فِكْرَتنا بلا بَشَرٍ؟ ونحن الآن من نارٍ ونورِ؟
أَنا هُدْهُدٌ ـ قال الدليل ـ ونحن قلنا: نحن سِرْبٌ من طيورِ
ضاقتْ بنا الكلماتُ أَو ضقنا بها عطشاً وشرَّدنا الصدى
وإِلى متى سنطِير؟ قال الهدهدُ السكرانُ: غايتُنَا المدى
قلنا: وماذا خلْفَه؟ قال المدى خلفَ المدى خلفَ المدى
قلنا: تعبنَا. قال: لن تجدوا صنوبرةً لترتاحُوا. سدى

ما تطلبون من الهبوط، فحلّقوا لتُحَلِّقوا. قلنا: غداً
سنطيرُ ثانيةً.. فتلك الأَرضُ ثديٌ ناضجٌ يمتصُّه هذا الغمامُ
ذهَبٌ يَحُكُّ الرعشةَ الزرقاءَ حول بيوتنا. هل كان فيها ـ
كلُّ ما فيها ولم نعرفْ؟ سنرجع حين نرجع كي نراها
بعُيونِ هُدْهُدِنا وقد مَسّت بصيرتَنا. سلامٌ حولها ولها السلامُ
ولها سريرُ الكون مفروشٌ بقُطن الغيْمِ والرؤيا. تنامُ
وتنامُ فوق ذراعها المائيِّ سيدةً لصورتها وصورتنا. لها
قَمَرٌ صغيرٌ مثل خادمها يمشّط ظلَّها. ويمرُّ بين قلوبنا
خوفاً من المنفى ومن قَدَرِ الخرافة، ثم يُشعِلُهُ الظلامُ
سَهَراً لحال النفس قرب المُعجِزات. أَمِنْ هنا وُلِدَ الكلامُ
ليصير هذا الطينُ إنساناً؟ عرفناها لننساها وننْسى
سَمَكَ الطفولة حول سُرَّتها. أَعن بُعْدٍ نرى ما لا نَرَى
كم كانتِ الأَنهارُ ناياتٍ ولم نَعْلَمْ. وكم سَجَنَ الرخامُ
مِنّا ملائكةً ولم نعرفْ. وكم ضَلَّتْ هنا مصرٌ وشامُ
للأَرضِ أَرضٌ كان هُدْهُدُنا سجيناً فوقها. في الأَرض روحٌ ـ
شَرَّدَتْها الريحُ خارجها. ولم يترك لنا نوحُ الرسائلَ كُلَّها
ومشى المسيحُ إلى الجليل فصفَّقَتْ فينا الجروحُ. هنا اليمامُ
كلماتُ موتانا. هنا أَطلال بابل شامةٌ في إِبْطِ سيرتِنا. هنا

جَسَدٌ من التفاح يسبح في المجرَّة. والمياهُ له حِزامُ
يسري مع الأَبد المجسّد في مدائحنا، ويرجع نحو ذاتِهْ
أُمّاً تُغَطّينا بِفَرْوِ حنانها العاري، وتُخْفي ما فَعَلْناه بالرئةْ
وبنار وردتِهَا، وتخفي حربَ سيرتنا، وما صَنَعَ الحسامُ
بخريطة الأَعشاب حول شواطئ الزغَبِ المقدّس. أُمُّنا هي أُمُّنا
أُمُّ الأثينيين والفُرْس القدامى أمُّ أَفلاطون زارادشت أفلوطين أمّ
السهروَرْدِي
أُمُّ الجميعِ. وكُلُّ طفلٍ سيّدٌ في أُمه. ولها البداية والختامُ
وكأَنها هِيَ ما هِيَ الميلادُ إِن شاءتْ، وإِن شاءتْ هِي الموتُ
الحرامُ
أَطعمتِنا وأكلتِنا يا أُمَّنا كي تُطْعِمي أَولادَنا يا أُمَّنا، فمتى الفِطامُ؟
يا عنكبوتَ الحُبِّ. إِن الموتَ قتلٌ. كم نحبُّك كَمْ نحبُّك
فارحمِينَا
لا تقتلينا مرةً أُخرى ولا تلدي الأَفاعي قرب دِجْلة.. واترُكينَا
نسري على غزلان خصْرك قرب خصْرِكِ، والهواءُ هو المقامُ
واستدرجينَا مثلما يُسْتَدْرَجُ الحَجَلُ الشقيُّ إِلى الشُّباك، وعانقِينَا
هل كنتِ أَنتِ قبيل هجرتنا ولم نعرف؟ يغيّرنا الهيامُ
فنصير مثل قصيدة فتحتْ نوافذَهَا ليحملَها ويُكمِلها الحمامُ
معنىً يُعيد النسْغَ للشجر الخفيِّ على ضفاف الروح فينَا..

طيري، إذاً، يا طَيْرُ في ساحات هذا القلب طيري
ما نَفْعُ فِكْرَتنا بلا بَشَرٍ .. ونحن الآن من طين ونور؟
ـ هل كنتَ تعرف أَيَّ تاجٍ فوق رأسك؟ ـ قَبْرُ أُمِّي
وأَنا أَطيرُ وأَحملُ الأَسرار والأَخبار أُمِّي فوق رأسي مهرجانُ..
هُوَ هُدْهُدٌ، وهو الدليل وفيه ما فينا، يعلِّقه الزمانُ
جرساً على الوديانِ. لكنّ المكان يضيق في الرؤيا وينكسر الزمانُ

ماذا ترى.. ماذا ترى في صورة الظل البعيدةِ؟
ـ ظِلَّ صورته علينا فلْنحلِّقْ كي نراه، فلا هُو / إلَّا هُوَ..
«يا قلب.. يا أُمِّي ويا أُختي» ويا امرأتي تدفَّقْ كي تراهُ
وله.. لهدْهُدِنَا عُروشُ الماء تحت جَفَافِهِ تَعْلُو ويعلو السنديانُ
للماء لَوْنُ الحَقْلِ يرفَعُهُ النسيمُ على ظهور الخيل فجْرَا
للماءِ طَعْمُ هَديَّة الإِنشاد وهو يَهُبُّ من بستان ذكرى
للماءِ رائحةُ الحبيب على الرخام تزيدنا عَطَشاً وسُكْرا
للماءِ شَكْلُ هُنَيْهَةِ الإِشراق حين تَشُقُّنا نِصْفَيْنِ: إِنساناً وطيْرَا
وله .. لِهُدْهُدِنَا خيولُ الماء تحت جفافه تعلو، ويعلو الصولجانُ
وله.. لهُدْهُدِنَا زمانٌ كان يحمله، وكان له لسانُ
وله.. لهُدْهُدِنَا بلاد كان يحملها رسائلَ للسماوات البعيدةْ
لم يَبْقَ دِينٌ لم يجرِّبْهُ ليمتحن الخليقةَ بالرحيل إِلى الإِلهْ

لم يَبْقَ حُبٌّ لم يعذبه ليخترق الحبيبَ إلى سواهْ
وهو المسافر دائماً. مَنْ أَنتَ في هذا النشيد؟ أَنا الدليلُ
وهو المسافر دائماً. من أَنت في هذا النشيد؟ أَنا الرحيلُ
«يا قلب.. يا أُمي ويا أُختي» تدفَّقْ كي يراكَ المستحيلُ ـ
وكي تراه وتأخذاني نحو مرآتي الأَخيرة. قال هُدهُدُنَا وطارْ
هل نحن ما كنا؟ على آثارنا شَجَرٌ وفي أَسفارنا قَمَرٌ جميلُ
ولنا حياةٌ في حياة الآخرين هناك. لكنا أَتيْنَا ـ
مُكْرهين إلى سمرقَنْدَ اليتيمةِ. ليس في أَجدادنا مَلِكٌ نُعِيدُهْ
تركتْ لنا الأَيام إِرْثَ الناي فِي الأَيام.. أَقربُهُ بَعيدُهْ
ولنا من الأَمطار ما لشُجيْرَةِ اللبلاب. نحن الآن ما كنا وعُدْنَا
مُكرهينَ إِلى الأَساطير التي لم تَتَّسع لوصُولِنَا، لم نستطعْ
أَن نَحْلِبَ الأَغنامَ قرب بيوتنا، ونُرَتِّبَ الأَيام حول نشيدنا
ولنا هناك معابدٌ، ولنا هنا رَبٌّ يمجده شهيدُهْ
ولنا من الأَزهار «مِسْكُ الليل» يُوصِدُهُ نهارٌ لا يريدُهْ
ولنا حياةٌ في حياة الآخرين. لنا هنا قمحٌ وزيتٌ ـ
نحن لم نقطع من الصفصاف خيْمَتَنَا. ولم نصنع مِنَ ـ
الكبريت آلهةً ليعبدها الجنود القادمون. لقد وجدْنا ـ
كلَّ شي جاهزاً: أَسماءنا مكسورةً في جَرَّةٍ ـ

الفُخَّار.. دَمْعَ نسائنا بُقَعاً من التوت القديم على
الثياب.. بنادقَ الصيد القديمة.. واحتفالاً سابقاً لا نستعيدُهْ
القَفْر مكتظ بآثار الغياب الآدميّ. كأنَّنا كُنَّا هنا
وهنا من الأَدوات ما يكفي لننصب خيمةً فوق الرياحْ
لا وَشْمَ للطوفان فوق تَجَعُّدِ الجَبَلِ الذي اخضرَّتْ حدودُهْ
لكنَّ فينا أَلفَ شعبٍ مَرَّ ما بين الأَغاني والرماحْ
جئنا لنعْلَم أَننا جئنا لنرجِعَ من غياب لا نريدُهْ
ولنا حياةٌ لم نُجَرِّبْها، وملحٌ لم يخلِّدنا خلودُهُ
ولنا خطى لم يَخْطُها مِنْ قبلنا أَحَدٌ.. فطيري
طيري، إذاً، يا طيرُ في ساحات هذا القلب طيرِي
وتجمعِي من حول هُدْهُدِنَا، وطيري.. كي.. تطيرِي!

أحد عشر
كوكباً
(١٩٩٢)

أحد عشر كوكباً
على آخر المشهد الأندلسي

I

في آلْمَساءِ الأَخير
على هذهِ الأَرْض

في آلْمَساء الأَخيرِ على هذهِ الأَرْضِ نَقْطَعُ أَيَّامَنا
عَنْ شُجَيْراتِنا، ونَعُدُّ آلضُلوعَ آلَّتي سَوْفَ نَحْمِلُها مَعَنا
وَالضُّلوعَ آلَّتي سَوْفَ نَتْرُكُها، هٰهُنا... في آلْمَساءِ آلأَخيرْ
لا نُوَدِّعُ شَيْئاً، ولا نَجِدُ آلْوَقْتَ كَيْ نَنْتَهي...
كُلُّ شَيْءٍ يَظَلُّ على حالِهِ، فَالْمَكانُ يُبَدِّلُ أَحْلامَنا
وَيُبَدِّلُ زُوّارَه. فَجْأَةً لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على السُّخْرِيَة
فالْمَكانُ مُعَدٌّ لِكَيْ يَسْتَضيفَ آلْهَباءَ... هُنا فِي آلْمساءِ الأَخيرْ
نَتَمَلّى آلْجِبالَ آلْمُحيطَةَ بِالْغَيْمِ: فَتْحٌ.. وَفَتْحٌ مُضادّ

وَزَمانٌ قَديمٌ يُسَلِّمُ هذا ٱلزّمانَ ٱلْجَديدَ مَفاتيحَ أَبْوابِنا
فَٱدْخلوا، أَيُّها ٱلْفاتِحونَ، مَنازِلَنا وٱشْرَبوا خَمْرَنا
مِنْ مُوَشَّحِنا ٱلسَّهْلِ. فٱللَّيْلُ نَحْنُ إِذا ٱنْتَصَفَ ٱللَّيْلُ، لا
فَجْرَ يَحْمِلُهُ فارِسٌ قادِمٌ مِنْ نَواحي ٱلأَذانِ ٱلأَخيرْ..
شايُنا أَخْضَرٌ ساخِنٌ فَٱشْرَبوهُ، وَفُسْتُقُنا طازَجٌ فَكُلوه
وٱلأَسِرَّةُ خَضْراءُ مِنْ خَشَبِ ٱلأَرْزِ، فَٱسْتَسْلِموا لِلنُّعاسْ
بَعْدَ هذا ٱلْحِصارِ ٱلطَّويلِ، وَناموا على ريشِ أَحْلامِنا
المُلاءاتُ جاهِزَةٌ، وَٱلْعُطورُ على ٱلْبابِ جاهِزَةٌ، وٱلمرايا كَثيرَة
فَٱدْخُلوها لِنَخْرُجَ مِنْها تَماماً، وَعَمّا قَليلٍ سَنَبْحَثُ عَمّا
كانَ تاريخَنا حَوْلَ تاريخِكُمْ في ٱلْبِلادِ ٱلْبَعيدَة
وَسَنَسْأَلُ أَنْفُسَنا فِي ٱلنِّهايَة: هَلْ كانَتِ ٱلأَنْدَلُسْ
هٰهُنا أَمْ هناكَ؟ على ٱلأَرْضِ... أَمْ في ٱلْقَصيدَة؟

II

كَيْفَ أَكْتُبُ
فَوْقَ ٱلسَّحاب؟

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْق ٱلسَّحابِ وَصِيَّةَ أَهْلي؟ وَأَهْلي
يَتْرُكونَ ٱلزَّمانَ كَما يَتْرُكونَ مَعاطِفَهُمْ في ٱلْبُيوت، وَأَهْلي
كُلَّما شَيَّدوا قَلْعَةً هَدَموها لِكَيْ يَرْفَعوا فَوْقَها
خَيْمَةً لِلْحَنينِ إِلى أَوَّلِ ٱلنَّخْل. أَهْلي يَخُونونَ أَهْلي
في حُروبِ ٱلدِّفاعِ عَنِ ٱلْمِلْح. لكِنَّ غَرْناطَةً مِنْ ذَهَب
مِنْ حَريرِ ٱلْكَلامِ ٱلْمُطَرَّزِ بِاللَّوْزِ، مِنْ فِضَّةِ ٱلدَّمْعِ في
وَتَرِ ٱلْعود. غَرْناطَةٌ لِلصُّعودِ ٱلْكَبيرِ إِلى ذاتِها...
وَلَها أَنْ تَكونَ كَما تَبْتَغي أَنْ تَكونَ: ٱلْحَنينَ إِلى
أَيِّ شَيْءٍ مَضى أَوْ سَيَمْضي: يَحُكُّ جَناحُ سُنونوَّةٍ

نهْدَ آمْرأَةٍ في آلسَّريرِ، فَتَصْرُخُ: غَرْناطَةٌ جَسَدي
وَيُضَيِّعُ شَخْصٌ غزالَتَهُ في آلْبَراري، فَيَصْرُخُ: غَرْناطَةٌ بَلَدي
وَأَنا مِنْ هُناكَ، فَغَنّي لِتَبْني آلْحساسينُ مِنْ أَضْلُعي
دَرَجاً لِلسَّماءِ آلْقَريبَةِ. غَنّي فُروسِيَّةَ الصّاعِدينَ إلى حَتْفِهِمْ
قَمَراً قَمَراً في زُقاقِ آلْعشيقَةِ. غَنّي طُيورَ آلْحَديقَة
حَجَراً حَجَراً. كَمْ أُحِبُّكِ أَنْتِ آلَّتي قَطَّعْتِني
وَتَراً وَتَراً في آلطَّريقِ إلى لَيْلِها آلحارِّ، غنّي
لا صَباحَ لِرائِحةِ آلْبُنِّ بَعْدَكِ، غَنّي رَحيلي
عَنْ هَديلِ آلْيَمامِ على رُكْبَتَيْكِ وَعَنْ عُشِّ روحي
فِي حُروفِ آسْمِكِ آلسَّهْلِ، غَرْناطَةٌ لِلْغِناءِ فَغَنّي!

III
لي خَلْفَ آلسَّماءِ سَماء...

لِيَ خَلْفَ آلسَّماءِ سَماءٌ لأَرْجِعَ، لكِنَّني
لَا أَزالُ أُلـمِّعُ مَعْدِنَ هٰذا آلْمَكانِ، وَأَحْيا
ساعَةً تُبْصِرُ آلْغَيْبَ. أَعْرِفُ أَنَّ آلزَّمانْ
لا يُحالِفُني مَرَّتَيْنِ، وَأَعْرِفُ أَنّي سأَخْرُجُ مِنْ
رايَتي طائِراً لا يَحُطُّ على شَجَرٍ في آلْحَديقَةْ
سَوْفَ أَخْرُجُ مِنْ كُلِّ جِلْدي، وَمِنْ لُغَتي
سَوْفَ يَهْبِطُ بَعْضُ الْكَلامِ عَنِ آلْحُبِّ في
شِعْرِ لوركا آلَّذي سَوْفَ يَسْكُنُ غُرْفَةَ نَوْمي

وَيَرى ما رأَيْتُ مِنَ ٱلْقَمرِ ٱلْبَدَوِيِّ. سَأَخْرُجُ مِنْ شَجَرِ ٱللَّوْزِ
قُطْناً على زَبَدِ ٱلْبَحْرِ. مَرَّ ٱلْغَرِيبْ
حامِلاً سَبْعَمائَةِ عامٍ مِنَ ٱلْخَيْل. مَرَّ ٱلْغَرِيبْ
ههنا، كَيْ يمُرَّ ٱلْغَرِيبُ هناك. سَأَخْرُجُ بَعْدَ قَليل
مِنْ تَجاعيدِ وَقْتي غَريباً عَنِ ٱلشَّامِ وَٱلأَنْدَلُسْ
هذهِ ٱلأَرْضُ لَيْسَتْ سَمائي، ولكِنَّ هذا ٱلْمَساءَ مَسائي
وَٱلْمفاتيحَ لي، وَٱلْمآذِنَ لي، وَٱلْمَصابيحَ لي، وَأَنا
لِيَ أَيْضاً. أَنا آدَمُ ٱلْجَنَّتَيْنِ، فَقَدْتُهُما مَرَّتَينْ.
فَٱطْرُدوني على مَهَلٍ،
وَٱقْتُلوني على عجلٍ،
تَحْتَ زَيْتونَتي،
مَعَ لوركا..

IV

أَنا واحدٌ
مِنْ مُلوكِ النّهايَة

... وأَنا واحِدٌ مِنْ مُلوكِ ٱلنَّهايَة... أَقْفِزُ عَنْ
فَرَسي في الشِّتاءِ ٱلأَخير، أَنا زَفْرَةُ ٱلْعَرَبِيّ ٱلأَخيرَةْ
لَا أُطِلُّ على ٱلآسِ فَوْقَ سُطوحِ ٱلْبُيوتِ، ولا
أَتَطَلَّعُ حَوْلي لِئَلاّ يَراني هُنا أَحَدٌ كانَ يَعْرِفُني
كانَ يَعْرِفُ أَنّي صَقَلْتُ رُخامَ ٱلْكَلامِ لِتَعْبُرَ ٱمْرأَتي
بُقَعَ ٱلضَّوْءِ حافِيَةً، لا أُطِلُّ على ٱللَّيْلِ كَيْ
لا أَرى قَمَراً كانَ يُشْعِلُ أَسرارَ غَرْناطَةٍ كُلَّها
جَسَداً جَسَداً. لا أُطِلُّ على الظِّلِّ كَيْ لا أَرى
أَحَداً يَحْمِلُ ٱسْمي وَيَرْكُضُ خَلْفي: خُذِ ٱسْمَكَ عَنّي

وَٱعْطِني فِضَّةَ ٱلْحَوْرِ. لا أَتلَفَّتُ خَلْفي لِئَلاّ
أَتَذَكَّرَ أَنّي مَرَرْتُ على ٱلأَرْضِ، لا أَرْضَ في
هذهِ الأَرْضِ مُنْذُ تَكَسَّرَ حَوْلي ٱلزَّمانُ شَظايا شَظايا
لَمْ أَكُنْ عاشِقاً كَيْ أُصَدِّقَ أَنَّ ٱلْمِياهَ مَرايا،
مِثْلَما قُلْتُ لِلأَصْدِقاءِ ٱلْقُدامى، ولا حُبَّ يَشْفَعُ لي
مُذْ قَبِلَتُ «مُعاهَدَةَ التيه» لَمْ يَبْقَ لي حاضِرٌ
كَيْ أَمُرَّ غداً قُرْبَ أَمْسي. سَتَرْفَعُ قَشْتالَةُ
تاجَها فَوْقَ مِئْذَنَةِ ٱللَّهِ. أَسْمَعُ خَشْخَشَةً لِلْمَفاتيحِ في
بابِ تاريخنا ٱلذَّهبيِّ، وَداعاً لِتاريخنا، هَلْ أَنا
مَنْ سَيُغْلِقُ باب السَّماءِ الأَخيرَ؟ أَنا زَفْرَةُ ٱلْعَرَبِيِّ الأَخيرَةْ

V

ذاتَ يومٍ، سأجلِسُ فَوْق آلرَّصيف

ذاتَ يَوْم سأَجْلِسُ فَوْقَ آلرَّصيفِ... رَصيفِ الْغَريبَة
لَمْ أَكُنْ نَرْجِساً بَيْدَ أَنّي أُدافِعُ عَنْ صُورَتي
في آلْمَرايا. أَما كُنْتَ يَوْماً، هُنا، يا غَريبْ؟
خَمْسُمائَةِ عامٍ مضت وَآنْقَضت، وَآلْقَطيعَةُ لَمْ تَكْتَمِلْ
بَيْنَنا، ههُنا، وآلرَّسائِلُ لَمْ تَنْقَطِعْ بَيْنَنا، وَآلْحُروبْ
لَمْ تُغَيِّرْ حَدائِقَ غَرْناطَتي. ذاتَ يَوْمٍ أَمُرُّ بِأَقْمارِها
وَأَحُكُّ بِلَيْمونَةٍ رَغْبَتي... عانِقيني لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ رَوائِحِ شَمْسٍ وَنَهْرٍ على كَتِفَيْكِ، وَمِنْ قَدَمَيْنْ
تَخْمُشانِ آلْمَساءَ فَيَبْكي حَليباً لِلَيْلِ آلْقَصيدَةْ...

لَمْ أَكُنْ عابِراً في كَلامِ ٱلمُغَنِّينَ... كُنْتُ كَلامَ
ٱلمُغَنِّين، صُلْحَ أَثينا وَفارِسَ، شَرْقاً يُعانِقُ غَرْباً
في ٱلرَّحيلِ إلى جَوْهَرٍ واحِدٍ. عانِقيني لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ سُيوفٍ دِمَشْقِيَّةٍ في الدَّكاكينِ. لَمْ يَبْقَ مِنّي
غَيْرُ دِرْعي الْقَديمَةِ، سَرْجِ حِصاني ٱلْمُذَهَّبِ. لَمْ يَبْقِ مِنّي
غَيْرُ مَخطوطَةٍ لِابْنِ رُشْدٍ، وَطَوْقِ ٱلْحَمامَةِ، وٱلتَّرْجَمات...
كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَ ٱلرَّصيفِ على ساحَةِ ٱلأُقْحُوانَة
وأَعُدُّ ٱلْحَماماتِ: واحِدَةً، اثْنَتَيْن، ثَلاثينَ... وَٱلْفَتَياتِ ٱللَّواتي
يتخاطَفْنَ ظِلَّ ٱلشُّجَيْراتِ فَوْقَ ٱلرُّخامِ، وَيَتْرُكْنَ لي
وَرَقَ ٱلْعُمْرِ، أَصْفَرَ. مَرَّ ٱلخريفُ عليَّ وَلَمْ أَنْتَبِهْ
مَرَّ كُلُّ ٱلْخَريفِ، وَتاريخُنا مَرَّ فَوْقَ الرَّصيفِ...

وَلَمْ أَنْتَبِهْ!

VI
لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ
وَالثَّلْجُ أَسْوَد

لِلْحقيقَةِ وَجْهانِ، وَالثَّلْجُ أَسْوَدُ فَوْقَ مَدينَتِنا
لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على ٱلْيَأْسِ أَكْثَرَ مِمّا يَئِسْنا،
وَٱلنِّهايَةُ تَمْشي إلى ٱلسّورِ واثِقَةً مِنْ خُطاها
فَوْقَ هذا ٱلْبَلاطِ ٱلْمُبَلَّلِ بِٱلدَّمْعِ، واثِقَةً مِنْ خُطاها
مَنْ سَيُنْزِلُ أَعْلامَنا: نَحْنُ، أَمْ هُمْ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَتْلو عَلَيْنا «مُعاهَدَةَ اليأس»، يا مَلِكَ ٱلاحْتِضار؟
كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا سَلَفاً، مَنْ سَيَنْزِعُ أَسْماءَنا
عَنْ هُوِيَّتِنا: أَنْتَ أَمْ هُمْ؟ وَمَنْ سَوْفَ يَزْرَعُ فينا
خُطْبَةَ ٱلتِّيهِ: «لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَفُكَّ ٱلْحِصار

فَلْنُسَلِّمْ مَفاتيحَ فِرْدَوْسِنا لرسول آلسَّلامِ، وَنَنْجو...»
لِلْحقيقَةِ وَجْهانِ، كانَ الشِّعارُ آلْمُقَدَّسُ سَيْفاً لَنا
وَعَلَيْنا، فَماذا فَعَلْتَ بِقَلْعَتِنا قَبْلَ هذا آلنَّهار؟
لَمْ تُقاتِلْ لأَنَّكَ تَخْشى آلشَّهادَةَ، لكِنَّ عَرْشَكَ نَعْشُكْ
فآحْمِلِ آلنَّعْشَ كَيْ تَحْفَظَ آلْعَرْشَ، يا مَلِكَ الانْتِظار
إِنَّ هذا الرحيلَ سَيَتْرُكُنا حُفْنَةً مِنْ غُبار...
مَنْ سَيَدْفِنُ أَيّامَنا بَعْدَنا: أَنْتَ... أَمْ هُمْ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَرْفَعُ راياتِهِمْ فَوْقَ أَسْوارِنا: أَنْتَ... أَمْ
فارِسٌ يائِسٌ؟ مَنْ يُعَلِّقُ أَجْراسَهُمْ فَوْقَ رِحْلَتِنا
أَنْتَ... أَمْ حارِسٌ بائِسٌ؟ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لَنا
فَلِماذا تُطيلُ النهايةَ، يا مَلِكَ الاحْتِضارْ؟

VII

مَنْ أنا...
بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَة

مَن أنا بعدَ ليلِ الغريبةِ؟ أَنهضُ مِنْ حُلُمي
خائِفاً مِنْ غُموضِ ٱلنَّهارِ على مَرْمَرِ ٱلدّارِ، مِنْ
عَتْمةِ ٱلشَّمْسِ في ٱلْوَرْدِ، مِنْ ماءِ نافورتي
خائِفاً مِنْ حَليبٍ على شَفَةِ ٱلتّينِ، مِنْ لُغَتي
خائِفاً، مِنْ هَواءٍ يُمَشِّطُ صَفْصافَةً خائِفاً، خائِفا
مِنْ وُضوحِ ٱلزَّمانِ ٱلْكَثيفِ، وَمِنْ حاضِرٍ لَمْ يَعُدْ
حاضِراً، خائِفاً مِنْ مُروري على عالَمٍ لَمْ يَعُدْ
عالَمي. أَيُّها ٱلْيَأْسُ كُنْ رَحْمَةً. أَيُّها ٱلْمَوْتُ كُنْ
نِعْمَةً لِلْغَريبِ ٱلَّذي يُبْصِرُ ٱلْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ

واقِع لَمْ يَعُدْ واقِعاً. سَوْفَ أَسْقُطُ مِنْ نَجْمَةٍ
فِي ٱلسَّماءِ إِلى خَيْمةٍ فِي ٱلطَّريقِ إِلى... أَيْنَ؟
أَيْنَ ٱلطَّريقُ إِلى أَيِّ شَيْءٍ؟ أَرى ٱلْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
شارع لَمْ يَعُدْ شارِعي. مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَةْ؟
كُنْتُ أَمْشي إِلى ٱلذّاتِ في ٱلآخَرينَ، وها أَنَذا
أَخْسَرُ ٱلذّاتَ وَٱلآخَرينَ. حِصاني على ساحِلِ ٱلأَطْلَسيِّ ٱخْتَفى
وَحِصاني على ساحِلِ ٱلْمُتَوَسِّطِ يُغْمِدُ رُمْحَ ٱلصَّليبِيِّ فيّ.
مَنْ أَنا بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَةِ؟ لا أَسْتَطيعُ ٱلرُّجوعَ إِلى
إِخْوَتي قُرْبَ نَخْلَةِ بَيْتي ٱلقَديم، ولا أَسْتَطيعُ ٱلنُّزولَ إلى
قاعِ هاوِيَتي. أَيُّها ٱلْغَيْبُ! لا قَلْبَ لِلْحُبِّ... لا
قَلْبَ لِلْحُبِّ أَسْكُنُهُ بَعْدَ لَيْلِ ٱلْغَريبَة...

VIII
كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً
أَيُّها آلْماء

كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها آلْماءُ؛ قَدْ وَصَلَ آلْفاتِحون
وَمَضى آلْفاتِحونَ آلْقُدامى. مِنَ آلصَّعْبِ أَنْ أَتَذَكَّرَ وَجْهي
في آلْمَرايا. فَكُنْ أَنْتَ ذاكِرَتي كَيْ أَرى ما فَقَدْت...
مَنْ أَنا بَعْدَ هذا آلرَّحيلِ آلْجَماعِيِّ؟ لي صَخْرَةٌ
تَحْمِلُ آسْمِيَ فَوْقَ هِضابٍ تُطِلُّ على ما مَضى
وَآنْقَضى... سَبْعُمائَةِ عامٍ تُشَيِّعُني خَلْفَ سُورِ آلْمَدينَة...
عَبَثاً يَسْتَديرُ آلزَّمانُ لأُنْقِذَ ماضِيَّ مِنْ بُرْهَةٍ
تَلِدُ آلآنَ تاريخَ مَنْفايَ فِيَّ... وَفي آلآخَرين...
كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها آلْماءُ، قَدْ وَصَلَ آلْفاتِحون

وَمَضى ٱلْفاتِحونَ ٱلْقُدامى جَنوباً شُعوباً تُرَمِّمُ أَيّامَها
في رُكامِ ٱلتَّحَوُّلِ: أَعْرِفُ مَنْ كُنْتُ أَمْسِ، فَماذا أَكُونْ
في غَدٍ تَحْتَ راياتِ كولومبوسَ ٱلأَطْلَسِيَّةِ؟ كُنْ وَتَراً
كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها ٱلْماءُ. لا مِصْرَ في مِصْرَ، لا فاسَ في
فاسَ، وَالشّامُ تَنْأَى. ولا صَقْرَ في
رايَةِ ٱلأَهْلِ، لا نَهْرَ شَرْقَ ٱلنَّخيلِ ٱلْمحاصَرْ
بِخُيولِ ٱلْمَغولِ ٱلسَّريعَة. في أَيِّ أَنْدَلُسٍ أَنْتَهي؟ ههُنا
أَمْ هُناكَ؟ سأَعْرِف أَنّي هَلَكْتُ وأَنّي تَرَكْتُ هُنا
خَيْرَ ما فِيَّ: ماضِيَّ. لَمْ يَبْقَ لي غَيْرُ جيتارَتي
كُنْ لِجيتارَتي وَتَراً أَيُّها ٱلْمَاءُ. قَدْ ذَهَبَ ٱلْفاتِحون
وَأَتى ٱلْفاتِحون...

IX

في الرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ
أُحِبُّكِ أَكْثَر...

في ٱلرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ أُحِبُّكِ أَكْثَرَ، عَمّا قَليلْ
تُقْفِلينَ ٱلْمَدينَةَ. لا قَلْبَ لي في يَدَيْكِ، ولا
دَرْبَ يَحْمِلُني، في ٱلرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ أُحِبُّكِ أَكْثَرْ
لا حَليبَ لِرُمّانِ شُرْفَتِنا بَعْدَ صَدْرِكِ. خَفَّ ٱلنَّخيلْ
خَفَّ وَزْنُ ٱلتِّلالِ، وَخَفَّتْ شَوارِعُنا في ٱلأَصيلْ
خَفَّتِ الأَرْضُ إِذْ وَدَّعَتْ أَرْضَها. خَفَّتِ ٱلْكَلِمات
وَالْحِكاياتُ خفَّتْ على دَرَجِ ٱللَّيْلِ. لكِنَّ قَلْبي ثَقيلْ
فَٱتْرُكيهِ هُنا حَوْلَ بَيْتِكِ يَعْوي وَيَبْكي ٱلزَّمانَ ٱلْجَميلْ،
لَيْسَ لي وَطَنٌ غَيْرُهُ، في ٱلرَّحيلِ أُحِبُّكِ أَكْثَرْ

أُفْرِغُ ٱلرّوحَ مِنْ آخِرِ ٱلْكلِماتِ: أُحِبُّكِ أَكْثَر
في ٱلرَّحيلِ تَقودُ ٱلْفراشاتُ أَرْواحَنا، في ٱلرَّحيلْ
نَتَذَكَّرُ زِرَّ ٱلْقَميصِ ٱلَّذي ضاعَ مِنّا، وَنَنْسى
تاجَ أَيّامِنا، نَتَذَكَّرُ رائِحَةَ الْعَرَقِ الْمِشْمِشِيِّ، وَنَنْسى
رَقْصَةَ ٱلْخَيْلِ في لَيْلِ أَعْراسِنا، في ٱلرَّحيلْ
نَتَساوى مَعَ ٱلطَّيْرِ، نَرْحَمُ أَيّامَنا، نَكْتَفي بِٱلْقَليلْ
أَكْتَفي مِنْكِ بِالْخَنْجَرِ ٱلذَّهَبِيِّ يُرَقِّص قَلْبي ٱلْقَتيلْ
فَٱقْتُليني، على مَهَلٍ، كَيْ أَقولَ: أُحِبُّكِ أَكْثَرَ مِمّا
قُلْتُ قَبْلَ الرَّحيلِ ٱلْكَبيرِ. أُحِبُّكِ. لا شَيْءَ يوجِعني
لا ٱلْهَواءُ، ولا ٱلْماءُ... لا حَبَقٌ فِي صَباحِكِ، لا
زَنْبَقٌ في مَسائِك يوجِعُني بَعْدَ هذا ٱلرَّحيلْ...

X

لا أُريدُ مِنَ الْـحُبِّ
غَيْرَ ٱلْبِدايَة

لا أُريدُ مِنَ ٱلْحُبِّ غَيْرَ ٱلْبِدايَةِ، يَرْفو ٱلْحَمامُ
فَوْقَ ساحاتِ غَرْناطَتي ثَوْبَ هذا ٱلنَّهار
في ٱلْجِرارِ كَثيرٌ مِنَ ٱلْخَمْرِ لِلْعيدِ مِنْ بَعْدِنا
في الأَغاني نَوافِذُ تَكْفي لِيَنْفَجِرَ الْجُلَّنار

أَتْرُكُ ٱلْفُلَّ في الْمَزهَرِيَّةِ، أَتْرُكُ قَلْبي ٱلصَّغير
في خِزانَةِ أُمِّيَ، أَتْرُكُ حُلْمِيَ في ٱلْماءِ يَضْحَك
أَتْرُكُ ٱلْفَجرَ في عَسَلِ ٱلتّينِ، أَتْرُكُ يَوْمي وأَمْسي
في ٱلْمَمَرِّ إلى ساحَةِ ٱلْبُرْتُقالَةِ حَيْثُ يَطيرُ ٱلْحَمامُ

هَلْ أَنا مَنْ نَزَلْتُ إلى قَدَمَيْكِ، لِيَعْلُوَ ٱلْكَلامُ
قَمَراً في حَليبِ لَياليكِ أَبْيَضَ... دُقّي ٱلْهَواء
كيْ أَرى شارعَ النّايِ أَزْرَقَ ... دُقّي ٱلْمَساء
كَيْ أَرى كَيْفَ يَمْرَضُ بَيْني وَبَيْنَكِ هذا ٱلرُّخامُ.

الشَّبابيكُ خالِيَةٌ مِنْ بَساتينِ شالِكِ. في زَمَنٍ
آخَرٍ كُنْتُ أَعْرِفُ عَنْكِ ٱلْكَثيرَ، وَأَقْطُفُ غاردينيا
مِنْ أَصابِعِكِ ٱلْعَشْرِ. في زَمَنٍ آخَرٍ كانَ لي لُؤْلُؤٌ
حَوْلَ جيدِكِ، وَٱسْمٌ على خاتَمٍ شَعَّ مِنْهُ ٱلظَّلامُ

لا أُريدُ مِنَ ٱلْحُبِّ غَيْرَ ٱلْبِدايَةِ، طارَ ٱلْحَمامُ
فَوْقَ سَقْفِ ٱلسَّماءِ ٱلأَخيرَةِ، طارَ ٱلْحَمامُ وَطار
سَوْفَ يَبْقى كثيرٌ مِنَ الخَمْرِ، من بَعْدِنا، في ٱلْجِرار
وَقَليلٌ مِنْ الأَرْضِ يَكْفي لِكَيْ نَلْتَقي، وَيَحُلَّ ٱلسَّلامُ.

XI
الكَمَنجات

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى ٱلأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على ٱلْعَرَبِ ٱلْخارِجينَ مِنَ ٱلأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبكي على زَمَنٍ ضائعٍ لا يَعودْ
الكَمَنجاتُ تَبكي على وَطَنٍ ضائعٍ قَدْ يَعودْ

الكَمَنجاتُ تُحْرِقُ غاباتِ ذاكَ الظَّلامِ ٱلْبعيدِ ٱلْبَعيدْ
الكَمَنجاتُ تُدمي ٱلْمُدى، وَتَشُمُّ دَمي في ٱلْوريدْ.

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى ٱلأَنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على ٱلْعَرَبِ ٱلْخارِجينَ مِنَ ٱلأَنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ خَيْلٌ على وَتَرٍ مِنْ سَرابٍ، وَماءٍ يَئِنُّ
الكَمَنجاتُ حَقْلٌ مِنَ اللَّيْلَكِ ٱلْمُتَوَحِّش يَنْأى وَيَدْنو

الكَمَنجاتُ وَحْشٌ يُعَذِّبُهُ أظفر آمْرأةٍ مَسَّهُ، وَٱبْتَعَدْ
الكَمَنجاتُ جَيْشٌ يُعَمِّرُ مَقْبَرَةً مَنْ رُخامٍ وَمِنْ نَهَوَنْدْ

الكَمَنجاتُ فَوْضى قُلوبٍ تُجَنِّنُها آلرِّيحُ في قَدَمِ الرَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ أسْرابُ طَيْرٍ تَفِرُّ مِنَ الرَّايَةِ النَّاقِصَةْ

الكَمَنجاتُ شَكْوى آلْحَريرِ آلمُجَعَّدِ في لَيْلَةِ آلعاشِقَةْ
الكَمَنجاتُ صَوْتُ آلنَّبيذِ آلْبَعيدِ على رَغْبَةٍ سابِقَةْ

الكَمَنجاتُ تَتْبَعُني، ههُنا وَهناكَ، لِتَثْأَرَ مِنِّي
الكَمَنجاتُ تَبْحَثُ عَنِّي لِتَقْتُلَني، أَيْنَما وَجَدَتْني

الكَمَنجاتُ تَبْكي على آلْعَرَبِ آلْخارِجينَ مِنَ الأَندلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ آلْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلى آلأَنْدَلُسْ

خطبة «الهندي الأحمر»

ـ ما قبل الأخيرة ـ

أمام الرجل الأبيض

«هَلْ قُلْتُ مَوْتي؟
لا مَوْت هناك
هناك فقط تبديلُ عوالم»

سياتل
زعيم دواميش

١ -

إذاً، نَحْنُ مَنْ نَحْنُ في آلمسيسِبّي. لَنا ما تَبَقَّى لَنا مِنَ الأَمْسِ/
لكِنَّ لَوْنَ آلسَّماءِ تَغَيَّرَ، وَآلْبَحرَ شَرْقاً
تَغَيَّرَ، يا سَيِّدَ آلْبِيضِ! يا سَيِّدَ آلخَيْلِ، ماذا تُريدُ
مِنَ آلذّاهِبينَ إلى شَجَرِ آللَّيْلِ؟/
عالِيَةٌ روحُنا، وَآلْمَراعي مُقَدَّسَةٌ، وَآلنّجومْ
كَلامٌ يُضيءُ... إذا أَنْتَ حَدَّقْتَ فيها قَرَأْتَ حِكايَتَنا كُلَّها:
وُلِدْنا هُنا بَيْنَ ماءٍ وَنارٍ... وَنولَدُ ثانِيةً في آلْغُيومْ
على حافَّةِ آلسّاحِلِ اللاّزَوَرْدِيِّ بَعْدَ آلْقِيامَةِ... عَمّا قَليلْ
فلا تَقْتُلِ آلْعُشْبَ أَكْثَرَ، لِلْعُشْبِ روحٌ يُدافِعُ فينا
عَنِ آلرّوحِ في الأَرْضِ/
يا سَيِّدَ آلخَيْلِ! عَلِّمْ حِصانَكَ أَنْ يَعْتَذِرْ

لِروحِ ٱلطَّبيعَةِ عَمَّا صَنَعْتَ بِأَشْجارِنا:
آهِ! يا أُخْتيَ ٱلشَّجَرةْ
لَقَدْ عَذَّبوكِ كَما عَذَّبُوني
فلا تَطْلُبي ٱلْمَغْفِرَةْ
لِحَطّابِ أُمِّي وَأُمِّكْ .../

٢ -

... لَنْ يَفْهَمَ ٱلسَّيِّدُ الأَبْيَضُ ٱلْكَلِماتِ ٱلْعَتيقَةْ
هُنا، في ٱلنُّفوسِ ٱلطَّليقَةِ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَبَيْنَ ٱلشَّجَر...
فَمِنْ حَقِّ كولومبوسَ ٱلْحُرِّ أَنْ يَجِدَ ٱلهِنْدَ في أَيِّ بَحْر،
وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يُسَمِّيَ أَشْباحَنا فُلْفُلاً أَوْ هُنودا،
وَفي وُسْعِهِ أَنْ يُكَسِّرَ بَوْصَلَةَ ٱلْبَحْرِ كَيْ تَسْتَقيمَ
وَأَخطاءَ ريحِ الشَّمالِ، وَلكِنَّهُ لا يُصَدِّقُ أَنَّ ٱلْبَشَر
سَواسِيَّةٌ كالْهَواءِ وَكالمَاءِ خارِجَ مَمْلَكَةِ ٱلْخارِطَة!
وَأَنَّهُمُ يولَدونَ كَما تولَدُ الناسُ في بَرْشَلونَة، لكِنَّهمْ يَعْبُدون
إِلٰهَ ٱلطَّبيعَةِ في كُلِّ شَيْءٍ... وَلا يَعْبُدونَ ٱلذَّهَبْ...
وَكولومبوسُ ٱلْحُرُّ يَبْحَثُ عَنْ لُغَةٍ لَمْ يَجِدْها هُنا،
وعَنْ ذَهَبٍ في جَماجِمِ أجْدادِنا الطَّيِّبينَ وكان لَهُ

مَا يُرِيدُ مِنَ ٱلْحَيِّ وَٱلْمَيْتِ فِينا. إذاً

لِماذا يُواصِلُ حَرْبَ الإِبادَةِ، مِنْ قَبْرِهِ، لِلنِّهايَة؟
وَلَمْ يَبْقَ مِنَّا سِوى زِينَةٍ لِلْخَرابِ، وَرِيشٍ خَفيفٍ على

ثِيابِ ٱلْبُحيْراتِ. سَبْعونَ مَلْيونَ قَلْبٍ فَقَأْتَ... سَيَكْفي
وَيَكْفي، لِتَرْجِعَ مِنْ مَوْتِنا مَلِكاً فَوْق عَرْشِ ٱلزَمانِ ٱلْجَديد...

أَما آنَ أَنْ نَلْتَقِيَ، يا غَريبُ، غَرِيبَيْنِ في زَمَنٍ واحِدٍ؟
وَفي بَلَدٍ واحِدٍ، مَثْلَما يَلْتَقي ٱلْغُرَباءُ على هاوِيَة؟

لَنا ما لَنا... وَلَنا ما لَكُمْ مِنْ سَماء
لَكُمْ ما لَكُمْ... وَلَكُمْ ما لَنا مِنْ هَواءٍ وَماء

لَنا ما لَنا مِنْ حَصىً... وَلَكُمْ ما لَكُمْ مِنْ حَديد
تَعالَ لِنَقْتَسِمَ ٱلضَّوْءَ في قُوَّةِ ٱلظِّلِّ، خُذْ ما تُريد

مِنَ ٱللَّيْلِ، وَٱتْرُكْ لَنا نَجْمَتَيْنِ لِنَدْفِنَ أَمْواتنا في ٱلْفَلَكْ
وَخُذْ ما تُريدُ مِنَ ٱلْبَحرِ، وَٱتْرُكْ لَنا مَوْجَتَيْنِ لِصَيْدِ ٱلسَّمَكْ

وَخُذْ ذَهَبَ الأَرضِ والشَّمْسِ، وٱتْرُكْ لَنا أَرْضَ أَسْمائِنا
وَعُدْ، يا غَريبُ، إلى الأَهلِ... وٱبْحَثْ عَنِ ٱلْهِنْد/

٣ -

... أَسْماؤُنا شَجَرٌ مِنْ كَلامِ الإلٰهِ، وَطَيْرٌ تُحَلِّقُ أَعْلى
مِنَ ٱلْبُنْدُقيَّةِ. لا تَقْطَعوا شَجَرَ الإِسْمِ يا أَيُّها ٱلْقادِمون
مِنَ ٱلْبَحْرِ حَرْباً، وَلا تَنْفُثوا خَيْلَكُمْ لَهَباً في ٱلسُّهول
لَكُمْ رَبُّكُمْ وَلنَا رَبُّنا، وَلَكُم دينُكُمْ وَلَنا دينُنا
فلا تَدْفِنوا ٱللَّهَ في كُتُبٍ وَعَدَتْكُمْ بأَرْضٍ على أَرْضِنا.
كَما تَدَّعونَ، وَلا تَجْعَلوا رَبَّكُمْ حاجِباً في بَلاطِ ٱلْمَلِكْ!
خُذوا وَرْدَ أَحْلامِنا كَيْ تَرَوْا ما نَرى مِنْ فَرَحْ!
وَناموا على ظِلِّ صَفْصافِنا كَي تَطيروا يَماماً يَماماً...
كَما طارَ أَسْلافُنا ٱلطيِّبونَ وَعادوا سَلاماً سَلاماً.
سَتَنْقُصُكُمْ، أَيُّها ٱلْبِيضُ، ذِكْرى الرَّحيلِ عَنِ ٱلأَبْيَضِ ٱلْمُتَوَسِّط،
وَتَنْقُصُكُمْ عُزْلَةُ ٱلأَبَدِيَّةِ في غابَةٍ لا تُطِلُّ على ٱلْهاوِيَةْ
وَتَنْقُصُكُمْ حِكْمَةُ الانْكِساراتِ، تَنْقُصُكُمْ نَكْسَةٌ في ٱلْحُروب
وَتَنْقُصُكُمْ صَخْرَةٌ لا تُطيعُ تَدَفُّقَ نَهْرِ ٱلزَّمانِ ٱلسَّريع
سَتَنْقُصُكُمْ ساعَةٌ لِلتَّأَمُّلِ في أَيِّ شَيْءٍ، لِتُنْضِجَ فيكُمْ
سَماءً ضَروريَّةً لِلتُّرابِ، سَتَنْقُصُكُمْ ساعَةٌ لِلتَّرَدُّدِ ما بَيْنَ دَرْبٍ
وَدَرْبٍ، سَيَنْقُصُكُمْ يوربيدوسُ يَوْماً، وَأَشْعارُ كَنْعانَ وَٱلبابِلِيِّينَ،
تَنقُصُكُمْ

أَغاني سُلَيْمانَ عَنْ شولَميتَ، سَيَنْقُصُكُم سَوْسَنٌ لِلْحَنين
سَتَنْقُصُكُمْ، أَيُّها ٱلبيضُ، ذِكرى تُروِّضُ خَيْلَ ٱلْجُنون
وَقَلْبٌ يَحُكُّ الصُّخورَ لِتَصْقُلَهُ في نِداءِ الكَمَنْجاتِ... يَنْقُصُكُمْ
وَتَنْقُصُكُمْ حَيْرَةٌ لِلْمُسَدَّسِ: إِنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ قَتْلِنا
فَلا تَقْتُلوا ٱلْكائِناتِ ٱلَّتي صادَقَتْنا، وَلا تَقْتُلوا أَمْسَنا
سَتَنْقُصُكُمْ هُدْنَةٌ مَعَ أَشْباحِنا في لَيالي ٱلشِّتاءِ ٱلْعَقيمَة
وَشَمْسٌ أَقَلُّ ٱشتعالاً، وبَدْرٌ أَقَلُّ ٱكتِمالاً، لِتَبْدُوَ ٱلْجَريمَة
أَقَلَّ ٱحْتِفالاً على شاشَةِ السِّينما، فَخُذوا وَقْتَكُمْ
لِكَي تَقْتُلوا ٱللَّه .../

٤ ـ

... نَعْرِفُ ماذا يُخَبِّي هذا ٱلْغُموضُ ٱلْبَليغُ لنا
سَماءٌ تَدلَّتْ على مِلْحِنا تُسْلِمُ ٱلرُّوحَ. صَفْصافَةٌ
تَسيرُ على قَدَمِ ٱلرِّيحِ، وَحْشٌ يُؤَسِّسُ مَملكَةً في
ثُقوبِ ٱلْفَضاءِ الجَريحِ... وَبَحْرٌ يُمَلِّحُ أَخْشابَ أَبْوابِنا،
وَلَم تَكُنِ ٱلأَرْضُ أَثْقَلَ قَبْلَ ٱلخليقةِ، لكنَّ شيئاً
كهذا عَرَفْناهُ قَبْلَ الزَّمانِ... سَتَرْوي ٱلرِّياحُ لنا
بِدَايَتَنا وٱلنِّهايَةَ، لكِنَّنا نَنْزِفُ ٱليَوْمَ حاضِرَنا

وَنَدْفِنُ أَيَّامَنا في رَمادِ الأَساطيرِ، لَيْسَتْ أثينا لنا،
وَنَعْرِف أَيَّامَكُمْ مِنْ دُخانِ آلْمَكانِ، وَلَيْسَتْ أَثينا لَكُمْ،
وَنَعْرِفُ ما هَيَّأَ آلْمَعْدِنُ ـ السَّيِّدُ آلْيَوْمَ مِنْ أَجْلِنا
ومِنْ أَجْلِ آلِهَةٍ لَمْ تُدَافِعْ عَنِ آلْمِلْحِ في خُبْزِنا
وَنَعْرِفُ أَنَّ آلْحَقيقَةَ أَقْوى مِنَ آلْحَقِّ، نَعْرِفُ أَنَّ آلزَّمانَ
تَغَيَّرَ، مُنْذُ تَغَيَّرَ نَوْعُ آلسِّلاح. فَمَنْ سَوْفَ يَرْفَعُ أَصْواتَنا
إِلى مَطَرٍ يابِسٍ في آلْغُيُومِ؟ وَمَنْ يَغْسِلُ آلضَّوْءَ مِنْ بَعْدِنا
وَمَنْ سَوْفَ يَسْكُنُ مَعْبَدَنا بَعْدَنا؟ مَنْ سَيَحْفَظُ عاداتِنا
مِنَ آلصَّخَبِ آلْمَعْدِنِيِّ؟ «نُبَشِّرُكُمْ بِالْحَضارَةِ» قالَ آلْغَريبُ،
وَقال:
أَنا سَيِّدُ آلْوَقْتِ، جِئْتُ لِكَيْ أَرِثَ الأَرْضَ مِنْكُمْ.
فَمُرُّوا أَمامي، لأُحْصِيَكُمْ جُثَّةً جُثَّةً فَوْقَ سَطْحِ آلْبُحَيْرَة
«أُبَشِّرُكُمْ بآلْحَضارَةِ» قالَ، لِتَحْيا الأَناجيلُ، قالَ، فَمُرُّوا
لِيَبْقى لِيَ الرَّبُّ وَحْدي، فإِنَّ هُنوداً يَموتونَ خَيْرٌ
لِسَيِّدِنا في آلْعُلى مِنْ هُنودٍ يَعيشونَ، وَالرَّبُّ أَبْيَض
وَأَبْيَضُ هذا آلنَّهارُ: لَكُمْ عالَمٌ وَلنا عالَم...
يَقولُ آلغَريبُ كَلاماً غَريباً، وَيَحْفِرُ في الأَرْضِ بِئْراً
لِيَدْفِنَ فيها آلسَّماءَ. يَقولُ آلْغَريبُ كَلاماً غَريباً
وَيَصْطادُ أَطْفالنا وَآلْفَراشَ. بِماذا وَعَدْتَ حَديقَتَنا يا غَريب؟

بِوَرْدٍ مِنَ الزِّنْكِ أَجْمَلَ مِنْ وَرْدِنا؟ فَلْيكُنْ ما تَشاء
وَلكِنْ، أَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلْغزالَةَ لا تَأْكُلُ ٱلْعُشْبَ إِنْ مَسَّهُ دَمُنا؟
أَتَعْلَمُ أَنَّ ٱلْجَواميسَ إِخْوتُنا والنَّباتاتِ إِخْوتُنا يا غَريب؟
فلا تَحْفِرِ الأَرْضَ أَكْثَرَ! لا تَجْرَحِ ٱلسُّلَحْفاةَ ٱلَّتي
تَنامُ على ظَهْرِها ٱلأَرْضُ، جَدَّتُنا ٱلأَرْضُ، أَشجارُنا شَعْرُها
وَزِينتُنا زَهْرُها. «هذِه الأَرْضُ لا مَوْتَ فيها»، فَلا
تُغَيِّرْ هَشاشَةَ تَكْوينِها! لا تُكَسِّرْ مَرايا بَساتينها
وَلا تُجْفِلِ الأَرْضَ، لا تُوجِعِ الأَرْضَ. أَنْهارُنا خَصْرُها
وَأَحْفادُها نَحْنُ، أنتُمْ ونحن، فلا تَقْتُلوها...
سَنَذهبُ، عَمَّا قليلٍ، خُذُوا دَمَنا وَٱترُكوها
كما هي،
أَجملَ ما كَتَبَ اللَّهُ فوقَ المياه،

لَهُ... ولنا

سَنَسْمَعُ أَصْواتَ أسلافِنا في الرِّياحِ، ونُصْغي
إِلى نَبْضِهِمْ في بَراعِم أشجارِنا. هذه الأَرْضُ جَدَّتُنا
مُقَدَّسةٌ كُلُّها، حَجَراً حَجَراً، هذه ٱلأَرْضُ كُوخٌ
لآلِهَةٍ سَكَنتْ مَعَنا، نَجمةً نجمةً، وأضاءت لَنا
لَيالي الصَّلاةِ... مَشَينا حُفاةً لِنَلْمُسَ رُوحَ ٱلحصى

وَسِرْنا عُراةً لِتُلْبِسَنا الرُّوحُ، روحُ الهواءِ، نِسَاء
يُعِدْنَ إلينا هِبات ٱلطَّبيعةِ ـ تاريخُنا كان تاريخَها. كانَ لِلْوَقْتِ
وَقْتٌ لِنولَدَ فيها وَنَرْجِعَ مِنْها إِلَيْها: نُعيدُ إِلى الأَرْضِ أَرْواحَها
رُوَيْداً رُوَيداً. وَنَحْفَظَ ذِكْرى أَحِبَّتِنا في ٱلْجِرار
مَعَ ٱلمِلْح وٱلزَّيْتِ، كُنَّا نُعَلِّقُ أَسْماءَهُمْ بُطُيورِ ٱلجداوِل
وَكُنَّا ٱلأَوائِلَ، لا سَقْفَ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وزُرْقَةِ أَبْوابِنا
وَلا خَيْلَ تَأْكُلُ أَعْشابَ غِزْلانِنا في ٱلْحُقولِ، وَلا غُرَباء
يَمُرُّونَ في لَيْلِ زَوجاتِنا، فَٱتْرُكوا النَّايَ للرّيحِ تَبْكي
على شَعْبِ هذا ٱلمكان الجريحِ... وَتَبْكي عليكم غَداً،
وتَبكي عليكم... غَدا!

٥ ـ

وَنحن نُوَدِّعُ نيرانَنا، لا نَرُدُّ التَّحِيَّةَ... لا تَكْتُبوا
علينا وَصايا الإِلٰهِ الجديدِ، إِلٰهِ ٱلحديدِ، ولا تطلُبوا
مُعاهَدةً للسَّلامِ من ٱلميِّتينَ، فلم يَبْقَ منهُمْ أَحَدْ
يُبَشِّرُكُمْ بالسَّلامِ مَعَ ٱلنَّفْسِ وٱلآخَرين، وكُنَّا هُنا
نُعمِّرُ أَكْثَرَ، لَوْلا بَنادِقُ إِنجلترا وَٱلنّبيذُ ٱلفرنْسِيُّ والانفلونزا،

وكُنّا نعيشُ كما يَنْبَغي أَنْ نَعيشَ بِرُفْقَةِ شَعْب آلْغَزال
وَنَحْفَظُ تاريخَنا آلشَّفَهِيَّ، وَكُنَّا نُبَشِّرُكُمْ بالبَراءَةِ وآلأُقْحُوان
لكُمْ رَبُّكم ولنا ربُّنا، ولكُم أَمْسُكُمْ ولنا أَمْسُنا، وآلزَّمان
هُوَ آلنَّهرُ حِينَ نُحدِّقُ في آلنَّهرِ يَغْرَوْرِقُ آلْوَقْتُ فينا...
أَلا تَحفظونَ قليلاً من الشِّعرِ كي تُوقِفوا آلْمَذْبَحةْ؟
أَلَمْ تولَدوا من نِساءٍ؟ أَلَمْ تَرْضَعوا مِثْلَنا
حَليبَ آلحنينِ إِلى أمَّهاتٍ؟ أَلَم تَرْتَدوا مِثْلَنا أَجْنِحَةْ
لِتَلْتَحِقوا بِالسُّنونو. وكُنَّا نُبَشِّرُكُمْ بالرَّبيعِ، فلا تَشْهَروا الأَسْلِحَةْ!
وفي وُسْعِنا أَن نَتَبادَلَ بَعْضَ آلْهَدايا وبَعْضَ الغِناء
هُنا كانَ شَعْبي. هنا ماتَ شَعْبي. هنا شَجَرُ الكستَناء
يُخَبِّىءُ أَرْواحَ شَعْبي. سَيَرْجِعُ شَعْبي هَواءً وَضَوْءاً وَماء،

خُذوا أَرْضَ أُمِّيَ بالسَّيْفَ، لكِنَّني لَنْ أُوَقِّعَ بِآسْمي
مُعاهَدَةَ الصُّلْحِ بَيْنَ آلْقَتيلِ وقاتِلِهِ، لَنْ أُوَقِّعَ بآسْمي
على بَيْعِ شِبرٍ مِنَ الشَّوْكِ حَوْلَ حُقولِ الذُّرة
وأَعْرِفُ أَنّي أُودِّعُ آخِرَ شمْسٍ، وأَلْتَفُّ بآسمي
وأَسْقُطُ في النَّهرِ، أَعْرِفُ أنّي أَعودُ إلى قَلْبِ أُمِّي
لِتَدْخُلَ، يا سَيِّدَ آلبيضِ، عَصْرَكَ... فَآرْفعْ على جُثَّتي

تَماثيلَ حُرِّيَّةٍ لا تَرُدُّ التَّحِيَّةَ، وٱحفِرْ صَليبَ ٱلحديد
على ظِلِّيَ ٱلحَجَريِّ، سَأَصْعَدُ عَمَّا قليلٍ أَعالي النَّشيد،
نَشيدِ ٱنْتِحارِ ٱلجَماعاتِ حِينَ تُشيِّعُ تاريخَها لِلْبَعيد،
وَأُطلِقُ فِيها عَصافيرَ أَصواتِنا: ههُنا ٱنْتَصَرَ ٱلْغُرَباء
على ٱلمِلحِ، وَٱخْتَلَطَ ٱلبَحْرُ في ٱلْغَيْمِ، وَٱنْتَصَرَ ٱلْغُرَباء
على قِشْرَةِ ٱلْقَمْحِ فينا، وَمَدُّوا الأَنابيبَ لِلْبَرْقِ وٱلْكَهْرَباء
هُنا ٱنْتَحَرَ الصَّقْرُ غَمّاً، هُنا ٱنْتَصَرَ ٱلغُرَباء
عَلَيْنا. ولَم يَبْقَ شيءٌ لنا في الزَّمانِ الجديد
هُنا تَتَبَخَّرُ أَجْسادُنا، غَيْمةً غَيْمةً، في ٱلفضاء
هُنا تَتَلأْلأُ أَرْواحُنا، نَجْمةً نَجْمةً، في فضاءِ ٱلنَّشيد

ـ ٦ ـ

سَيَمْضي زَمانٌ طَويلٌ لِيُصْبحَ حاضِرُنا ماضياً مِثْلَنا
سَنَمْضي إِلى حَتْفِنا، أَوَّلاً، سنُدافِعُ عن شَجَرٍ نَرْتَديه
وَعَنْ جرَسِ ٱللَّيلِ، عَنْ قَمَرٍ، فَوْقَ أَكْواخِنا نَشْتَهيه
وَعَنْ طَيْشِ غِزْلانِنا سَنُدافِعُ، عن طِينِ فَخَّارِنا سَنُدافِعُ
وَعَن ريشِنا في جَناحِ ٱلأَغاني الأَخيرةِ. عمَّا قَليل
تُقِيمونَ عَالَمكُمْ فَوْقَ عَالَمِنا: مِنْ مَقابِرِنا تَفْتَحونَ ٱلطَّريق

إلى ٱلْقَمَرِ الاصطِناعيِّ. هذا زَمانُ الصِّناعات. هذا
زَمانُ ٱلـمَعادِنِ، مِنْ قِطْعَةِ ٱلفَحْمِ تَبْزُغُ شَمْبانيا الأَقْوِياءْ...

هُنالِكَ مَوْتى وَمُسْتَوطَناتٌ، وَمَوْتى وبولدوزراتٌ، وَمَوْتى
وَمُسْتَشْفَياتٌ، وَمَوْتى وَشَاشاتُ رادار تَرْصُدُ مَوْتى
يَموتونَ أَكْثَرَ مِنْ مَرّةٍ في ٱلحياةِ، وَتَرْصُدُ مَوْتى
يَعيشونَ بَعْدَ ٱلْـمَماتِ، وَمَوْتى يُرَبُّون وَحْشَ ٱلْحَضاراتِ مَوْتا،
وَمَوْتى يَموتونَ كَيْ يَحْمِلوا الأَرْضَ فَوْقَ الرُّفات...

إِلى أَيْنَ، يَا سَيِّد ٱلبيضِ، تأخُذُ شَعْبي، ... وَشَعْبَك؟
إلى أَيِّ هَاوِيَةٍ يَأْخُذُ ٱلأَرْضَ هذا الرّوبوتُ ٱلْـمُدَجَّجُ بِٱلطَّائِرات
وَحَامِلَةِ ٱلطَّائراتِ، إلى أَيِّ هاويةٍ رَحْبَةٍ تَصْعَدون؟
لَكُم ما تَشاؤونَ: رُوما ٱلجديدةُ، إِسْبَارْطةُ ٱلتكنولوجيا
و
أَيديولوجيا الجنون،
ونَحنُ، سَنَهْرُبُ مِنْ زَمَنٍ لَمْ نُهَيِّئْ لَهُ، بَعْدُ، هاجِسَنا
سَنَمْضي إِلى وَطَنِ الطَّيْرِ سِرْباً من ٱلْبَشَرِ السَّابِقين
نُطِلُّ على أَرضِنا مِنْ حَصى أَرْضِنا، مِنْ ثُقوبِ ٱلْغُيوم

نُطِلُّ على أَرْضِنا، مِنْ كَلامِ آلنُّجومِ نُطِلُّ على أرضِنا
مِنْ هَواءِ آلْبُحَيْراتِ، من زَغَبِ آلذُّرَةِ آلْهَشِّ، مِن
زَهْرَةِ آلقَبْرِ، من وَرَقِ آلحَوْرِ، مِن كُلِّ شيء
يُحاصِرُكم، أَيُّها البِيضُ، مَوْتى يَموتونَ، مَوْتى
يَعِيشونَ، مَوْتى يَعودونَ، مَوْتى يَبوحونَ بالسِّرِّ،
فَلْتُمْهِلوا الأَرْضَ حتى تَقولَ الحَقيقةَ، كلَّ الحَقيقة،
عَنكم
وعنّا ...
وعنّا
وعنكم!

– ٧ –

هُنالِك مَوْتى يَنامونَ في غُرَفٍ سَوْفَ تَبْنونَها
هنالِك مَوْتى يَزورونَ ماضيَهُمْ في المَكانِ ٱلَّذي تَهْدِمون
هنالِكَ مَوْتى يَمُرُّون فَوقَ الجسورِ ٱلَّتي سَوفَ تَبْنونَها
هنالِكَ مَوْتى يُضيئونَ لَيْلَ آلفَراشاتِ، مَوْتى
يَجيئونَ فَجْراً لكي يَشْرَبُوا شايَهُمْ مَعَكُم، هادِئين
كما تَرَكَتْهُم بَنادِقُكُم، فآتركوا يا ضُيوفَ المَكان

مَقاعِدَ خالِيَةً لِلْمُضيفينَ.. كي يَقْرَؤوا
عليكُمْ شُروطَ السَّلامِ مَعَ... الْمَيِّتين!

حجرُ كنعانيّ
في البحر الميّت

لا بابَ يَفْتَحُهُ أَمامي آلبَحرُ...
قُلتُ: قَصيدَتي
حَجَرٌ يَطيرُ إِلى أَبي حَجَلاً. أَتَعْلَمُ يا أَبي
ما حَلَّ بي؟ لا بابَ يُغْلِقُهُ عَلَيَّ آلْبَحْرُ، لا
مِرْآةَ أَكْسِرُها لَيَنْتَشِرَ الطَّريقُ حَصىً... أَمامي
أَو زَبَدْ...
هل مِنْ أَحَدْ
يَبْكي على أَحَدٍ لأَحْمِلَ نايَهُ
عَنْهُ، وَأُظْهِرَ ما تَبَطَّنَ مِنْ حُطامي؟
أَنَا مِن رُعاةِ آلْمِلحِ في آلأَغْوارِ. يَنْقُرُ طائرٌ
لُغَتي، ويَبْني عُشَّ زُرْقَتِهِ المُبَعْثَرَ في خِيامي...
هَلْ مِنْ بَلَدْ

يَنْسَلُّ مِنّي كَي أَراهُ، كما أُريدُ. وكَي يَراني
في ٱلشاطِئِ ٱلغَرْبِيِّ مِن نَفْسي على حَجَرِ ٱلأَبَدْ
هذا غِيابُكَ كُلُّهُ شَجَرٌ، يُطِلُّ عليكَ مَنكَ ومِنْ دُخاني

نامَتْ أَريحا تَحْتَ نَخْلَتِها ٱلقَديمَة، لَمْ أَجِدْ
أَحَداً يَهُزُّ سَريرَها: هَدَأَتْ قَوافِلُهُم فَنامي...

وَبَحَثْتُ لاِسْمي عن أَبٍ لاِسْمي، فَشَقَّتْني عَصاً
سِحْرِيَّةٌ، قَتْلايَ أَمْ رُؤْيايَ تَطْلُعُ مِن مَنامي؟

الأَنْبياءُ جَميعُهُمْ أَهْلي، ولكنَّ السَّماءَ بَعيدَةٌ
عَنْ أَرْضِها، وَأَنا بعيدٌ عَنْ كَلامي ...

لَا رِيحَ تَرْفَعُني إِلى أَعْلى مِن الماضي هُنا
لا «ريحَ تَرْفَعُ مَوْجَةً» عن مِلْحِ هذا البَحْرِ، لا
رَاياتِ للمَوْتى لكي يَسْتَسْلِموا فيها، ولا
أصْواتَ للأَحْياءِ كي يَتَبادَلوا خُطَبَ ٱلسَّلَامِ...

وَٱلْبَحْرُ يَحْمِلُ ظِلِّيَ ٱلفِضِّيَّ عِنْدَ ٱلْفَجْرِ، يُرْشِدُني إلى
كَلماتِيَ الأُولى لِثَدْيِ المَرْأَةِ الأُولى، ويَحْيا مَيِّتاً
فِي رَقْصَةِ الوَثَنيِّ حَولَ فَضائِهِ،

وَيموتُ حَيّاً في ثُنائيِّ القَصيدةِ وٱلْحُسامِ،
ما بَيْنَ مصرَ وبينَ آسيا والشَّمالِ... فَيا غَريب
أوقِفْ حِصانَكَ تَحْتَ نَخْلَتِنا! على طُرُق الشَّآمِ
يَتَبادَلُ ٱلغُرَباءُ في مَا بَيْنَهم خُوَذاً سَيَنْبُتُ فَوْقَها
حَبَقٌ يُوَزِّعُهُ على الدُّنْيا حَمَامٌ قد يَهُبُّ من البيوت
وَٱلبحرُ مَاتَ، من الرَّتابَةِ، في وَصايا لا تَموت
وأَنا أَنا، إِنْ كنتَ أنتَ هُناك أَنتَ، أَنا الغَريب
عن نَخْلَةِ الصَّحْراءِ مُنْذُ وُلِدْتُ في هذا الزِّحامِ
وأَنا أَنا، حَرْبٌ عليَّ وفيَّ حَرْبٌ... يا غريب
عَلِّقْ سِلاحَك فوقَ نَخْلَتِنا، لأَزْرَعَ حِنْطَتي
في حَقْلِ كَنْعانَ المُقَدَّسِ... خُذْ نَبيذاً من جِراري
خُذْ صَفْحَةً من سِفْرِ آلِهَتي... وقِسْطاً من طَعامي
وخُذِ ٱلغَزالَةَ من فِخاخِ غِنائِنا الرَّعَوِيِّ، خُذْ
صَلَواتِ كَنْعانِيَّةٍ في عِيدِ كَرْمَتِها، وخُذْ عاداتِنا
فِي الرِّيِّ. خُذْ مِنّا دُرُوسَ البَيْتِ. ضَعْ
حَجَراً من ٱلآجُرِّ، وٱرْفَعْ فَوقَهُ بُرْجَ ٱلْحَمامِ
لِتَكونَ مِنّا إن أرَدْتَ، وجارَ حِنْطَتِنا. وَخُذْ
مِنَّا نُجومَ الأَبْجَدِيَّةِ، يَا غَريب

وآكْتُبْ رِسالاتِ السَّماءِ مَعي إلى
خَوْفِ آلشُّعوبِ من آلطَّبيعَةِ والشُّعوب،
وآتْرُكْ أَريحا تَحْتَ نَخلَتِها، ولا تَسْرِقْ مَنامي
وَحَليبَ إمْرَأتي، وقُوتَ آلنَّمْلِ في جُرْحِ الرُّخام!
أَأَتَيْتَ... ثُمَّ قَتَلْتَ... ثُمَّ وَرِثْتَ، كَي
يَزْدادَ هذا آلبَحْرُ مِلْحا؟
وأَنا أَنا أَخْضَرُّ عاماً بعدَ عامٍ فَوْقَ جِذْعِ السِّنديان
هذا أَنا، وأَنا أَنا. وهنا مَكاني في مَكاني
وآلآنَ في الماضي أَراكَ، كَما أَتَيْتَ، ولا تَراني
وآلآنَ في الماضي أُضيءُ لِحاضِري
غَدَهُ... فيَنْأَى بي زَماني عَنْ مَكاني
حيناً، ويَنْأَى بي مَكاني عَنْ زَماني
وآلأَنْبِياءُ جَميعُهُمْ أَهْلي، ولكِنَّ السَّماءَ بَعيدَةٌ
عَنْ أَرْضِها، وأَنا بَعيدٌ عن كَلامي
والبَحْرُ يَنْزِلُ تَحْتَ سَطْحِ آلبَحْرِ كَيْ تَطْفُو عِظامي
شَجَراً. غِيابي كُلُّهُ شَجَرٌ. وبابي ظِلُّهُ
قَمَرٌ. وكَنْعانِيَّةٌ أُمّي. وهَذا آلبَحرُ جِسْرٌ ثابِتٌ
لِعُبورِ أَيّام آلقِيامَةِ. يا أَبي، كَمْ مَرَّةً

سَأَموتُ فَوْقَ فِراشِ اِمْرَأَةِ ٱلأَساطيرِ ٱلَّتي
تَخْتَارُهَا «آنَاتُ» لي، فَتَشُبُّ نارٌ في ٱلْغَمامِ
كَمْ مَرَّةً سَأَموتُ في نَعْناعِ أَحْواضي ٱلقَديمَةِ كُلَّما
فَرَكَتْهُ رِيحُ شَمالِكَ الْعالي رَسائِلَ من يمامِ؟
هَذَا غَيابي سَيِّدٌ يَتْلُو شَرائِعهُ على
أحْفادِ لُوطَ، ولا يَرى لِسَدومَ مَغْفِرَةً سِوَايْ
هذا غِيابي سَيِّدٌ يَتْلو شَرائِعَهُ ويَسْخَرُ من رُؤايْ
ما قِيمَةُ ٱلْمِرْآةِ لِلْمِرْآةِ؟ لي وَجْهٌ عَليكَ، وأَنتَ لا
تَصْحو مِنَ ٱلتَّاريخِ، لا تَمْحو بُخارَ ٱلْبَحْرِ عَنْكْ
وٱلْبَحْرُ، هذا ٱلْبَحْرُ، أَصْغَرُ من خُرافَتِهِ وأَصْغَرُ مِنْ يَدَيْكْ
هو بَرْزَخُ ٱلبَلُّورِ، أَوَّلُهُ كَآخِرِهِ، وَلَا مَعْنَى هنا
لِدخولِكَ ٱلعَبَثِيِّ في أُسْطورَةٍ تَرَكَتْ جُيوشاً للرُّكامِ
لِيَمُرَّ جَيْشٌ آخر يَرْوي رِوايَتَهُ وَيَحْفِرَ لاِسْمِهِ
جَبَلاً، ويَأْتي ثالِثٌ ويَخُطُّ سِيْرَةَ زَوْجَةٍ خانَتْ، ويَمْحو رابعٌ
أَسْماءَ مَنْ سَبَقوا. هُنَاكَ لِكُلِّ جَيْشٍ شاعِرٌ
وَمُؤرِّخٌ، ورَبابَةٌ لِلرَّاقِصاتِ السَّاحِراتِ مِنَ ٱلْبِدايَةِ والخِتامِ..

وسُدىً أُفَتِّشُ عَن غِيابي، فهو أَبْسَطُ من حَميرِ
ٱلأَنْبِياءِ تَمُرُّ فَوقَ ٱلسَّفْحِ حامِلَةً سَماءً للأَنامِ...

وٱلْبَحْرُ، هذا ٱلبَحْرُ، في مُتَناوَلِ الأَيْدي. سَأَمْشي فَوْقَهُ
وأَسُكُّ فِضَّتَهُ، وأَطْحَنُ مِلْحَهُ بِيَدَيَّ. هَذا ٱلبَحْرُ لا
يَحْتَلُّهُ أَحَدٌ أَتى كِسْرَى وَفِرْعَوْنُ وَقَيْصَرُ وٱلنَّجاشي
وٱلآخَرُونَ، لِيَكْتُبُوا أَسْماءَهم، بِيَدِي، على أَلْواحِهِ
فَكَتَبْتُ: لاِسْمي الأَرْضُ، وٱسْمُ الأَرْضِ آلِهَةٌ تُشارِكُني مُقامي
في ٱلمَقْعَدِ ٱلحَجَرِيِّ. لَمْ أَذْهَبْ ولَمْ أَرْجِعْ مَعَ الزَّمَنِ الهُلامي

وأَنا أَنا، ولو ٱنْكَسَرْتُ.. رَأَيْتُ أَيَامي أمامي
ذَهَباً على أَشْجارِيَ الأُولى، رَأَيْتُ رَبيعَ أُمّي، يا أبي
وَرَأَيْتُ رِيشَتَها تُطَرِّزُ طائِرَيْنِ: لِشالِها، وَلِشالِ أُختي
وفَراشَةً لَمْ تَحْتَرِقْ بِفَراشَةٍ مِنْ أَجْلِنا، وَرَأَيْتُ لاِسْمي
جَسَداً: أنا ذَكَرُ ٱلحَمامِ يَئِنُّ في أُنْثَى ٱلحَمامِ.
ورَأَيْتُ مَنْزِلَنا المُؤَثَّثَ بِالنَّباتِ، رَأَيْتُ باباً لِلدُّخول
ورَأَيْتُ باباً لِلْخُروجِ، رَأَيتُ باباً لِلْخُرُوجِ وَلِلدُّخولِ...
هَلْ مَرَّ نوحٌ مِنْ هُناكَ إِلى هُناكَ لِكَيْ يَقول
ما قال في الدُّنْيا: لَها بابانِ مُخْتَلِفانِ، لكنَّ ٱلحِصانَ يَطيرُ بي
وَيطيرُ بي أَعْلى وأَسْقُطُ مَوْجَةً جَرَحَتْ سُفوحاً، يا أبي

وأَنا أَنا ولوِ ٱنْكَسَرْتُ، رَأَيْتُ أَيَّامي أَمامي

ورَأَيْتُ بَيْنَ وَثائِقي قَمَراً يُطِلُّ على ظلامي
ورَأَيْتُ هاوِيَةً، رَأَيْتُ ٱلْحَرْبَ بَعْدَ ٱلْحَرْبِ، تِلْكَ قَبيلَةٌ
دالَتْ، وتِلْكَ قَبيلَةٌ قالَتْ لِهولاكو ٱلْمُعاصِرِ: هَيْتَ لَك
وأَقُولُ: لَسنا أُمَّةً أَمَةً، وأَبْعَثُ لاٰبْنِ خَلْدونَ ٱحْتِرامي

وأَنا أَنا، ولوِ ٱنْكَسَرْتُ على ٱلْهَواءِ المَعْدِنِيِّ... وأَسْلَمَتْني
حَرْبُ الصَّليبِيِّ ٱلْجَديدِ إلى إِلٰهِ ٱلانْتِقامِ
وإلى ٱلمَغوليِّ ٱلْمُرابِطِ خَلْفَ أَقْنِعَةِ ٱلإِمامِ
وإلى نِساءِ المِلْحِ في أُسْطورَةٍ نَخَرَتْ عِظامي...
وأَنا أَنا، إنْ كُنْتَ أَنتَ أبي، ولكنّي غَريبْ
عَنْ نَخْلَةِ ٱلصَّحْرَاءِ مُنْذُ وُلِدْتُ فِي هذا الزِّحامِ
وأَنا أنا، لا بابَ يَفْتَحُهُ أَمامي ٱلْبَحْرُ
قُلتُ: قَصيدَتي
حَجَرٌ يَطِيرُ إِلى أَبي حَجَلاً. أَتَعْلَمُ يا أَبي
ما حَلَّ بي؟ لَا بابَ يُغْلِقُهُ عَلَيَّ ٱلْبَحْرُ. لا
مِرْآةَ أَكْسِرُها لِتَنْتَشِرَ ٱلطَّريقُ رُؤىً ... أَمامي
والأَنْبِياءُ جَمِيعُهُمْ أَهْلي، ولكنَّ ٱلسَّماءَ بَعيدَةٌ
عن أَرْضِها، وأَنَا بَعيدٌ عَنْ كَلامي...

سنختار سوفوكليس

إذا كانَ هذا ٱلخريفُ ٱلْخَريفَ ٱلنِّهائيَّ، فَلنَعْتَذِرْ
عَنِ ٱلْمَدِّ وٱلْجَزْرِ في ٱلْبَحْرِ وٱلْذِّكرَياتِ... وَعَمَّا صَنَعْنا
بِإِخْوَتِنا قَبْلَ عَصْرِ ٱلنُّحاسِ: جَرَحْنا كَثيراً مِنَ ٱلكائِناتِ
بأسْلِحَةٍ صُنِعَتْ مِنْ هَياكِلِ إخْوتِنا، كَي نَكونَ
سُلاَلَتَهُمْ قُرْبَ ماءِ ٱلْيَنابيعِ، ولْنَعْتَذِرْ
لأَهْلِ ٱلْغَزالَةِ عَمَّا صَنَعْنا بِها قُرْبَ ماءِ ٱلْيَنابيعِ، حِينَ
تَدَفَّقَ خَيْطٌ مِنَ ٱلأُرْجُوانِ على الماءِ، لم نَنْتَبِهْ أَنَّه دَمُنا
يُؤرِّخُ سِيْرَتَنا في شَقائِقِ هذا ٱلْمَكان ٱلْجَميلْ

□

وإنْ كانَ هذا ٱلْخَريفُ ٱلْخَريفَ ٱلنِّهائِيَّ، فلْنَتَّحِدْ بالسُّحُبْ
لنُمْطِرَ مِنْ أَجْلِ هذا ٱلنَّباتِ ٱلْمُعَلَّقِ فَوَق أَناشيدِنا

لِنُمْطِرَ فَوْقَ جُذوعِ الأساطيرِ... وٱلأُمَّهاتِ ٱللَّواتي وَقَفْنَ
على أوَّلِ ٱلعُمْرِ كَي يَسْتَعِدْنَ حِكايَتَنا مِنْ رُواة
أَطالوا عليها فُصولَ الرَّحيل،
أما كَانَ في وُسْعِنا أَنْ نُعَدِّلَ فَصْلَ ٱلرَّحيلِ قَليلا
لِيَهْدَأَ فينا صُراخُ النَّخيل؟

□

وُلِدْنا هُناكَ على خَيْلِنا، وَٱحْتَرَقْنا بشَمْسِ أَرِيحا ٱلقَديمَة
رَفَعْنا سُقوفَ ٱلبُيوتِ لِيَرْتَدِيَ ٱلظِّلُّ أَجْسادَنا، وٱحْتَفَلْنا
بعيدِ ٱلكُرومِ وَعيدِ ٱلشَّعيرِ، وزَيَّنَتِ الأَرْضُ أَسْماءَنا
بِسَوْسَنِها وٱسْمِها. وصَقَلْنا حِجارتَنا كَي تَرِقَّ... تَرِقَّ
على مَهَلٍ في بُيوتٍ يُلَمِّعُها الضَّوْءُ وٱلبُرْتُقالُ، وَكُنَّا
نُعَلِّقُ أَيّامَنا في مَفاتيحَ مِنْ خَشَبِ ٱلسَّرْوِ. كُنَّا نَعيشُ
على مَهَلٍ، كانَ لِلْعُمْرِ طَعْمُ ٱلْفُروقِ الصَّغيرةِ بَيْنَ ٱلْفُصول

□

وإنْ كانَ هذا ٱلخَريفُ الخَريفَ ٱلنِّهائيَّ، فَلْنَبْتَعِدْ عَنْ
سَماءِ ٱلْمَنافي وَعَنْ شَجَرِ الآخَرينَ. كَبِرْنا قَليلاً
ولَم نَنْتَبِهْ للتَّجاعيدِ في نَبْرَةِ النَّايِ... طالَ ٱلطَّريق

ولم نَعْتَرِفْ أَنَّنا سائِرونَ على دَرْبِ قَيْصَرَ. لَمْ نَنْتَبِهْ لِلْقَصيدَة
وقد أَفْرَغَتْ أَهْلَها مِنْ عَواطِفِهِمْ كَيْ تُوَسِّعَ شُطْآنَها
وَتَنْصِبَ خَيْمَتَنا حَيْثُ أَلْقَتْ بِنا ٱلحَرْبُ بَيْنَ أَثينا وفارِسْ
وبَيْنَ ٱلْعِراقِ وَمِصْرَ. وَنَحْنُ نُحِبُّ ٱلْمَحاريثَ أَكْثَرَ مِمَّا
نُحِبُّ السُّيوفَ، نُحِبُّ هَواءَ ٱلْخَريْفِ، نُحِبُّ ٱلْمَطَرْ
نُحِبُّ الطَّبيعَةَ عاشِقَةً في تَقاليدِ آلِهَةٍ وُلِدَتْ بَيْنَنا
لِتَحْمِيَنَا مِنْ رِياحِ ٱلْجَفافِ وخَيْلِ ٱلْعَدُوِّ ٱلَّذي نَجْهَلُهْ،
ولكنَّ أبوابَنا بين مصرَ وبابلَ مفتوحةٌ للحروب
ومَفْتوحةٌ لِلرَّحيل.

□

... وإنْ كانَ هذا ٱلخَريفُ الخَريفَ ٱلنِّهائِيَّ، فَلْنَخْتَصِرْ
مَدائِحَنا لِلأَواني ٱلْقَديمَةِ، حَيْثُ حَفَرْنا عَلَيْها مَزاميرَنا
فَقَدْ حَفَرَ الآخَرونَ على ما حَفَرْنا مَزاميرَ أُخْرى
ولَمْ تَنْكَسِرْ بَعْدُ. تَصْعَدُ فَوْقَ الدُّروعِ ٱلقَديمَةِ خُبَّيْزَةٌ
لِتُخْفِيَ أَزْهارُها الحُمْرُ ما صَنَعَ ٱلسَّيْفُ بٱلإِسْمِ. آثارُنا
سَتَخْضَرُّ منها الظِّلالُ إذا ما ٱسْتَطَعْنا ٱلْوُصول
إلى أُمِّنا، في نِهايَةِ هذا ٱلْمَمَرِّ الطَّويل.

□

لَنا ما لَنا. كُلُّ شَيءٍ لَنا: مُفْرَداتُ آلْوَداع
تُعِدُّ لَنا طَقْسَ زينَتِها... كُلُّ مُفْرَدَةٍ إمْرَأةْ
على آلْبابِ تَحْرُسُ رَجْعَ الصَّدى. كلُّ مُفْرَدَةٍ شَجَرَةْ
تَدُقُّ مَعَ الرِّيحِ قُفْلَ الْمَدى. كُلُّ مُفْرَدَةٍ شُرْفَةٌ
تُطلُّ على بُقع الغيم في الساحة الخالية
تُطِلُّ على ظِلِّها فَوقَ ريشِ آلْهَديل...

□

لَنا ما لَنا. كُلُّ شيءٍ هُناكَ لَنا... أَمْسُنا
يُرَتِّبُ أحْلامَنا، صُورَةً صُورَةً، ويُهَذِّبُ أَيَّامَنا
وأيَّامَ إخْوَتِنا السَّابِقينَ، وأَيَّامَ أَعْدائِنا السَّابِقين،
وَنَحْنُ الَّذينَ آحْتَرَقْنا بشَمْسِ آلْبِلادِ آلْبَعيدةِ، نَحْنُ الَّذين
نَجيءُ إلى أوَّلِ الأَرْضِ كَيْ نَسْلُكَ الطُّرُقَ السَّابِقَة
وكَي نملِكَ الوردةَ السَّابقة
وكَي نَنْطِقَ اللُّغَةَ السَّابِقَة
سَنَخْتارُ «سوفوكلَ» قَبْلَ «آمْرِئ آلقَيْسِ»، مَهْما
تَغَيَّرَ تِينُ الرُّعاةِ، وَصلَّى لِقَيْصَرَ إخْوَتُنا السَّابِقون
وأَعْداؤُنا السَّابقونَ مَعاً في آحْتِفالِ الظَّلام...

ومَهْما تَغَيَّرَ دِينُ الرُّواةِ، فلا بُدَّ مِنْ شاعِرٍ
يُفَتِّشُ عَنْ طائِرٍ في الزِّحامِ ليَخْدِشَ وَجْهَ الرُّخام
ويفتَحَ فَوْقَ السُّفوحِ مَمَرَّاتِ آلِهَةٍ عَبَرَتْ مِنْ هُنا
لِتَنْشُرَ أَرْضَ السَّماءِ على الأَرْضِ. لا بُدَّ مِنْ ذَاكِرَة
لِنَنْسى ونَغْفِرَ حِيْنَ يَحُلُّ السَّلامُ النِّهائِيُّ مَا بَيْنَنا
وَبَيْنَ ٱلغزالَةِ والذِّئْبِ، لا بُدَّ مِنْ ذاكِرَة
لِنَخْتارَ «سوفوكلَ»، في آخِرِ الأَمْرِ، كَي يَكْسِرَ الدَّائِرَة
ولا بُدَّ مِنْ فَرَسٍ فَوْقَ ساحاتِ هذا الصَّهيل...

□

لَنا ٱلخَرِيفِ قَصيدَةُ حُبٌّ... قَصيدَةُ حُبٍّ قَصيرَة
تَدورُ بِنا الرِّيحُ، يا حُبُّ، نَسْقُطُ قُرْبَ ٱلْبُحَيْرَةِ أَسْرى
نُداوي ٱلْهَواءَ ٱلْمَريضَ، نَهُزُّ ٱلغُصونَ لِنَسْمَعَ نَبْضَ ٱلْهَواء
نُخَفِّفُ طَقْسَ ٱلْعِبادَةِ، نَتْرُكُ آلِهَةً للشُّعوبِ على الشَّاطِئَيْنْ
ونَحْمِلُ أَصْغَرَها مَعَ زادِ الطَّريقِ، وَنَحْمِلُ هذا الطَّريقَ... وَنَمْشِي
وَعِنْدَ ٱلْيَنابيعِ نَقْرَأُ آثارَنا: هَلْ مَرَرْنا هُنا؟
وهَلْ نَحْنُ أَصْحابُ هذا الزُّجاجِ المُلَوَّنِ... هَلْ نحنُ نحنُ؟
سَنَعْرِفُ ما صَنَعَ السَّيْفُ بالإِسمِ عمَّا قَليل

فَيا حُبُّ أَبْقِ لَنا ما لَنا... مِنْ هَواءِ ٱلْحُقول...

□

قَصيدَةُ حُبٍّ لنا في ٱلْخَريفِ، قَصيدَةُ حُبٍّ أَخيرَة
وَلم نَسْتَطِعْ أَنْ نُقَصِّرَ عُمْرَ الطَّريقِ، ولكنَّ أَعْمارَنا
تُطارِدُنا كَيْ نَحُثَّ خُطانا إلى أَولِ ٱلْحُبِّ، يا حُبُّ كُنّا
ثَعالِبَ ذاكَ السِّياجِ وَبابونَجِ السَّهلِ. كُنَّا نَرى ما نُحِسُّ،
وَكُنَّا نَدُقُّ على جَرَسِ ٱلْوَقْتِ بُنْدُقَنا. كانَ فينا طَرِيقٌ
وَحيدٌ إلى السَّاحَةِ ٱلْقَمَرِيَّةِ، وَاللَّيْلُ لا لَيْلَ فيهِ
سِوى ثَمَرِ التُّوتِ، كانَ لَنا قَمَرٌ واحِدٌ في ٱلْكَلام
وكُنَّا رُواةَ ٱلحِكايَةِ قَبْلَ وُصولِ ٱلغُزاةِ إلى غَدِنا...
فَيا لَيْتَنا شَجَرٌ في ٱلأَغاني لِنُصْبحَ باباً لِكُوخٍ، وسَقْفاً

لِبَيْتٍ، وَطاوِلَةً لِعَشاءِ ٱلْمُحِبِّينَ، أوْ مَقْعَداً
ويا حُبُّ، أَبْقِ عَلَيْنا قَليلاً لِنَغْزِلَ ثَوْبَ السَّرابِ ٱلْجَميل

□

يُسامِرُنا ظِلُّنا فِي ٱلْجَنوبِ، وتَعوي إِناثُ ٱلْوُحوش

على قَمرٍ أَحْمَرٍ فَوْقَنا. سَوْف نَلْمُسُ خُبْزَ الرُّعاة
ونَلْبِسُ كَتَّانَ أَثْوابِهِمْ كَيْ نُفاجِئَ أَنْفُسَنا...

تِلْك أَيَّامُنا

تَمُرُّ، قُبالَتَنا، في ٱنْتِظامٍ بَطيءٍ ٱلْخُطى...

تِلْكَ أَيَّامُنا

تَمُرُّ على عَرَباتِ ٱلْجُنودِ وَتَرْمِي تَحِيَّتها لِلسُّفوحِ ٱلْخَفيفَة
«سَلاماً على أَرْضِ كَنْعان، أَرْضِ ٱلْغَزالَةِ، وَٱلأُرْجُوان»
وأَيَّامُنا تِلْكَ ...
تَنْسَلُّ خَيْطاً وَخَيْطاً، ونَحْنُ الَّذين
نَسَجْنا عَباءَةَ أَيَّامِنا. لَمْ يَكُنْ للإِلَهَةِ دَوْرٌ
سِوى أَنَّها سامَرَتْنا، وَصَبَّت لَنا خَمْرَها...

تِلْكَ أَيَّامُنا

تُطِلُّ عَلَيْنا لِنَعْطَشَ أَكْثَرَ.. لَمْ نَتَعَرَّفْ على جُرْحِنا في
زِحامِ ٱلْجُروحِ ٱلْقَديمَةِ، لكِنَّ هذا ٱلْمكانَ ـ النَّزيف
يُسَمَّى بأَسْمائِنا. لَمْ نَكُنْ مُخْطِئينَ لأَنَّا وُلِدْنا هُنا
ولا مُخْطِئينَ... لأَنَّ غُزاةً كَثيرينَ هَبُّوا عَلَيْنا
هُنا، وأَحَبُّوا مَدائِحَنا لِلنَّبيذ، أَحَبُّوا أَساطيرَنا
وفِضَّةَ زَيْتونِنا. لَمْ نَكُنْ مُخْطِئينَ لأَنَّ ٱلْعَذارى

على أَرْضِ كَنْعانَ عَلَّقْنَ فَوْقَ رُؤوسِ ٱلْوعول
سَراويلَهُنَّ، لِيَنْضَجَ تينُ ٱلْبَراري ويَكْبَرَ خَوخُ السُّهول،

ولا مُخْطِئينَ.. لأَنَّ رُواةً كَثيرينَ جاؤوا إلى أَبْجَدِيَّتِنا
لِكَيْ يَصِفوا أَرْضَنا، مِثلَنا مِثْلَنا، تِلْكَ أَصْواتُنا
وأَصْواتُهُمْ نَتَقاطَعُ فَوْقَ التِّلالِ صَدىً وَاحِداً لِلصَّدى
وَيَخْتَلِطُ النَّايُ فِي النَّايِ، والرِّيحُ تَعْوي وتَعْوي سُدى
كأَنَّ أَناشيدَنا في ٱلْخَريفِ أَناشيدُهُمْ في ٱلْخَريف
كأَنَّ ٱلْبِلادَ تُلَقِّنُنا ما نَقول...
ولكنَّ عِيدَ الشَّعيرِ لَنا، وَأَريحا لَنا، ولَنا
تَقاليدُنا فِي مَديحِ ٱلْبُيوتِ وَتَرْبِيَةِ ٱلْقَمْحِ وٱلْأُقْحُوان

□

سَلاماً على أَرْضِ كَنْعانَ،
أَرْضِ ٱلْغَزالَةِ،
وٱلأَرْجُوان

شتاء ريتا

ريتا تُرَتِّبُ لَيْلَ غُرْفَتِنا: قَليلُ
هذا النَّبيذُ،
وهذه ٱلأَزْهارُ أَكْبَرُ مِنْ سَريري
فٱفْتَحْ لَها الشُّبّاكَ كَي يَتَعَطَّرَ اللَّيلُ الجَميلُ
ضَعْ، ههُنا، قَمَراً على الكُرْسِيِّ. ضَعْ
فَوْقَ، البُحَيْرَةَ حَوْلَ مِنْديلي لِيَرْتَفِعَ ٱلنَّخيلُ
أَعْلى وأَعْلى،
هَلْ لَبِسْتَ سِوايَ؟ هَلْ سَكَنَتْكَ إمْرَأَةٌ
لِتُجْهِشَ كُلَّما ٱلتَفَّتْ على جِذْعي فُروعُكَ؟
حُكَّ لي قَدَمي، وحُكَّ دَمي لِنَعْرِفَ ما
تُخَلِّفُهُ العَواصِفُ والسُّيولُ
مِنِّي ومِنك ...

تَنامُ ريتا في حَديقَةِ جِسْمِها
توتُ السِّياجِ على أَظافِرِها يُضيءُ المِلْحَ في
جَسَدي. أُحِبُّكِ. نامَ عُصْفورانِ تحتَ يَدَيَّ...
نامَتْ مَوْجَةُ القَمْحِ النَّبيلِ على تَنَفُّسِها البَطيءِ،
وَوَرْدَةٌ حَمْراءُ نامَتْ في المَمَرِّ،
ونامَ لَيْلٌ لا يَطولُ
والبَحْرُ نامَ أَمامَ نافِذَتي على إِيقاعِ ريتا
يَعْلو ويَهْبِطُ في أَشِعَّةِ صَدْرِها العاري، فَنامي
بَيْني وبَيْنَكِ، لا تُغَطِّي عَتْمَةَ الذَّهَبِ العَميقَةَ بَيْنَنا
نامي يَداً حَوْلَ الصَّدى،
ويَداً تُبَعْثِرُ عُزْلَةَ الغاباتِ، نامي
بينَ القَميصِ الفُسْتُقِيِّ وَمَقْعَدِ اللَّيْمونِ، نامي
فَرَساً على راياتِ لَيْلَةِ عُرْسِها...
هَدَأَ الصَّهيلُ
هَدَأَت خَلايا النَّحْلِ في دَمِنا، فَهَلْ كانَتْ هُنا
ريتا، وهَلْ كُنَّا مَعاً؟

... ريتا سَتَرْحَلُ بَعْدَ ساعاتٍ وتَتْرُكُ ظِلَّها

زَنْزَانَةٌ بَيْضاءَ. أينَ سَنَلْتقي؟
سَأَلَتْ يَدَيْها، فالْتَفَتُّ إلى البَعيد

البَحْرُ خَلْفَ البابِ، والصَّحْراءُ خَلْفَ البَحْرِ، قَبِّلْني على
شَفَتَيَّ ـ قالَتْ. قُلْتُ: يا ريتا، أَأَرْحَلُ من جَديد
ما دامَ لي عِنَبٌ وذاكِرَةٌ، وتَتْرُكُني الفُصولُ

بينَ الإِشارَةِ والعِبارَةِ هاجِساً؟
ماذا تَقول؟

لا شَيْءَ يا ريتا، أُقَلِّدُ فارِساً في أُغْنيَة
عن لَعْنَةِ الحُبِّ المُحاصَرِ بالمَرايا...

عَنِّي؟
وعن حُلُمَيْنِ فَوْقَ وِسادَةٍ يَتَقاطَعانِ ويَهْرُبانِ، فَواحِدٌ
يَسْتَلُّ سِكِّيناً، وآخَرُ يُودِعُ النَّايَ الوَصايا
لا أُدْرِكُ المَعْنى، تَقولُ
ولا أَنا، لُغَتي شَظايا

كَغيابِ إِمْرَأةٍ عن المَعْنى، وتَنْتَحِرُ الخُيولُ
في آخِرِ المَيْدان ...

ريتا تَحْتَسي شايَ الصَّباحِ
وتُقَشِّرُ التُّفاحَةَ الأُولى بعَشْرِ زَنابِقٍ،
وتَقولُ لي:
لا تَقْرَأِ الآنَ الجَريدَةَ، فالطُّبولُ هي الطُّبولُ
والحَرْبُ لَيْسَتْ مِهْنَتي. وأَنا أَنا. هَلْ أَنتَ أَنتَ؟
أَنا هُوَ،
هو مَنْ رَآكِ غزالَةً ترمي لآلِئَها عَلَيْه
هُوَ مَنْ رَأى شَهَواتِهِ تَجْري وَراءَكِ كالغَدير
هُوَ مَنْ رَآنا تائِهَيْنِ تَوَحَّدا فَوْق السَّرير
وتَباعَدا كَتَحِيَّةِ ٱلْغُرَباءِ في ٱلْميناءِ، يَأْخُذُنا الرَّحيلُ
في ريحِهِ وَرَقاً ويَرْمينا أمامَ فَنادِقِ ٱلْغُرَباءِ
مثلَ رسائِلٍ قُرِئَتْ على عَجَلٍ،
أَتَأْخُذُني مَعَكْ؟
فَأَكونَ خاتَمَ قَلْبِكَ ٱلحافي، أَتَأْخُذُني مَعَكْ
فَأَكونَ ثَوْبَكَ في بِلادٍ أَنْجَبَتْكَ... لِتَصْرَعَكْ

وأَكونَ تابوتاً من النَّعْناعِ، يَحْمِلُ مَصْرَعَكْ
وتَكونَ لي حَيّاً ومَيْتاً،

ضاعَ يا ريتا الدَّليلُ
والحُبُّ مِثْلُ المَوْتِ وَعْدٌ لا يُرَدُّ ... ولا يَزولُ

... ريتا تُعِدُّ لِيَ النَّهارْ
حَجَلاً تَجَمَّعَ حَوْلَ كَعْبِ حِذائِها العالي:
صَباحُ الخَيْرِ يا ريتا،
وغَيْماً أَزْرَقاً للياسَمينَةِ تَحْتَ إبْطَيْها:
صَباحُ الخَيْرِ يا ريتا،
وفاكِهَةً لضَوْءِ الفَجْرِ: يا ريتا صَباح الخَيْرِ، يا
ريتا أعيديني إلى جَسَدي لِتَهْدَأَ لَحْظَةً
إِبَرُ الصَّنَوْبَرِ في دَمي المَهْجورِ بَعْدَكِ. كُلَّما
عانَقْتُ بُرْجَ العاجِ فرَّتْ من يَديَّ يَمامَتان..
قَالتْ: سَأَرْجِعُ عِنْدَما تَتَبَدَّلُ الأَيَّامُ والأَحْلامُ، يا ريتا... طَويلُ
هذا الشِّتاءُ، ونَحنُ نَحنُ، فلا تَقولي ما أَقولُ أَنا هيَ،
هِيَ مَنْ رَأَتْكَ مُعَلَّقاً فوقَ السِّياجِ، فَأَنْزَلَتْكَ وضَمَّدَتْكْ

وبِدَمْعِها غَسَلَتْكَ، وانْتَشرتْ بسَوْسَنِها عَلَيْكْ
وَمَرَرْتَ بينَ سُيوفِ إخْوَتِها ولَعْنَةِ أمِّها. وأَنا هِيَ
هل أَنتَ أنتْ؟

... تَقومُ ريتا
عن رُكْبَتَيَّ، تَزُورُ زينَتَها، وتَرْبُطُ شَعْرَها بفَراشَةٍ
فِضِّيَّةٍ. ذَيْلُ الحِصانِ يُداعِبُ النَّمَشَ المُبَعْثَرْ
كَرَذاذِ ضَوْءٍ داكِنٍ فوقَ الرُّخامِ الأُنْثَوِيِّ. تُعيدُ ريتا
زِرَّ القَميصِ إلى القَميصِ الخَرْدَليِّ... أأَنتَ لي؟
لَكِ، لو تَرَكْتِ البابَ مَفْتوحاً على ماضِيَّ، لي
ماضٍ أَراه الآن يُولَدُ من غِيابِكِ،
من صَريرِ الوَقْتِ في مِفْتاحِ هذا البابِ، لي
ماضٍ أراهُ الآنَ يَجْلِسُ قُرْبَنا كالطَّاوِلَةْ،
لي رَغْوَةُ الصَّابونِ،
والعَسَلُ المُمَلَّحُ،
والنَّدى،
والزَّنْجَبيلُ
ولَكَ الأَيائلُ، إنْ أرَدْتَ، لَكَ الأَيائِلُ والسُّهولُ

وَلَكَ الأَغاني، إنْ أَرَدْتَ، لَكَ الأَغاني والذُّهولُ
إني وُلِدْتُ لكي أُحِبَّكْ
فَرَساً تُرَقِّصُ غابَةً، وتَشُقُّ في آلمَرْجان غَيْبَكْ
وَوُلِدْتُ سَيِّدَةً لسَيِّدِها، فَخُذْني كَي أَصُبَّكْ
خَمْراً نِهائِيّاً لأَشْفى مِنْكَ فيكَ، وهاتِ قَلْبَكْ
إنّي وُلِدْتُ لكي أُحِبَّكْ
وتَرَكْتُ أُمِّي في المَزاميرِ القَديمَةِ تَلْعَنُ الدُّنْيا وشَعْبَكْ
وَوَجَدْتُ حُرَّاسَ المَدينَةِ يُطْعِمونَ النَّارَ حُبَّكْ
وأَنا وُلِدْتُ، لكي أُحِبَّكْ

... ربتا تُكَسِّرُ جَوْزَ أَيَّامي، فَتَتَّسِعُ الحُقولُ
لِيَ هذه الأَرْضُ الصَّغيرةُ غُرْفَةٌ في شارعٍ
في الطَّابِقِ الأَرْضِيِّ من مَبْنىً على جَبَلٍ
يُطِلُّ على هَواءِ البَحْرِ. لي قَمَرٌ نَبيذِيٌّ، ولي حَجَرٌ صَقيلُ
لي حِصَّةٌ من مَشْهَدِ المَوْجِ المُسافِرِ في الغُيومِ، وحِصَّةٌ
من سِفْرِ تَكْوينِ البِدايَةِ، حِصَّةٌ من سِفْرِ أَيّوبٍ، وَمِنْ
عيدِ الحَصادِ، وحِصَّةٌ مِمّا مَلَكْتُ، وحِصَّةٌ من خُبْزِ أُمّي
لي حِصَّةٌ من سَوْسَنِ الوِدْيانِ في أَشْعارِ عُشّاقٍ قُدامى

لي حِصَّةٌ من حِكْمَةِ العُشَّاقِ: يَعْشَقُ وَجْهَ قاتِلِهِ القَتيلُ،

لَو تَعْبُرينَ ٱلنَّهْرَ، يا ريتا.
وأَينَ ٱلنَّهْرُ؟ قالَتْ ...
قُلْتُ: فيكِ وفِيَّ نَهْرٌ واحِدٌ،
وأنا أَسيلُ دَماً، وذاكِرَةً أَسيلُ
لَمْ يَتْرُكِ الحُرَّاسُ لي باباً لأَدْخُلَ، فَاتَّكَأْتُ على الأُفُقْ
وَنَظَرْتُ تَحْتَ،

نَظَرْتُ فَوْقَ،
نَظَرْتُ حَوْلَ،
فلَمْ أَجِدْ
أُفُقاً لأَنْظُرَ، لَمْ أجِدْ في الضَّوْءِ إلّا نَظْرَتي
تَرْتَدُّ نَحْوي. قُلتُ: عُودي مَرَّةً أُخرى إليَّ، فَقَدَ أَرى
أَحَداً يُحاوِلُ أَنْ يَرَى أُفُقاً يُرَمِّمُهُ رَسولُ
بِرسالَةٍ من لَفْظَتَيْنِ صَغيرَتَيْنِ: أَنا، وأنتِ
فَرَحٌ صَغيرٌ في سَريرٍ ضَيِّقٍ... فَرَحٌ ضَئيلُ
لَمْ يَقْتُلونا، بَعْدُ، يا ريتا، ويا ريتا.. ثَقيلُ

هذا الشِّتاءُ وبارِدٌ

... ريتا تُغنِّي وَحْدَها
لِبَريدِ غُرْبَتِها الشَّماليِّ البَعيد: تَرَكْتُ أُمّي وَحَدَها
قُرْبَ البُحَيْرَةِ وَحْدَها، تَبْكي طُفولَتِيَ البَعيدَةَ بَعْدَها
في كُلِّ أُمْسِيَةٍ تَنامُ على ضَفيرَتِيَ الصَّغيرةِ عندَها
أُمّي، كَسَرْتُ طُفولَتي وخَرَجْتُ إمْرَأَةً تُرَبِّي نَهْدَها
بِفَمِ الحَبيبِ. تَدُورُ ريتا حَوْلَ ريتا وَحْدَها:
لا أَرْضَ للجسَدَيْنِ في جَسَدٍ ولا مَنْفىً لِمَنْفَى
في هذه الغُرَفِ الصَّغيرَةِ، والخُروجُ هو الدُّخولُ
عَبَثاً نُغَنِّي بينَ هاوِيَتَيْنِ، فَلْنَرْحَلْ... لِيَتَّضِحَ السَّبيلُ
لا أسْتَطيعُ، ولا أنا، كانَتْ تَقولُ ولا تَقولُ
وتُهَدِّئُ الأفْراسَ في دَمِها: أَمِنْ أَرْضٍ بَعيدَةْ
تَأْتي السُّنونو، يا غَريبُ ويا حَبيبُ، إلى حَديقَتِكَ الوَحيدَةْ؟
خُذْني إلى أَرْضٍ بَعيدَة
خُذْني إلى الأَرْضِ البَعيدَةِ، أَجْهَشَتْ ريتا: طَويلُ
هذا الشِّتاءُ،
وكَسَّرَتْ خَزَفَ النَّهارِ على حَديدِ النَّافِذَة

وَضَعَتْ مُسَدَّسَها الصَّغيرَ على مُسَوَّدَةِ القَصيدَةْ
وَرَمَتْ جَوارِبَها على الكُرْسِيِّ، فَانْكَسَرَ الْهَديلُ
ومَضَتْ إلى المَجْهولِ حافِيَةً، وأَدْرَكَني الرَّحيلُ

فرس للغريب

(إلى شاعرٍ عراقيّ)

أُعِدُّ، لأَرْثيكَ، عِشْرينَ عاماً من الحُبِّ. كُنْتَ
وَحيداً هناكَ تُؤَثِّثُ مَنْفىً لسَيِّدَةِ الزَّيْزَفُونِ، وبَيْتا
لِسَيِّدِنا في أَعالي الكَلامِ. تَكَلَّمْ لِنَصْعَدَ أَعْلى
وأَعْلى ... على سُلَّمِ ٱلْبِئْرِ، يا صاحِبي، أَينَ أَنتَ؟
تَقَدَّمْ، لأَحْمِلَ عنكَ الكَلامَ ... وأَرْثيكَ/

... لو كانَ جِسْراً عَبَرْناهُ. لكِنَّه الدّارُ والهاوِيَة
وللقَمَرِ البابِلِيِّ على شَجَرِ اللَّيلِ مَمْلَكَةٌ لَمْ تَعُدْ
لَنا، مُنْذُ عادَ التَّتارُ على خَيْلِنا. والتَّتارُ الجُدُدْ
يَجُرُّونَ أَسْماءَنا خَلْفَهُم في شِعابِ الجِبالِ، ويَنْسَوْنَنا
ويَنْسَوْنَ فينا نَخيلاً ونَهْرَيْنِ: يَنْسَوْن فينا العِراقْ

أَما قُلْتَ لي في الطَّريقِ إلى الرِّيحِ: عمَّا قَليل

سَنَشْحَنُ تاريخَنا بالمَعاني، وتَنْطَفِئُ الحَربُ عمَّا قَليل
وعمَّا قَليلٍ نُشَيِّدُ سُومَرَ، ثانِيَةً، في الأَغاني
ونَفْتَحُ بابَ المَسارحِ للنَّاسِ والطَّيْرِ من كلِّ جِنْسٍ؟
وَنَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ بِنا آلرِّيح .../

... لم يَبْقَ في الأَرْضِ مُتَّسَعٌ لِلقَصيدَةِ، يا صاحِبي
فَهَلْ في القَصيدَةِ مُتَّسَعٌ، بَعْدُ، لِلأَرْضِ بَعْدَ آلْعِراق؟
وَروما تُحاصِرُ أَمْطارَ عالَمِنا، وآلزُّنوجُ يَدُقُّونَ أَقْمارَها
نُحاساً عَلَى آلْجازِ. روما تُعيدُ آلزَّمانَ إلى آلْكَهفِ. روما
تَهُبُّ على الأَرْضِ، فَآفْتَحْ لِمَنْفاكَ مَنْفى...

لَنا غُرَفٌ في حَدائِقِ آب، هُنا في البِلادِ آلَّتي
تُحِبُّ آلكِلابَ وَتَكْرَهُ شَعْبَكَ وآسْمَ آلْجَنوبِ. لَنا
بَقايا نِساءٍ طُرِدْنَ من الأُقْحُوانِ. لَنا أَصْدِقاءُ
من الغَجَرِ آلطَّيِّبينَ. لَنا دَرَجُ آلْبارِ. رامبو لنا. ولنا
رَصيفٌ مِنَ آلكَسْتَناء. لَنا تكنولوجيا لِقَتْلِ آلْعِراق

تَهُبُّ جَنُوبيّةً ريحُ مَوْتاكَ. تَسْأَلُني: هَلْ أَراك؟

أَقول: تَراني مَساءً قَتيلاً على نَشْرَةِ الشَّاشَةِ ٱلْخامِسَة
فَما نَفْعُ حَرّيّتي يا تَماثيلَ رودانَ؟ لا تَتَساءَلْ، ولا تُعَلِّقْ على
بَلَحِ ٱلنَّخْلِ ذاكِرَتي جَرَساً. قَدْ خَسِرْنا
مَنافِينَا مُنْذُ هَبَّتْ جَنوبِيّةً ريحُ مَوْتاك .../

... لا بُدَّ مِنْ فَرَسٍ لِلْغَريبِ لِيَتْبَعَ قَيْصَرَ، أَوْ
لِيَرْجِعَ مِنْ لَسْعَةِ ٱلنَّايِ. لَا بُدَّ مِنْ فَرَسٍ لِلغَريبْ
أَما كانَ في وُسْعِنا أَنْ نَرى قَمَراً وَاحِداً لا يَدُلُّ
على ٱمْرَأَةٍ ما؟ أما كان في وُسْعِنا أَنْ
نُمَيِّزَ بَيْنَ ٱلبَصيرَةِ يا صاحِبي، والبَصَرْ؟

لَنا ما عَلَيْنا من ٱلنَّخْلِ وَٱلمُفْرَداتِ. خُلِقْنا لِنَكْتُبَ عَمّا
يُهَدِّدُنا مِنْ نِساءٍ وَقَيْصَرَ... والأَرْضِ حِيْنَ تَصيرُ لُغَةْ،
وَعَنْ سِرِّ جلجامشَ ٱلْمُسْتَحيلِ، لِنَهْرُبَ مِنْ عَصْرِنا
إِلى أَمْسِ خَمْرَتِنا الذَّهَبِيِّ ذَهَبْنا، وَسِرْنا إِلى عُمْرِ حِكْمَتِنا
وكانت أَغاني الحَنينِ عِرَاقِيّةً، وٱلعِراقُ نَخيلٌ ونَهْران .../

... لِي قَمَرٌ في الرَّصافَةِ. لي سَمَكٌ في ٱلفُراتِ، ودِجْلَةْ
ولي قارئٌ في ٱلجَنوبِ. ولي حَجَرُ الشَّمْسِ في نَيْنَوى

وَنَيْروزُ لِي في ضَفائِرِ كُرْدِيّةٍ في شَمالِ ٱلشَّجَنْ
ولي وَرْدَةٌ في حَدائِقِ بابِلَ. لي شاعِرٌ في بُوَيْب
ولي جُثَّتي تَحْتَ شَمْسِ ٱلعِراق

على صورَتي خَنْجَري. وعلى خَنْجري صورَتي. كُلَّما
بَعُدْنا عَنِ النَّهْرِ مَرَّ ٱلْمَغولِيُّ، يا صاحِبي، بَيْنَنا
كَأَنَّ ٱلقَصائِدَ غَيْمُ الأَساطيرِ. لا ٱلشَّرْقُ شَرْقٌ
ولا ٱلغَربُ غَرْبٌ. تَوَحَّدَ إِخْوَتُنا في غَريزَةِ قابيلَ. لا
تُعاتِبْ أَخاكَ، فإِنَّ ٱلبَنَفْسَجَ شاهِدَةُ ٱلْقَبر .../

... قَبْرٌ لِباريسَ، لُنْدنَ، روما، نيويورك، موسكو، وقبر
لِبَغدادَ، هَلْ كانَ من حَقِّها أَن تُصَدِّقَ ماضِيَها ٱلْمُرْتَقَبْ؟
وَقَبْرٌ لإِيتاكَةِ ٱلدَّرْبِ وَٱلْهَدَفِ ٱلصَّعْبِ، قَبْرٌ لِيافا...
وَقَبْرٌ لِهوميرَ أَيْضاً وَلِلْبُحْتُرِيِّ، وقبرٌ هو ٱلشِّعْرُ، قبرٌ
من الرِّيحِ... يا حَجَرَ ٱلرُّوحِ، يا صَمْتَنا!

نُصَدِّقُ، كَي نُكْمِلَ ٱلتِّيهَ، أنَّ الخَريفَ تَغَيَّرَ فينا

نَعَمْ، نَحْنُ أَوْراقُ هذا ٱلصَّنَوْبَرِ، نَحْنُ ٱلتَّعَب
وقَدْ خَفَّ، خارِجَ أجسادِنا، كالنَّدى... وَٱنْسَكَب
نَوارِسَ بيضاءَ تبحثُ عن شُعَراءِ ٱلْهَواجِس فينا
وعَنْ دَمْعَةِ ٱلْعَرَبِيِّ الأَخيرةِ، صَحْراء... صَحْراء/

... لَمْ يَبْقَ فِي صَوْتِنا طائِرٌ واحِدٌ لِلرَّحيلِ إِلى
سَمَرْقَنْدَ أَو غَيرِها، فٱلزَّمانُ تَكَسَّرَ وٱللُّغَةُ ٱنْكَسَرَتْ
وهذا ٱلهَواءُ ٱلَّذي قد حَمَلْناهُ يَوْماً على كَتِفَيْنا
عَناقيدَ مِن عِنَبٍ مُوصِليٍّ، يُطِلُّ صَليباً عَلينا
فمَنْ يَحْمِلُ ٱلآنَ عِبْءَ ٱلْقَصيدَةِ عَنّا؟

ولا صَوْتَ يَصْعَدُ، لا صَوْتَ يَهْبِطُ، بَعْدَ قَليل
سَنُفْرِغُ آخِرَ أَلْفاظِنا في مَديحِ ٱلمَكانِ، وَبَعْدَ قليل
سَنَرْنو إِلى غَدِنا، خَلْفَنا، في حَريرِ ٱلكَلامِ ٱلقَديم
وسَوْفَ نُشاهِدُ أحْلامَنا في ٱلْمَمَرّاتِ تَبْحَثُ عَنّا
وعَنْ نَسْرِ أَعْلامِنا ٱلسُّود .../

صَحْراءُ للصَّوْتِ، صَحْراءُ لِلصَّمْتِ، صحراءُ لِلْعَبَثِ ٱلأَبَدِيّ

لِلَوْحِ ٱلشَّرائِعِ صَحْراءُ، للكُتُبِ المَدْرسِيَّةِ، للأَنبِياءِ وللعُلَماءْ
لشيكسبيرَ صَحْراءُ، للباحِثِينَ عنِ اللّهِ في الكائنِ الآدَميّ
هُنا يَكْتُبُ ٱلعَرَبِيُّ الأَخيرُ: أَنا العَرَبِيُّ ٱلّذي لَمْ يَكُنْ
أَنا العَرَبِيُّ ٱلَّذي لَمْ يَكُنْ

قُلِ الآنَ إِنَّكَ أَخْطَأْتَ، أَو لا تَقُلْ
فَلَنْ يَسْمَعَ ٱلمَيِّتونَ ٱعْتِذارَكَ منهم، ولَنْ يَقْرَؤوا
مَجلاَّتِ قاتِلِهِمْ كَيْ يَرَوْا ما يَرَوْنَ، ولن يَرْجِعوا
إِلى ٱلبَصْرةِ ٱلأَبَدِيَّةِ كَيْ يَعْرِفوا ما صَنَعْت
بأُمِّكَ، حِينَ ٱنْتَبَهْتَ إِلى زُرْقَةِ ٱلبَحْر .../

... قُلْ إِنَّنا لَمْ نُسافِرْ لِنَرْجِعَ... أَوْ لا تَقُلْ
فإِنَّ ٱلكلامَ ٱلنِّهائِيَّ قيلَ لأُمِّكَ، بٱسْمِكَ:
أَعِنْدَكِ ما يُثْبِتُ ٱلآنَ أَنَّكِ أُمِّي الوَحيدَة؟
وَإِن كانَ لا بُدَّ من عَصْرِنا، فَلْيَكُنْ مَقْبَرَةْ
كَما هُوَ، لا مِثْلَما تَتَجَلّى سُدُومُ الجَديدَة

وَلَنْ يَغْفِرَ ٱلمَيِّتونَ لِمَنْ وَقَفوا، مِثْلَنا، حائِرِين

على حافَّةِ ٱلْبِئْر: هَلْ يُوسُفُ السُّومَرِيُّ أَخونا
أَخُونا ٱلْجَميلُ، لنَخْطَفَ مِنْهُ كَواكِبَ هذا المساءِ ٱلْجَميلِ؟
وإن كانَ لا بُدَّ من قَتْلِهِ، فَلْيَكُنْ قَيْصَرٌ
هُوَ ٱلشَّمْسُ فَوْقَ ٱلْعِراقِ ٱلْقَتيل!

سَأُولَدُ مِنْكَ وَتُولَدُ مِنّي. رُوَيْداً رُوَيْداً سَأَخْلَعُ عَنْك
أصابعَ مَوْتايَ، أَزْرارَ قُمْصانِهِمْ، وبِطاقاتِ ميلادِهِمْ
وتخلعُ عنّي رَسائلَ مَوْتاكَ لِلْقُدْسِ، ثُمَّ نُنَظِّفُ نظَّارَتَيْنا
من ٱلدَّمِ، يا صاحِبي، كَيْ نُعيدَ قِراءَةَ كافْكا
ونَفْتَحَ نافِذَتَيْنِ على شارعِ ٱلظِّلّ .../

... في داخِلي خارِجي. لا تُصَدِّقْ دُخانَ ٱلشِّتاءِ كثيراً
فعمّما قليلٍ سَيَخْرُجُ إِبْريلُ مِن نَوْمِنا. خارِجي داخِلي
فلا تَكْتَرِثْ بِٱلتَّماثيلِ... سَوْفَ تُطَرِّزُ بِنْتٌ عِراقِيَّةٌ ثَوْبَها
بأَوَّلِ زَهْرَةِ لَوْزٍ، وتَكْتُبُ أَوَّلَ حَرْفٍ من آسْمِكَ
على طَرَفِ ٱلسَّهْمِ فوقَ آسْمِها...

في مَهَبِّ ٱلْعِراق

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

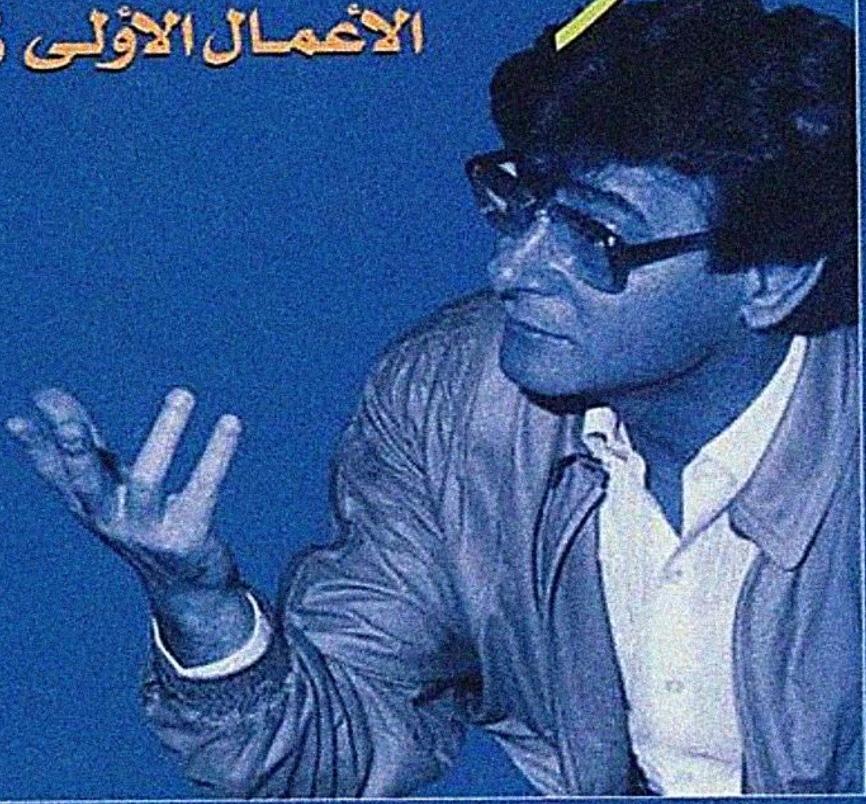
الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى 3



ISBN 9953-21-206-6
9 789953 212067

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS